إرث الكرامة
حين تبقى ... يسقط الخوف
سجن المخابرات
وثيقة سرية
Faisal Murjan

الإهداء

إلى جميع الشهداء الكرام
إلى الساروت والخطيب حمزة و...و...
إلى المغمورين الذين لا يعلمهم إلا الله
إلى كل من قدموا أرواحهم فداءاً لسوريا الإسلام والعروبة
وإلى الذين خرجوا من أبواب السجون
فوجدوا أنفسهم في سجون أخرى...
إلى من تركوا خلفهم رفاقاً
لم تفتح لهم الأبواب...
إلى "الأحرار" وكل من حملوا الموت في قلوبهم
ثم عادوا ليولدوا من جديد.
أسأل الله أن يثيبكم بأجمل العطاء والجزاء
يوم يقوم الناس لرب العالمين.

المقدمة

في أعماق الزنازين السورية، حيث يغيب الضوء وتتلاشى الأسماء، حيث يتحول الإنسان إلى رقم، وتصبح الصرخة آخر ما يملكه قبل أن تبتلعها الجدران السميكة، هناك حكايات لا تموت. حكايات لأرواح اختارت الكرامة على الحياة، ودفعت ثمناً باهظاً في سجون بشار الأسد المجرم وعصابته.

هذا الكتاب ليس مجرد توثيق، بل صرخة من أعماق الجحيم. إنه يروي قصص أسرى وشهداء عاشوا في بطن الوحش: أيوب الصفراوي الذي تحول من تاجر خضرة إلى طبيب يداوي جراح المساجين بلا شهادة، ورامي حسان الذي دخل السجن في السابعة عشرة وخرج منه وهو يحمل جروحاً لا تندمل، ونورا الحموي التي جردت من ملابسها وكرامتها وهي أم لأربعة أطفال، ونائل السويدي الذي اقتيد من حاجز عسكري إلى غياهب أمن الدولة، وحسين الشرع الذي بدأ رحلته من جولان الطفولة إلى سجون البعث.

كلهم عاشوا في زنازين حيث كان الموت رفيقاً يومياً، والجوع سلاحاً، والبرد غطاءً، والتعذيب لغة الحوار الوحيدة. كلهم اختبروا الإذلال بأبشع صوره، لكنهم لم ينكسروا. وحين سقط النظام أخيراً، خرجوا من تحت الأنقاض حاملين شهاداتهم، يروون للعالم ما حدث في صيدنايا وفرع فلسطين والطاحونة الحمراء والأمن العسكري.

هذه القصص ليست مجرد حكايات، بل هي إرث من الكرامة، وشهادة على أن الروح الإنسانية أقوى من كل قيود، وأن الظلم مهما طال لابد أن يزول. وفي ذكرى سقوط الطاغية، نكتب هذه السطور لنقول: هؤلاء هم صنّاع الأمل، وهذه هي سوريا التي نهضت من رمادها.

رحم الله الشهداء، وشفى الله الجرحى، وطوى الله صفحات الظلم إلى الأبد.

هذا الكتاب يضم مجموعة من القصص التي تروي معاناة الأسرى السوريين في سجون النظام البائد، بأسلوب أدبي مشوق يخلد ذكراهم وينقل صورة حية عن سنوات الجحيم التي عاشتها سوريا.

جدول المحتويات

ص	العنوان
٥	حياة بين السجون والمنافي
٤٩	مهجع المثقفين
١٠١	الرقم ٤٩
١١٣	الطاحونة الحمراء
١٣٧	الجحيم
١٥٣	حكاية امرءة حلبية
١٨٦	حرية
٢٠٢	خارج الجدران ١٨٥٨ "مازن حمادة"
٢١٢	صحفية خلف القضبان
٢٢٨	الفرار إلى الحرية
٢٤٧	العائد من صيدنايا

حياة بين السجون والمنافي

الفصل الأول: رائحة الخبز والتراب (الجولان)

- **مشهدية الطفولة في قرية جُبّين، الحوش الكبير، الفلسطينيون، رائحة الخبز، صوت المذياع.**

الفصل الثاني: جمر تحت الرماد (الصحوة)

- **الوحدة مع مصر، المظاهرات، خطابات عبد الناصر، حلم العروبة، وبداية الاصطدام مع البعث.**

الفصل الثالث: الهاوية (السجن والهروب)

- **ليلة الاعتقال، الزنزانة تحت الأرض، خطة الهروب المحفوفة بالمخاطر، عبور نهر الشريعة في ليلة شتوية.**

الفصل الرابع: غرباء في بغداد (المنفى)

- **الحياة في العراق، صراع الدراسة، شبح الطرد، ولحظة الانتصار بقرار وزاري.**

الفصل الخامس: مواجهة الوحش (العودة)

- **العودة الطوعية لمواجهة المجهول، الزنزانة مجدداً، الحوار المصيري مع المحقق، والعفو غير المتوقع.**

الفصل السادس: صندوق باندورا (النفط والفساد)

- **اكتشاف فساد العائلة الحاكمة، المستندات السرية، المواجهة مع أعتى الأجهزة، وقرار الصمت حفاظاً على العائلة.**

الفصل الأول

رائحة الخبز والتراب

لم تكن "جُبَيِّن" مجرد قرية على حافة هضبة الجولان. كانت عالماً قائماً بذاته، تتنفس برئة الأرض وقلب السماء. هناك، حيث تلتقي زرقة بحيرة طبريا بخضرة السهل، وحيث تصطخب الرياح في أوراق الزيتون، عاش "حسين" طفولته الأولى. طفولة لم تكن تعرف أن التاريخ يتربص بها، وأن الزمن الآتي سيحملها بعيداً عن ذلك الحوش الكبير الذي احتوى العالم كله.

كان الحوش مملكة شاسعة، ثلاثة دونمات من الأرض المباركة، تتوسطها الدار التي بناها الأجداد من الحجر البازلتي الأسود، ذلك الحجر الذي قاوم الزمن قبل أن تقاومه البيوت. كانت الجدران عريضة، مكحلة بالجصين الذي كانوا يصنعونه بأيديهم قبل أن يعرف العالم الإسمنت. وفي قلب هذا الحوش، كانت الحياة تدب كخلية نحل لا تهدأ.

في زاوية من الزاوية، كان فرن الطين مستيقظاً قبل الفجر. كانت "أم حسين" قد انتهت لتوها من العجين، ويداها اللتان عركتا الطحين والماء لساعات تحملان الآن الرغيف تلو الرغيف، ترسله إلى جوف الفرن الحار. كان حسين يستيقظ على تلك الرائحة، رائحة الخبز التي تتسلل من تحت الباب، تملأ الغرفة الصغيرة التي يتقاسمها مع إخوته، وتوقظ في نفسه جوعاً لم يكن جوع البطن وحده.

"يلاّ... قوموا يا أولاد... الخبز صار جاهز".

كان صوت أمه هو الإذاعة الأولى في ذاك البيت. صوت يحمل نبرة الأمر والحب معاً، لا تعرف فيه أين ينتهي الساهر وأين تبدأ الحنون. كانت النساء في ذلك الزمان يُنصِبن أفرانهن قبل صلاة الفجر، يعجنّ في الليل على ضوء الفانوس، ويخبزن مع أول ضوء، حتى إذا استيقظ الصغار وجدوا الخبز ساخناً ينتظرهم.

كان حسين يغسل وجهه بالماء البارد من الجرة الفخارية الموضوعة على عتبة الدار. ماء يحمل برد الليل الجولاني، فينعش الروح ويطرد بقايا النوم. ثم يتجه إلى حيث يجلس

والده على حصير متواضع، وأمامه صينية الشاي. كان المشهد يتكرر كل صباح: البريموس يغلي، والشاي يتخدر في الإبريق، ورغيف الخبز الأسمر ينتظر أن يُغمس في اللبن.

"بسم الله".

كانت وجبة الفطور بسيطة، تكاد لا تُرى في عيون أبناء المدن: خبز ولبن وكأس شاي.

لكنها كانت كافية.

كانت تملأ البطون وتذهب بالأولاد إلى مدارسهم راضين.

لم يكن أحد في القرية يعرف الجوع، كما لم يكن أحد يعرف التخمة.

كان الجميع في مستوى واحد، يأكلون ما تنتجه الأرض، ويلبسون ما تنسجه أيادي الأمهات.

بعد الفطور، كان حسين يلبس "الجناد"، تلك الحقيبة القماشية التي فصلتها أمه من قماش "الشرش الحوراني" المتين، والتي تعلق على الكتف وتحمل الكتب والزوّادة معاً.

لم تكن هناك حقائب مدرسية جلدية، ولا قرطاسية ملونة. كان القماش المتين كافياً، وكانت الكتب قليلة لكنها ثمينة.

"بدكم تروحوا... الطريق طويلة".

كانت المدرسة الأولى في منطقة تبعد ثلاثة كيلومترات. مشياً على الأقدام، في الصباح الباكر، مع أبناء القرية جميعاً. أبناء الفلاحين وأبناء الملاكين، لا فرق. الجميع يحمل "جناده" على كتفه، والجميع يسير في نفس الطريق، تحت نفس الشمس، نحو نفس المبنى الحجري الذي ينتصب في وسط السهول.

كان الطريق إلى المدرسة متعة لا توصف. أولاد يركضون، وفتيات يضحكن، وشمس الجولان الذهبية تشرق على وجوه سمراء عافتها الشمس. كان حسين يسير مع أقرانه، يتبادلون الحديث عن الدروس، وعن المباريات، وعن أحلام يقظة لا تتجاوز حدود الأفق المنظور. كانوا لا يعرفون أن العالم أكبر من جُبَيِّن، وأن الحياة تحضر لهم دروساً لن تكون في أي كتاب.

في المدرسة، كان نظام الدوام مزدوجاً. من الثامنة إلى الثانية عشرة، درس. ثم استراحة للغداء يسمونها "فيدوس"، يعودون فيها إلى بيوتهم القريبة. ثم من الثانية إلى الرابعة، درس آخر. وبعدها، عودة إلى البيت، وواجبات على ضوء الفانوس، وحكايات المساء.

وكانت الحكايات هي الجامعة الحقيقية. كان والد حسين، الرجل الذي ورث الأرض والمكانة، يجلس في المساء على مصطبة الدار، وحوله الجيران والأقارب، يحكون عن أيام زمان. عن الجد "طالب الشرع" الذي كان مختار البلدة. عن الثورة العربية الكبرى. عن الفرنسيين الذين مروا من هنا. عن عائلات فلسطينية كثيرة، ثماني عائلات بالتمام، سكنت في حوشهم حين هُجّرت من صفد وحيفا وطبريا عام ١٩٤٨.

"كنا فاتحينلهم الدار... مو بس الغرف، حتى الباحة نصبنا فيها شوادر. كانوا إخواننا، وأكلنا من أكلهم، وعيشنا مع بعض".

كانت هذه الروح هي ما ميز جُبَيِّن. لم يكن فيها جوع، ولا فرق بين غني وفقير. كان الإقطاعي يأكل مع فلاحه في نفس القصعة، ويجلس معه على نفس الحصير. ولم يكن ذلك من باب التفضل، بل من طبيعة الحياة التي جعلت الجميع سواسية أمام الأرض التي تمنح ولا تسأل، وأمام السماء التي تمطر على الجميع.

وحده المذياع الصغير، من نوع "ترانزستور"، الذي اشتراه والده عام ١٩٥٤، هو الذي بدأ يفتح نافذة صغيرة على العالم الخارجي. كان حسين يجلس قربه كل مساء، يستمع إلى صوت العرب من القاهرة، وإلى خطابات جمال عبد الناصر التي كانت تشعل الحماسة في قلوب الصغار قبل الكبار. لم يكن يفهم كل ما يقال، لكنه كان يشعر بشيء يتحرك في أعماقه. شعور غامض بأن هناك عالماً أكبر، وأن شيئاً ما ينتظره هناك، خلف هذه الجبال.

في الليل، حين كان ينام على سطح الدار تحت النجوم المتلألئة في سماء الجولان الصافية، كان حسين يحلم. لم يكن يدري أن طفولته الهانئة تلك كانت تعد العدة لسنوات طوال من المنافي والسجون والثورات. لم يكن يعرف أن الزمن قادم ليأخذه من هذا الحوش إلى

عواصم العرب، ليعود بعد عمر طويل ليقف على أطلال قريته المدمرة ويقول لأبنائه: "هذه بلدنا... لا تنسوها."

الفصل الثاني

جمر تحت الرماد

كان ذلك الصباح مختلفاً.

لم يكن الاختلاف في رائحة الخبز المنبعثة من فرن الطين، ولا في صوت أمه وهي توقظه للصلاة والمدرسة. كان الاختلاف في الهواء نفسه. في الطريقة التي كان بها الرجال يتجمعون عند باب المضافة، يهمسون، ويشيرون بأيديهم، وينظرون نحو الغرب وكأنهم ينتظرون شيئاً قادماً من بعيد.

كان حسين في السابعة عشرة من عمره. لم يعد ذلك الطفل الذي يحمل "الجناد" على كتفه ويسير إلى المدرسة الابتدائية حافياً على تراب الجولان. صار شاباً يافعاً، يدرس في الثانوية، ويقطع كل يوم أربعة عشر كيلومتراً ذهاباً وإياباً. كان الطريق الطويل قد علّمه الصبر، وعلّمته الكتب التي يحملها أن ثمة عالماً أكبر من جُبَيِّن. عالماً يتكلم عن الوحدة العربية، وعن القومية، وعن تحرير فلسطين.

في مثل هذا اليوم من عام ١٩٥٨، قبل شهور قليلة، كانت المذياع تذيع خبراً هزّ العالم العربي: الوحدة بين سوريا ومصر. الجمهورية العربية المتحدة. كان حسين يتذكر تلك الليلة جيداً. كيف خرج الرجال إلى الشوارع يهتفون، وكيف أطلقت النساء الزغاريد من على سطوح المنازل، وكيف ذبح جارهم خروفاً احتفالاً بالحدث. كان اسم جمال عبد الناصر يتردد في كل فم، كأنه طلسم سحري، كأنه المخلص الذي سيعيد للأمة عزتها ويحرر فلسطين من البحر إلى النهر.

"يا حسين... اليوم ما في مدرسة. اليوم مظاهرة".

كان "فيصل"، ابن الجيران ورفيق الصف، هو من ناداه من وراء الجدار. كان فيصل أكبر منه بعام، طويل القامة، جهوري الصوت، يملك تلك الجرأة التي تجعل الشبان يلتفون حوله. كان أحد "زعام المدرسة" كما كانوا يسمون أنفسهم، أولئك الطلاب الذين تحولوا إلى قادة سياسيين صغار بين عشية وضحاها.

"شو في؟ ليش؟"

"عيد الشجرة. وعيد تقسيم فلسطين. وبدنا نطلع مظاهرة. يلاّ"!

لم يكن حسين يعرف الكثير عن عيد الشجرة، ولا عن وعد بلفور الذي صدر قبل أن يولد والده. لكنه كان يعرف شيئاً واحداً: أن هناك ظلماً. أن فلسطين سُلبت. أن اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في حوشهم، والذين تبادلوا معهم الخبز الأبيض بالخبز الأسمر في طفولتهم، لهم حق في أرضهم. كان هذا هو الدرس الأول في مدرسة السياسة: أن ثمة حقاً وثمة باطلاً، وأن الرجولة تقتضي أن تقف في صف الحق.

نزل إلى الشارع. كانت القرية كلها تموج. طلاب المدرسة، وقد خرجوا من صفوفهم دون إذن. فلاحون تركوا محاريثهم. رجال كبار وقفوا على أبواب دكاكينهم يصفقون. وكان الشباب يتقدمون الصفوف، يهتفون بشعارات سمعوها من إذاعة صوت العرب: "الوحدة العربية... طريق التحرير!" و"بالروح بالدم نفديك يا عبد الناصر"!

كانت المظاهرة تسير في الشارع الرئيسي للقرية. رجال الدرك، أولئك الذين كانوا يرتعدون من مجرد مرورهم على ظهور الخيل قبل سنوات، وقفوا جانباً هذه المرة. كان هناك شعور بأن شيئاً ما تغير. أن الوحدة مع مصر جلبت معها رياحاً جديدة. أن عهد الرشوة والفساد قد ولى، وجاء عهد الكرامة والعزة.

في الأمسية، اجتمع الشباب في بيت حسين. كان والده، المختار السابق، قد اعتاد أن تكون داره مقراً لهذه التجمعات. كان يضع "الكوسة" - وهي الفانوس الذي يعمل على الكاز - في وسط الباحة، ويقدم الشاي للجميع، ويجلس بعيداً يستمع إلى أحاديث الشباب وفي عينيه بريق الفخر. كان ابنه أصبح "مناضلاً"، وهذه الكلمة وحدها كانت كافية لأن ينام مرتاح البال.

"يا جماعة... في حزب جديد. اسمه حزب البعث".

كان "فوز"، وهو طالب عائد من دمشق، هو من ألقى بالقنبلة. كان فوز أكبر منهم جميعاً، يدرس في الجامعة، ويعرف أشياء لا يعرفونها. كان يتحدث عن حزب جديد، حزب يقول

بالوحدة والحرية والاشتراكية. حزب أسسه رجل اسمه ميشيل عفلق، مسيحي أرثوذكسي. آمن بأن العرب أمة واحدة.

"شو يعني بعث؟" سأل أحدهم.

"يعني نهضة. قيامة الأمة العربية من قبرها".

كانت الكلمات تلتهب في أذهانهم. نهضة. قيامة. أمة عربية. كان حسين يصغي ولا يتكلم. كان يمتص كل كلمة، يحفظها في قلبه قبل عقله. في الليل، حين خلا إلى فراشه على السطح، نظر إلى النجوم المتلألئة في سماء الجولان وتساءل: أيمكن لشباب صغار، من قرية منسية على حدود فلسطين، أن يغيروا العالم؟

مرت السنوات. وتبدلت الأحوال.

في عام ١٩٦١، كان حسين في العشرين من عمره. كان يدرس في الثانوية، يستعد للبكالوريا. لكن عقله لم يعد في الكتب. صار في الشارع. في المظاهرات. في الاجتماعات السرية التي كانت تعقد في بيوت القرى المجاورة. صار معروفاً في المنطقة كلها. "حسين الشرع... القومي... الناصري... ابن المختار الذي خرج عن طاعة أبيه وصار مناضلاً". هكذا كانوا يتحدثون عنه.

ثم وقع الزلزال.

في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١، استيقظ السوريون على خبر كالصاعقة: الانفصال. انتهت الوحدة مع مصر. انقلب عسكر على عبد الناصر، وأعلنوا فك الارتباط. كان حسين في تلك الليلة عائداً من المدرسة حين سمع الخبر من المذياع. وقف في منتصف الطريق الترابي، بين حقول القمح، يشعر بأن العالم قد انهار.

"كيف؟ ليش؟ مين اللي عملها؟"

لم تكن هناك إجابات. فقط غضب. غضب عارم اجتاح كل من آمن بالوحدة. في الأسابيع التالية، تحولت القرى إلى ساحة حرب باردة بين "الوحدويين" و"الانفصاليين". العائلات انقسمت. الإخوة اختلفوا. وكان حسين في قلب العاصفة.

أول اعتقال كان في عام ١٩٦٢. لم يتجاوز الثانية والعشرين بعد. كان قد نظم مظاهرة ضد الانفصال، فوقف مع رفاقه أمام مبنى البلدية يهتفون بشعارات معادية للحكومة الجديدة. أتت الشرطة العسكرية. قبضت عليهم. أخذوهم إلى القنيطرة، حيث كانت المنطقة تحت حكم الطوارئ، والقاضي العسكري وحده هو من يملك صلاحية المحاكمة.

"إنت اللي منظم المظاهرة؟"

"نعم".

"ليش؟"

"لأنو الانفصال خيانة. الوحدة هي طريق تحرير فلسطين".

كان المحقق ينظر إليه بدهشة. هذا الشاب الريفي، الذي لم يتجاوز عمره سني الدراسة، يتحدث عن الوحدة والتحرير كأنه قائد عسكري مخضرم. لم يكن هناك تعذيب. فقط تحقيقات، وتخويف، وإطلاق سراح بعد أسبوع. كانت تجربة "شهرته"، كما قال فيما بعد. صار معروفاً أن في جُبَيِّن شاباً اسمه حسين الشرع لا يخاف.

في تلك الأثناء، كان الرفاق يتوافدون على بيت والده كل مساء. من كل القرى المجاورة: من خسفين، من حيتل، من فيق، من كفر حارب. كانوا يأتون مشياً على أقدامهم، يجلسون على الحصير في الباحة، يضيئون الكوسة، ويخططون للثورة القادمة.

"بدنا نعمل تنظيم سري. عسكري".

كانت الفكرة قد نضجت. لم تعد المظاهرات تكفي. كانوا بحاجة إلى شيء أكبر. إلى عمل عسكري يغير المعادلة. كان هناك ضباط في الجيش، ضباط صغار، لهم ميول ناصرية، شعروا بالخطر من حكم البعث الذي أتى بعد الانفصال. كانوا يتصلون بهم سراً، عبر وسطاء. وكان الاجتماع الأول في بيت حسين.

جاء الضابط "علي أصلان" - وكان لا يزال رائداً في ذلك الوقت - متنكراً بملابس مدنية. جلس معهم. تحدث عن استعداد بعض الوحدات العسكرية للتحرك. كان الحديث عن انقلاب. عن إسقاط حكم البعث الذي جاء بانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣. عن إعادة الوحدة مع مصر.

كانت الشقة تحت الأرض في معسكر قطنا هي السجن التالي. حين انكشف التنظيم. حين وشى بهم أحد الجواسيس الذين كانوا يحضرون الاجتماعات وينقلون الأخبار. فجأة، وفي ليلة واحدة، انهار كل شيء.

"حسين الشرع... قم معنا".

اقتادوه إلى زنزانة تحت الأرض. كان المكان مظلماً، رطباً، تفوح منه رائحة العفن. لم يكن هناك فراش، ولا ضوء، ولا هواء نقي. كانوا يتركونه أياماً دون استجواب. فقط ظلام. وصمت. وخطوات حراس في الممر البعيد.

ثم جاء المحقق. كان مختلفاً عن محقق القنيطرة. هذا كان شرساً. عنيفاً. في عينيه بريق المنتقم. وضع الملف على الطاولة، ونظر إلى حسين طويلاً.

"إنت زعيم العصابة".

"أنا مش زعيم. أنا طالب".

"إنت كنت بدك تعمل انقلاب".

"ما كان في انقلاب. كان في... أفكار".

"بدنا نوديك على المزة. على المحكمة العسكرية. بتعرف شو يعني محكمة عسكرية؟ يعني حبل المشنقة".

كان حسين في الثانية والعشرين من عمره. وكان الموت وجهاً لوجه أمامه. لم يبك. لم يترجّ. لكنه كان خائفاً. كان الخوف يملأ صدره كما يملأ الظلام الزنزانة. كان يفكر في أمه. في أبيه. في أشجار الزيتون التي لن يراها. في الهواء الطلق الذي قد لا يتنفسه مرة أخرى.

وهنا، في قلب الظلام، ولدت فكرة الهروب.

كان الحارس شاباً من المنطقة الشرقية، من البادية. رآه حسين ذات مرة يتحدث إلى رئيس الاستخبارات فأدرك أنه جندي بسيط، ربما لديه حكاية مختلفة. في الليل، حين خفت الحركة، ناداه بصوت خافت. تحدث معه. أقنعه. لم يكن هناك ما يخسرانه. كان الهروب مشتركاً.

في ليلة شتوية باردة، تسلل حسين من زنزانته. كان الحارس قد ترك الباب مواربا. نزل إلى الوادي المظلم، حيث لا ضوء إلا من النجوم. كان قلبه يخفق بشدة. كان يعرف أنه إذا أمسكوا به، فلن تكون هناك محاكمة. سيكون الإعدام فوراً. سار في الظلام، تلمس طريقه بين الأشجار والصخور. عبر نهر الشريعة في ذلك الشتاء القارس، حيث كانت المياه تصل إلى صدره، وحيث كان التيار يكاد يجرفه لولا أنه تشبث بغصن شجرة على الضفة الأخرى.

على الضفة الأخرى... كان الأردن.

في عمان، وقف حسين أمام رئيس الاستخبارات الأردني. كان مكتباً فخماً. خرائط على الجدران. ضباط ببدلات عسكرية أنيقة. وكان هو، الشاب القادم من الجولان، لابساً بدلة "الفتوة" التي اعتقل بها، يقف كالمتشرد أمام هذا الصرح. سأله الباشا أن يحدد له مواقع الجيش السوري على الخريطة. أن يكون جاسوساً.

ثارت في نفسه كل كبرياء النشأة الأولى. رفع رأسه. نظر إلى الباشا في عينيه. قالها بكل ما فيه من حمية: "أنا مختلف مع النظام السوري. بس بدك توصل هالمعلومات لإسرائيل. أنا مش جاسوس".

كلفه هذا الموقف ثلاثة أشهر ونصف في السجون الأردنية. لكنه خرج منه محتفظاً بشيء لا يقدر بثمن: الكرامة.

ثم جاء العراق.

في بغداد، وجد حسين عالماً آخر. كان لاجئاً سياسياً، يتلقى راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون ديناراً من الحكومة العراقية. كان يعيش في فندق صغير، يدرس البكالوريا من جديد، ويقاتل من أجل البقاء. كان وحيداً. كان غريباً. لكنه كان حراً.

في تلك السنوات البغدادية، انفتحت أمامه أبواب المعرفة. قرأ كل ما وقعت عليه يداه. في الاقتصاد. في السياسة. في التاريخ. كان يلتهم الكتب كما يلتهم الجائع الخبز. وصار ذلك الشاب الريفي، الذي كان يمشي حافياً إلى المدرسة، واحداً من ألمع الطلاب في جامعة بغداد.

تخرج. عمل في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. تدرب على السلاح. عاش حياة المقاومة والمنافي. لكن الحنين إلى سوريا كان يأكل قلبه. كان يريد العودة. حتى لو كانت العودة إلى السجن. حتى لو كانت العودة إلى الموت.

وهكذا، في يوم من الأيام، اشترى تذكرة حافلة من بغداد إلى دمشق. كان يعرف أنه مطلوب. كان يعرف أن الأمن السياسي ينتظره. لكنه كان يعرف أيضاً أن عليه أن يواجه قدره. أن الجمر الذي تحت الرماد لم ينطفئ بعد.

كانت هذه هي النهاية... التي كانت بداية كل شيء آخر.

الفصل الثالث

غرباء في بغداد

كانت بغداد في صيف ١٩٦٦ تختلف عن كل ما عرفه حسين من قبل. لم تكن كالجولان، حيث الجبال تحتضن السماء وحيث الهواء يحمل رائحة الزيتون والصنوبر. لم تكن كدمشق، حيث التاريخ يسكن في كل حجر وحيث المآذن تتنافس مع القباب على اختراق الأفق. كانت بغداد شيئاً آخر. مدينة عريقة تنهض من رماد الانقلابات، تتنفس الحر والغبار، وتحتضن في صدرها كل غرباء العرب.

وصلها حسين بعد خمسة أيام من مغادرته عمّان. لم تكن الرحلة مباشرة، بل متقطعة، عبر حافلات متهالكة وطرق صحراوية لا نهاية لها. كان معه في الحافلة وجوه من كل مكان: فلاحون من حوران، تجار من حلب، طلاب من بيروت. كلهم يحملون حقائبهم وأحلامهم. كلهم يتجهون نحو بغداد، نحو المجهول.

في مركز الأمن العام بالكرخ، كان الاستقبال بارداً. مبنى ضخم، ممرات لا نهائية، رجال ببدلات عسكرية يسيرون بخطوات سريعة. كان حسين قد اعتاد على هذا المشهد. كانت السجون ومراكز الأمن قد صارت جزءاً من سيرته الذاتية، فصولاً متكررة في كتاب حياته. لكن هذه المرة كان الوضع مختلفاً. هذه المرة كان لاجئاً. ليس متهماً. ليس مطلوباً. فقط... غريب.

"سوري؟"

"نعم".

"ناصري؟"

"نعم".

"تفضل... الحديقة".

لم تكن الحديقة حديقة بالمعنى المعروف. كانت فناءً خلفياً واسعاً، محاطاً بأسلاك شائكة، تنتشر فيه أجساد نائمة على الأرض. كان هناك عشرات، ربما مئات. لاجئون

سـوريون، بعضـهم مـن حمـاة وحمـص، وبعضـهم مـن المنـاطق الشرـقية، وبعضـهم فلسطينيون. كانوا هنا منذ شهور. ينتظرون. لا يعرفون ماذا ينتظرون.

كان الحر شديداً. شمس آب اللاهبة تنهمر على رؤوسهم بلا رحمة. لا شجر، لا ظل، لا ماء إلا ما يأتي به الحراس في دلاء مرتين في اليوم. كانوا ينامون على الأرض، تحت السماء المفتوحة، لا فراش ولا أغطية. وكانوا يحلمون. يحلمون بورقة. ختم. موافقة. كلمة "لاجئ سياسي" التي ستفتح لهم أبواب الحياة.

جلس حسين في زاوية من الفناء. كان يعرف هذا الشعور. شعور الانتظار. كان قد انتظر في زنزانة القنيطرة. انتظر في زنزانة تحت الأرض في قطنا. انتظر في سجن عمّان. وكان الانتظار دائماً هو نفسه. ثقيل. بطيء. كأن الزمن يتوقف عن الحركة.

"إنت جديد؟"

كان المتحدث شاباً في مثل عمره، بعينين غائرتين ولحية لم تحلق منذ أسابيع. كان من حماة. اسمه عبد القادر. كان قد أمضى أربعة أشهر في هذا الفناء.

"جديد. من الجولان".

"الجولان! بعيد. شو عاملك لهون؟"

"نفس اللي عاملك. السياسة".

ابتسم عبد القادر. ابتسامة مريرة. "السياسة... كلنا ضحايا السياسة. أنا كنت مظاهرة بحماة. ضد الانفصال. قبضوا علي. هربت. جيت لهون. وهلا... هلا قاعدة النا أربع شهور ناطر. ناطر ورقة ما بتجي".

سأله حسين: "وين بتناموا؟"

"هـون." أشار إلى الأرض. "بالليل ننام عالأرض. بالنهار نستنى. وأحياناً يجي واحد من مكتب الشؤون العربية يعطينا مصاري. ٣٠٠ فلس باليوم. يعني... قوت يوم بيوم".

300فلس. كان هذا هو ثمن الكرامة. ثمن المبادئ. ثمن المنافي. كان حسين ينظر إلى هؤلاء الرجال، إلى هذه الوجوه المنهكة، وتساءل: هل هذا هو مصيرنا؟ هل هذه هي نهاية الطريق الذي بدأناه بالمظاهرات والشعارات؟

بعد أسبوعين، جاء الفرج.

لم يأت الفرج على هيئة ضابط كبير، ولا على هيئة قرار وزاري. جاء على هيئة رجل صغير، ممتلئ الجسد، بوجه بشوش وشاربين كثيفين. كان اسمه فوزي المشهداني. مفوض في وزارة الداخلية العراقية. مسؤول عن ملفات اللاجئين.

"حسين الشرع"!

وقف حسين. تقدم نحوه. نظر إليه فوزي. نظر إلى ملامحه، إلى عينيه، إلى كتفيه المرفوعتين رغم الإرهاق.

"إنت اللي دارس اقتصاد؟"

"نعم".

"تعال معي".

قاده إلى الخارج. كان هناك سيارة. سيارة حقيقية! لم يركب حسين سيارة منذ شهور. كانت لحظة صغيرة، لكنها كانت تعني الكثير. كانت تعني أن ثمة تغييراً ما.

أخذوه إلى فندق صغير في حي تلكيف. كان الفندق تديره عائلة مسيحية من تلكيف، من الموصل. كان صاحبه، جوزيف، رجلاً طيباً، هو وأخوه يوسف. استقبلوا حسين كأنه ضيف لا لاجئ. أعطوه غرفة على السطح. غرفة صغيرة، بسرير حديدي ومروحة سقف. لكنها كانت جنة مقارنة بالفناء الذي خرج منه.

"بابا... هاد الأستاذ من سوريا. دير بالك عليه." قال فوزي لجوزيف.

"تكرم".

وهكذا، بدأت حياة حسين في العراق. كان له راتب شهري: ٢٥ ديناراً. كان قليلاً، لكنه كان كافياً. كان له غرفة. كان له أصدقاء جدد. وكان له هدف: البكالوريا.

كانت الثانوية في العراق تسمى "الإعدادية". وكانت هناك إعدادية مركزية في بغداد، يقصدها الطلاب من كل مكان. ذهب حسين إلى هناك. قدم أوراقه. قوبل بالرفض. لم يكن لديه وثائق رسمية من سوريا. لم يكن معه شهادة الصف الحادي عشر. كان مجرد لاجئ بلا أوراق.

"ما بقدر أسجلك من غير وثائق." قال له المدير.

"أنا ما معي وثائق. بس معي علم. امتحنوني".

نظر إليه المدير. كان رجلاً عجوزاً، بعينين صارمتين خلف نظارتين سميكتين. قال: "إنت وين كنت تدرس؟"

"بسوريا. بالجولان".

"الجولان! بعيد. طيب... خلينا نشوف شو بتعرف".

أعطوه امتحان قبول. في الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، واللغة العربية. جلس حسين في غرفة فارغة، وقلمه في يده، وبدأ يكتب. كان يكتب وقلبه يخفق. لم يكن قد درس هذه المواد منذ سنوات. سنوات المظاهرات والسجون والمنافي. لكنه كان يقرأ. كان يقرأ كثيراً. وها هو الآن، في هذه الغرفة الصغيرة في بغداد، يثبت أن المنافي لم تمح العلم من عقله.

بعد أسبوع، جاءت النتيجة. كان قد نجح. قبلوه في الصف النهائي. البكالوريا.

كانت تلك السنة من أصعب سنوات حياته. كان يدرس ليلاً ونهاراً. كان يمشي إلى المدرسة كل صباح، ويعود بعد الظهر، وينكب على الكتب حتى منتصف الليل. كان وحيداً. لم يكن معه أحد. لا أم، لا أب، لا أخ. فقط الكتب. فقط الحلم.

وفي نهاية السنة، وقف حسين في مكتب البريد المواجه للإعدادية. كان معه برقية صغيرة. كتب عليها بخط يده: "لقد نجحت". أرسلها إلى أبيه. إلى جُبَيِّن. إلى ذاك الحوش الكبير حيث كانت أمه تنظر إلى الطريق كل يوم، تنتظر. كانت تلك البرقية هي أول خبر يصلهم

عنه منذ ثلاث سنوات. وكانت كافية لأن يذبحوا خروفاً في القرية، ولأن يطلقوا الزغاريد من كل دار: "ابن المختار... أخذ البكالوريا في الغربة"!

لكن الطريق لم تكن سهلة بعد.

بعد البكالوريا، كان عليه أن يختار: هندسة أم اقتصاد؟ كان يحب الهندسة. لكن صديقه الدكتور ياسين خليفة، الذي صار فيما بعد رئيساً لجامعة حلب، نصحه: "الهندسة خمس سنوات. والدراسة بالإنجليزية. والعراق مو دايم. روح اقتصاد. أربع سنوات. وبتتخرج أسرع".

نزل حسين عند النصيحة. سجل في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة بغداد. كان قسم الاقتصاد يضم طلاباً من كل الجنسيات: عراقيون، سوريون، فلسطينيون، مصريون. كان الجو مشحوناً بالأفكار. نقاشات حادة في الكافتيريا. مجلات حزبية توزع تحت الطاولات. أساتذة كبار يحاضرون عن الاقتصاد السياسي والتنمية.

درس حسين بجد. كان الأول على دفعته أحياناً. كان الأساتذة يشيرون إليه: "هذا السوري... له مستقبل." وكان يبتسم. كان يعرف أن مستقبله مرهون برياح السياسة. رياح لا تهدأ أبداً.

في السنة الثالثة، حلت الكارثة.

استلم البعثيون السلطة في العراق. صدام حسين وأعوانه. وفي أحد الأيام، اجتاحت الجامعة أخبار سيئة: قرار من مجلس قيادة الثورة بطرد جميع الطلاب السوريين "الناصريين" من العراق. كانوا يعتبرونهم طابوراً خامساً. أعداء للثورة. أتباع عبد الناصر الذي مات قبل عامين لكن شبحه لا يزال يطاردهم.

"مفصولين... كلنا مفصولين".

وقف حسين في باحة الكلية. كان الطلاب يتجمعون. وجوه مصدومة. دموع. غضب. كان قد تبقى له سنة واحدة على التخرج. سنة واحدة! والآن، يريدون طرده. طرده من البلد الذي آواه. من الجامعة التي علمته. من الحلم الذي بناه لبنة لبنة.

"بدي أروح لعند رئيس الجامعة." قال حسين.

"رئيس الجامعة منهم"!

"ما بهمني. بدي أروح".

وذهب. ذهب إلى مبنى رئاسة الجامعة. تسلق السلالم بسرعة. دخل إلى مكتب السكرتيرة. امرأة في الأربعين، بنظارات ذهبية، تنظر إليه بفوقية.

"بدي قابل الدكتور عبد العزيز الدوري".

"مين حضرتك؟"

"حسين الشرع. طالب سنة ثالثة اقتصاد".

"ما في مواعيد".

"ما بهمني. أنا ما بروح من هون إلا لما أقابله".

كان الموقف متوتراً. السكرتيرة تصر. وحسين يصر. حتى سمع الدكتور حازم، وكيل رئيس الجامعة، الصوت العالي. خرج من مكتبه. رأى حسين. سأله: "شو القصة؟"

شرح له حسين. شرح له قصة الطلاب السوريين. عن قرار الطرد. عن السنة المتبقية. عن أحلام تتحطم. استمع إليه الدكتور حازم باهتمام. كان رجلاً من الموصل، طيباً، مثقفاً. قال له: "تعال بكرة. عندي اجتماع لمجلس التعليم العالي. ورح أحكي في موضوعكم".

وفي اليوم التالي، انتظر حسين. انتظر ساعات. كان يجلس في مقهى قرب الجامعة، يشرب الشاي، ينظر إلى الساعة كل دقيقة. وفي المساء، جاءته الأخبار: "الوزير وافق! قرروا يستثنوا السوريين. تكملوا دراستكم"!

لم يصدق. ركض إلى الجامعة. كان الطلاب السوريون مجتمعين. قال لهم: "قبلونا! منكمل!" وتعانقوا. وبكى بعضهم. وكانت تلك الليلة من أسعد ليالي بغداد.

تخرج حسين من جامعة بغداد عام ١٩٧١. كان في السابعة والعشرين من عمره. مع شهادة في الاقتصاد. ومع خبرة في الحياة لم تمنحها له الكتب. كان قد عاش طفولة في الجولان. مراهقة في دمشق. شباباً في السجون. رجولة في المنافي. وكان آن أوان العودة.

لكن إلى أين؟ إلى سوريا؟ حيث اسمه لا يزال على القوائم؟ حيث الملف الأمني لم يغلق بعد؟ أم إلى مكان آخر؟

جاءه العرض من السعودية. كان عليه أن يجمع المال. أن يبني حياة. أن ينسى السياسة قليلاً. قبل. وسافر إلى الرياض. وعمل هناك مستشاراً في وزارة البترول. واكتسب خبرة في النفط والاقتصاد. واكتشف، في تلك السنوات، أن العالم مختلف. أن هناك إمكانيات. أن في وسع الإنسان أن ينجح دون أن يبيع مبادئه.

بقي في السعودية عشر سنوات.

وعندما عاد إلى سوريا أخيراً، لم يعد كالذي غادر. عاد ومعه مال. ومعه خبرة. ومعه تصميم جديد: أن يعيش. أن يتزوج. أن ينجب. أن يربي أبناءه على حب الوطن دون أن يورطهم في متاهاته.

لكن الوطن، كما قال أحد الفلاسفة، ليس مجرد أرض. الوطن قدر. وقدر حسين أن يعود... ليكتشف أن الرحلة الحقيقية لم تبدأ بعد.

الفصل الرابع

الهاوية

لم تكن العودة إلى سوريا عودة بالمعنى الذي يفهمه الناس. لم يكن هناك استقبال في المطار، ولا زغاريد أم، ولا عناق أب. كانت العودة تسللاً في قلب الليل، على متن حافلة تهتز على طريق حدودي وعر، تحمل مسافرين صامتين ووجوهاً تعلوها مسحة من الخوف والترقب. كان حسين يجلس في المقعد الخلفي، يضغط جبهته على زجاج النافذة البارد، ويتأمل النجوم نفسها التي كان يتأملها في طفولته على سطح دارهم في جُبَيِّن. لكن النجوم الآن لم تعد نجوماً. صارت شهوداً. شهوداً على رجل عائد من منفاه إلى حيث لا يدري إن كان سيُستقبل كابن بار أم كعدو لدود.

في جيبه، كان هناك جواز سفر مزوراً. وفي حقيبته الصغيرة، كانت هناك كتب. فقط كتب. كان قد ترك كل شيء في بغداد: الراتب، الأصدقاء، الحبيبة التي وعدته بالانتظار. لم يأخذ معه إلا الكتب، وإلا أملاً غامضاً بأن الجمر الذي حمله طيلة هذه السنوات قد يجد تربةً خصبة في الوطن.

عند نقطة التفتيش الحدودية، كان قلبه يخفق بعنف. كان يعرف أن اسمه موجود على قوائم المطلوبين. كان يعرف أن صورته، تلك التي التقطت له في القنيطرة قبل سنوات، معلقة في كل مخافر الأمن السياسي. لكن الجواز كان يتحدث عنه كشخص آخر. رجل أعمال صغير من حلب. لا علاقة له بالسياسة. لا علاقة له بحسين الشرع.

"تفضل... اتفضل".

ختم الجواز. دخل. كان التراب السوري تحت قدميه. وقف على جانب الطريق، خارج مبنى الجوازات، وأخذ نفساً عميقاً. كانت رائحة التراب هي نفسها. رائحة الزيتون والصنوبر والغبار. رائحة الوطن.

كان درعا هو المكان الذي اختاره للاختباء. درعا التي تبعد عن قريته مسافة يستطيع أن يقطعها مشياً لو أراد، لكنه لا يستطيع. كان هناك، في بيت عمه المسن، حيث لا أحد يسأل عن الغرباء، وحيث الجدران الحجرية السميكة تخفي الأسرار جيداً. كان يعرف أن عليه أن يتحرك سريعاً. أن يجد طريقة لتسوية وضعه. أن يخرج من هذه المتاهة التي دخلها برجليه.

في تلك الأيام، وصلته رسالة من صديق قديم. كان الصديق، واسمه "حازم النعيمي"، قد تحول من البعث إلى الشيوعية، وكان له اتصالات مع الفدائيين الفلسطينيين في بغداد. قال له حازم في رسالته: "في ثلاثة من القيادة القطرية لحزب البعث العراقي، صدام حسين بدو يعدمهم. بدنا نطلعهم من العراق. إذا ساعدتهم، ممكن يساعدوك".

كانت الصفقة واضحة: أرواح ثلاثة من كبار البعثيين العراقيين، مقابل تسوية وضعه في سوريا. لم يكن حسين بعثياً. كان ناصرياً حتى النخاع. لكنه كان يعرف أن السياسة لا تعترف بالأيديولوجيات في لحظات الخطر. وافق.

سافر متخفياً إلى بغداد مرة أخرى. هذه المرة ليس كلاجئ، بل كمنقذ. استطاع، عبر اتصالاته مع مكاتب الفدائيين، أن يستخرج هويات وجوازات فلسطينية مزورة للثلاثة. رتب لهم طريق الهروب: من بغداد إلى دمشق، حيث سيكونون في أمان تحت حماية النظام السوري الموالي لهم.

وهكذا، عاد إلى دمشق حاملاً معه وعداً. وعداً من قياديين كبار في حزب البعث بأنهم سيتوسطون له. بأنهم سيرفعون اسمه من القوائم. بأنه سيصبح حراً.

لكنه، في السياسة، ليس هناك وعد يبقى.

في أول ليلة له في دمشق، ذهب مع صديقه حازم إلى المقهى حيث كان يفترض أن يلتقي بالقياديين الثلاثة. كان المقهى في شارع الحمرا، مقابل سينما السفراء، مكاناً تعقده الستائر الداكنة ورائحة الدخان والقهوة المرة. جلسا. انتظرا. وجاء واحد منهم.

كان رجلاً في الخمسين، ببدلة أنيقة وربطة عنق، يتصبب عرقاً رغم برد المساء. جلس إلى طاولتهم. نظر إلى حسين ببرود. قال: "شكراً على اللي عملته." ثم نهض. وقبل أن يغادر، أضاف: "بس ما بنقدر نتدخل. وضعكم صعب. سامحنا".

اختفى في الليل. وجلس حسين هناك، على ذلك الكرسي الخشبي، يشعر بأن العالم ينهار من حوله للمرة الثانية. كان قد خاطر بحياته. كان قد قطع الصحارى والحدود. كان قد خان مبادئه بإنقاذ بعثيين. وكل هذا... لأجل لا شيء.

"هذول أوغاد." قال حازم.

"أنا ما عندي غير حل واحد." قال حسين بصوت ميت. "أسلم حالي".

كان مركز الأمن السياسي في درعا بناءً رمادياً قاتماً. ليس سجناً بالمعنى التقني، بل مكاناً يختفي فيه الناس. كان حسين يقف على بابه في صباح اليوم التالي، يرتجف من البرد، لكنه كان هادئاً. كان قد اتخذ قراره. سيواجه قدره. سيسلم نفسه. وليكن ما يكون.

"اسمي حسين الشرع. أنا مطلوب".

كانت ردة فعل الضابط المناوب مزيجاً من الدهشة والارتياب. هذا الرجل، الذي كان اسمه يتردد على ألسنة المخبرين لسنوات، يقف الآن على الباب كأنه جاء لتقديم شكوى. أخذوه إلى الداخل. فتشوه. جردوه من حزامه، من ساعته، من الكتب التي كانت في جيبه. ثم أنزلوه إلى الزنزانة.

كانت زنزانة تحت الأرض. مكان رطب تملؤه رائحة العفن والبول. لا نوافذ. فقط فتحة صغيرة في السقف تدخل منها خيوط ضوء شاحبة. كان هناك سجناء آخرون. وجوه شاحبة، عيون غائرة، أجساد هزيلة. استقبلوه بصمت. كانوا يعرفون أن كل جديد يأتي حاملاً معه قصته الخاصة.

الأيام الأولى كانت هي الأصعب. ليس بسبب الضرب، فلم يكن هناك ضرب بعد. بل بسبب الانتظار. انتظار المجهول. انتظار من سيأتي. انتظار الحكم. كان حسين يجلس في زاويته،

يقرأ في كتبه التي سمحوا له بالاحتفاظ بها، ويحاول أن يملأ الفراغ بالتفكير. كان يفكر في أمه، التي لم يرها منذ ثلاث سنوات. في أبيه، الذي كان دائماً فخوراً به، حتى حين كان خروجه عن الطاعة هو ما يجعله فخوراً. في الجولان، الذي كان أبعد ما يكون عن باله الآن، لكنه كان دائماً هناك، في قاع قلبه، كحنين لا يهدأ.

بعد أسبوعين، جاء الدور.

"حسين الشرع... طلوع".

فتح باب الزنزانة. قادوه عبر ممرات ضيقة، صعوداً إلى طابق التحقيق. كان المكتب صغيراً، فيه طاولة خشبية، وكرسيان، وصورة للرئيس على الجدار. وخلف الطاولة، كان هناك رجل. لم يكن المحقق الذي توقعه حسين. لم يكن شرساً، ولا عنيفاً، ولا حاملاً هراوة. كان رجلاً هادئاً، في الأربعين، بوجه متعب وعينين حزينتين. كان اسمه "الرائد فلاح"، من دير الزور، من عائلة تعرفها حسين بالسمعة الطيبة.

"اجلس".

جلس حسين.

فتح الرائد ملفاً سميكاً. كان ملف حسين. سنوات من المراقبة والتقارير والمعلومات. قرأ بصمت. قلب الأوراق. ثم رفع رأسه ونظر إليه.

"شوف... أنا قارئ ملفك. أنت مش مجرم. أنت مختلف. أنت دارس اقتصاد. أنت مثقف".

صمت قليلاً، ثم أضاف: "أنا كمان مثقف. أنا بقرأ. أنا بفهم. تعرف شو الفرق بيني وبينك؟ أنا بعثي، وإنت ناصري. أنا بعبد المبادئ، وإنتو بتعبدوا الأشخاص".

كانت هذه هي الشرارة. رفع حسين رأسه. نظر في عيني المحقق. قال بصوت هادئ لكنه ثابت: "أنا ما بعبد الأشخاص. أنا بعبد المبادئ كمان. بس المبادئ اللي أنا فيها هي الوحدة والحرية والعدالة. وإنتو... إنتو اللي حولتوا المبادئ لكراسي".

نظر الرائد إليه طويلاً. كان هناك صمت ثقيل. ثم، وبطريقة غير متوقعة، ابتسم.

"عجبني كلامك. تعال... تعال عندي كل يوم. بدي أحكي معك".

وهكذا، تحول الاستجواب إلى حوار. كل مساء، كان الحارس يأتي إلى الزنزانة، يأخذ حسين إلى مكتب الرائد. كانا يتحدثان لساعات. عن السياسة والاقتصاد والتاريخ. عن الوحدة والانفصال. عن عبد الناصر وحافظ الأسد. كان الرائد يكتشف أن هذا السجين النحيل، القادم من قرية حدودية، يعرف أكثر مما يعرف الكثير من ضباطه. وكان حسين يكتشف أن في داخل هذا المحقق روحاً تبحث عن إجابات.

"أنت ليش رجعت؟" سأله الرائد ذات ليلة. "كنت تقدر تعيش في العراق. في الأردن. في أي مكان. ليش رجعت لمواجهة هالمصير؟"

"لأني بحب هالبلد." قال حسين. "ولأني ما قدرت أعيش بعيد عنها. ولأني... ولأني بدي أدفع تمن اللي عملته. أنا مش جبان. أنا ما بهربش".

لم يرد الرائد. لكن في عينيه، كان هناك شيء يشبه الاحترام.

بعد شهر من تلك الجلسات الليلية، صدر القرار.

"حسين الشرع... إخلاء سبيل".

لم يصدق أذنيه. كان يتوقع الحكم، الإعدام ربما، السجن الطويل بالتأكيد. لكن أن يخرج؟ أن يخرج حراً؟ كان هذا أبعد من الخيال.

خرج إلى شارع درعا في صباح مشمس. كان الهواء نقياً. كانت السماء زرقاء. كان حراً. مؤقتاً على الأقل.

في يده، كان يحمل ورقة. ورقة تخوله أن يتقدم لوظيفة في الدولة. كان الرائد قد سجل توصية: "رغم سوابقه السياسية، إلا أنه صاحب كفاءة علمية ونزاهة خلقية. يوصى بتوظيفه".

تقدم إلى كل الوزارات. إلى كل الدوائر. وفي كل مرة، كان الجواب يأتي: "ملفك الأمني مرفوض." حتى جاء اليوم الذي قرر فيه أن يطرق باباً لم يطرقه أحد من قبل: وزارة النفط.

كان بحاجة إلى عمل. كان بحاجة إلى حياة. كان بحاجة إلى أن يثبت أن المنفى والسجن لم يذهبا سدى. وهناك، في دهاليز البيروقراطية السورية، بدأت حكاية جديدة. حكاية الرجل الذي سيكتشف، بعد سنوات، أين تذهب ثروة البلاد. حكاية الرجل الذي سيواجه الفساد وجهاً لوجه.

لكن هذه... كانت فصلاً آخر.

الفصل الخامس

مواجهة الوحش

لم تكن دمشق في مطلع السبعينيات تشبه دمشق التي غادرها حسين قبل عقد من الزمان. كانت المدينة تتنفس هواءً مختلفاً. هواء مشحوناً بالخوف والطموح معاً. الخوف من القادم، والطموح إلى ما تعد به "الحركة التصحيحية" التي قادها حافظ الأسد في السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٠. كان البلد كله يمر بمخاض. النظام الجديد يبني أركانه. المؤسسات تتبدل. الوجوه تتغير. والأمل، ذلك الطائر الجريح، يحاول أن يحلق من جديد فوق ركام الانقلابات.

عاد حسين إلى دمشق محمّلاً بتجربة السنوات العشر. في جيبه شهادة من جامعة بغداد. في سيرته الذاتية خبرة عشر سنوات في وزارة البترول السعودية. في قلبه حنين إلى الجولان وإلى أمه التي شاخت وإلى أبيه الذي توفي قبل عامين ولم يستطع حضور جنازته. وفي ملفه الأمني... ماضٍ من المظاهرات والاعتقالات والهروب.

كان يعرف أن عليه أن يبدأ من الصفر. أن يقدم أوراقه للدولة. أن يطلب وظيفة. أن يحاول أن يكون مواطناً عادياً. لكنه كان يعرف أيضاً أن الدولة لا تنسى. أن الأمن السياسي له ذاكرة فيل. وأن ملفه، ذلك الملف الذي فتح قبل عشر سنوات، لا يزال مفتوحاً.

تقدم إلى وزارة النفط أولاً. كان هذا هو مجاله. النفط. كان يعرف أسواقه، ومعادلاته، وأسراره. كان قد درس في بغداد كيف يدير الاقتصاد النفطي، وعمل في الرياض ليعرف كيف تسعر الخام، وكيف تدار العقود، وكيف تتدفق الأموال من باطن الأرض إلى خزائن الدول. كان يعرف أنه الأفضل في هذا المجال.

"ملفك الأمني مرفوض".

كانت هذه هي الجملة التي سمعها في كل مكان. في وزارة النفط. في وزارة الاقتصاد. في معمل الدبس. في شركة الغزل والنسيج. في كل مكان. كان يخرج من كل مقابلة بوجه هادئ وقلب

مثقل. كان يعرف أن هناك من يطارده. أن هناك من لا يريد له أن يعيش. أن هناك وحشاً خفياً يمنعه من أن يكون طبيعياً.

حتى جاءت لحظة اليأس. جلس في المقهى الذي اعتاد أن يجلس فيه، مقهى الحجاز في شارع الحمرا، يشرب الشاي وحده، ينظر إلى الناس وهم يمرون. كانوا يضحكون. يتحدثون. يعيشون. أما هو، فكان يقف على حافة الحياة كأنه شبح. لا هو حي تماماً، ولا هو ميت. مجرد ظل ينتظر أن تفتح له الأبواب.

في تلك اللحظة، قرر أن يفعل شيئاً لم يفعله أحد من قبل. قرر أن يذهب إلى رأس الهرم. إلى الحاكم نفسه. إلى حافظ الأسد.

كان القرار جنونياً. رجل مثله، بملف أمني أسود، يطلب مقابلة رئيس الجمهورية! لكن حسين لم يعد ذلك الشاب الذي يتهور بالمظاهرات. صار رجلاً يحسب خطواته. كان يعرف أن عليه أن يصل إلى القصر بطريقة ما. أي طريقة.

جاءته الفرصة من حيث لم يتوقع. كان الضابط "مصطفى رام حمدان"، الذي كان رئيساً للمكتب الثاني سابقاً، يتردد على مكتب كان حسين يعمل فيه مؤقتاً. كان رجلاً كبيراً في السن، هادئاً، مختلفاً عن ضباط المخابرات الذين عرفهم. كان يأتي ويسأل عن الاقتصاد والنفط والأسعار. وكان حسين يجيب. وحوارات طويلة صامتة بين رجل أمن كبير واقتصادي شاب، تحولت إلى علاقة من نوع ما.

"أنا بدي أقابل الرئيس." قال حسين ذات يوم.

"إنت؟ شو بدك فيه؟"

"بدي أسأله سؤال واحد: أنا مواطن سوري. دارس. متخصص. بدي أخدم بلدي. ليش ممنوع؟"

نظر إليه مصطفى رام طويلاً. كان يعرف حكاية حسين. كان يعرف أنه كان ناصرياً. كان يعرف أنه هرب. كان يعرف كل شيء. لكنه كان يعرف أيضاً أن هذا الشاب مختلف. أن فيه شيئاً لا يوجد في الكثيرين: الصدق.

"رح أحاول. بس ما بوعدك".

ومرت الأيام. أسابيع. شهور. كان حسين يعمل مدرساً للغة الإنجليزية في درعا ليعيل نفسه. كان يذهب كل صباح إلى المدرسة، ويعلم الطلاب قواعد اللغة، ويعود بعد الظهر إلى غرفته الصغيرة، يقرأ، ينتظر. كان الانتظار قد صار جزءاً من تكوينه. كأن حياته كلها كانت سلسلة من الانتظارات الطويلة.

ثم، وفي يوم لم يكن مختلفاً عن غيره، جاءه الخبر. ليس عن طريق مصطفى رام، بل عن طريق الحركة التصحيحية نفسها. كان النظام الجديد يبحث عن كفاءات. عن أناس يعرفون النفط. عن أناس يمكنهم أن يبنوا اقتصاد البلد. وكان اسم حسين قد وصل إلى مكان ما. إلى شخص ما. ربما من خلال تلك الدراسات التي كان يكتبها ويوزعها على كل من يعرف. ربما من خلال سمعة الرجل الذي يعرف كل شيء عن النفط ولا يعرف شيئاً عن الخوف.

"حسين الشرع... وزارة النفط بدها إياك".

كانت هذه هي اللحظة. اللحظة التي انقلب فيها كل شيء. ذهب إلى الوزارة. استقبلوه هذه المرة. لم يقولوا له "ملفك الأمني مرفوض". قالوا له: "تفضل. في مكتب تخطيط".

كان مكتب التخطيط غرفة صغيرة بلا كرسي ولا طاولة. وقف حسين في وسطه لأول يوم. لا أثاث. لا موظفين. لا شيء. كان عليه أن يبني كل شيء من الصفر. وكان هذا بالضبط ما يريد. أن يبني. أن يثبت. أن يواجه الوحش... وينتصر.

جلس على الأرض. أخرج أوراقه. وبدأ يخطط.

كان يعرف أن هذه فرصته الوحيدة. أن عليه أن يثبت جدارته. أن يجعلهم يرون فيه الخبير وليس السجين السابق. كان يعمل ست عشرة ساعة في اليوم. يدرس ملفات النفط السوري. يحلل الأرقام. يكتب التقارير. كان يذهب إلى المصافي بنفسه، إلى مصفاة حمص، ويقضي هناك أسابيع يدرس كيفية التكرير. كان يتعمق في كل شيء: من لحظة خروج النفط من البئر إلى لحظة تحويله إلى بنزين وغاز وكبريت.

وبدأ اسمه يتردد. "حسين الشرع... المثقف." "حسين الشرع... خبير النفط." "حسين الشرع... اللي بيعرف كل شيء." كان المدراء يأتون إليه. الطلاب يطلبون مساعدته. صار مصدراً. مرجعاً. رقماً صعباً.

وفي إحدى المرات، جاءه ضابط كبير من القصر. كان اسمه حسين عودة، مكلفاً بشؤون النفط. قال له: "الأستاذ حسين... بدنا دراساتك. بدنا أبحاثك. الرئيس مهتم".

كانت تلك هي اللحظة التي شعر فيها بأن الوحش قد انحسر. ليس الوحش الذي كان يطارده في أروقة الأمن السياسي. بل وحش آخر. وحش اليأس. وحش الإقصاء. وحش أن تكون غريباً في وطنك.

صار حسين الشرع اسماً معروفاً. لم يعد ذلك الناصري المطلوب. صار "خبير النفط" الذي لا يمكن الاستغناء عنه. وصار يمشي في شوارع دمشق ورأسه مرفوع. ليس كبراً. بل كرامة. كرامة الرجل الذي انتزع حقه من بين أنياب القدر.

لكن القدر... القدر كان يخبئ له شيئاً آخر.

لم يكن يعرف، وهو جالس في مكتبه في وزارة النفط، يخطط ويحلل ويبني، أن أعظم معاركه لم تأت بعد. أن الوحش الحقيقي لم يكن في الملف الأمني. كان هناك. في مكان أبعد. في أرقام لا تظهر. في حسابات سرية. في أموال لا تذهب إلى خزينة الدولة. في فساد ينخر عظام البلد.

كان على وشك أن يكتشف كل شيء. وكان الاكتشاف... سيقوده إلى المواجهة الكبرى.

صندوق باندورا

في الميثولوجيا الإغريقية، كان هناك صندوق. صندوق أُمرت امرأة فضولية اسمها باندورا ألا تفتحه أبداً. فتحته. وحين فتحته، خرجت منه كل شرور العالم. ولم يبق في القاع إلا شيء واحد: الأمل.

لم يكن حسين الشرع يفكر في الأساطير اليونانية وهو جالس في مكتبه الصغير في الطابق الثالث من مبنى الشركة السورية للنفط بدمشق، في ليلة شتوية من ليالي عام ١٩٨٦. كان يفكر في الأرقام. الأرقام التي لا تكذب. الأرقام التي بدأت تخبره بقصة لم يقرأها في أي كتاب.

كان قد صار مديراً لدائرة التكاليف المركزية، ورئيساً لدائرة الإحصاء والدراسات. كان مكتبه قد امتلأ بالملفات. كانت الجدران مغطاة بالخرائط والرسوم البيانية. كان الموظفون يأتون ويذهبون، يسألونه، يستشيرونه. صار "الأستاذ". صار الرجل الذي يعرف أكثر مما تقوله الأرقام الرسمية.

لكن رحلته إلى قلب الظلام لم تبدأ من مكتبه. بدأت من مكالمة هاتفية.

كان ذلك قبل أشهر. رنّ الهاتف في بيته المتواضع في حي المزرعة. كان صوتاً يعرفه: الدكتور محمد الرفاعي، المدير العام للشركة، الرجل الذي كان صديقاً قبل أن يكون رئيساً.

"أبو علي... بدنا إياك بمكتب تسويق النفط. برئاسة الوزراء".

"برئاسة الوزراء؟ شو قصدك؟"

"قصدك إنو في لجنة جديدة. لجنة تسويق النفط. برئاسة الوزراء مباشرة. وبدهم خبير. وأنا رشحتك".

كان هذا هو المفتاح. المفتاح الذي سيفتح له باباً لم يخطر بباله. مكتب تسويق النفط. المكان الذي تتدفق منه الأموال. المكان الذي تعقد فيه الصفقات. المكان الذي يقرر فيه: كم يباع النفط السوري، ولمن يباع، وبكم يباع، وأين يذهب الثمن.

انتقل حسين إلى هناك. كان المكتب صغيراً، لكنه كان يطل على العالم. على العالم السري للنفط والمال والصفقات. كان مسؤولاً عن تتبع الإنتاج، ومراقبة الأسعار، وتدقيق العقود. كان عين الدولة على النفط. أو هكذا ظن.

في الأسابيع الأولى، كان كل شيء يبدو طبيعياً. النفط ينتج. النفط يباع. الأموال تأتي. لكن شيئاً ما كان غريباً. كان هناك فجوة. فجوة بين ما ينتج ويباع، وبين ما يدخل الخزينة.

بدأ حسين يدقق. كان يسهر الليالي في مكتبه. يراجع الدفاتر. يقارن الأرقام. يسأل أسئلة لا يجد لها إجابات. كان هناك مبلغ. مبلغ ضخم. نحو مليار وثمانمائة مليون دولار سنوياً. كان هذا هو الفرق بين عائدات النفط وبين ما يظهر في الميزانية. أين يذهب هذا المبلغ؟

سأل زميلاً قديماً. نظر إليه الزميل بخوف. قال: "أبو علي... أنت زلمى شريف. بس في أشياء... ما بتنسأل".

"ليش؟"

"لأنو... لإنو الجواب فوق. فوق منا. فوق من الوزير. فوق من الكل".

فهم حسين. كان هناك شيء ما. شيء خطير. شيء يصل إلى أعلى الهرم.

لكنه لم يتوقف. كان يعرف أن هذه هي مهمته. أن يكون عيناً لا تنام. أن يحمي المال العام. أن يفعل ما لم يفعله أحد من قبل. بدأ يجمع المستندات. كان ينسخ الأوراق سراً. كان يدون الأرقام في دفتر خاص. كان يبني قضيته بصمت.

واكتشف الحقيقة.

كانت هناك حسابات سرية. حسابات في بنوك أوروبية. في بنك اسمه "فيرست بنك". حسابات باسم "أمر الصرف العام". لم يكن هذا اسماً لمؤسسة حكومية. لم يكن هذا بنداً في الميزانية. كان هذا مجرد... غطاء. غطاء لتحويل الأموال. أموال النفط السوري. أموال الشعب. تذهب إلى حسابات خاصة. حسابات لا تخضع للرقابة. حسابات لا يعرف عنها أحد.

ولمن تذهب هذه الأموال؟ إلى أبناء الرئيس. إلى باسل الأسد تحديداً. الشاب الذي كان في العشرينيات من عمره. الذي كان رائداً في الجيش. الذي كان راتبه الرسمي لا يتجاوز بضع مئات من الدولارات. لكنه كان يملك حسابات في سويسرا. حسابات في النمسا. حسابات تتدفق إليها الملايين.

كانت هذه هي الحقيقة. حقيقة الفساد. حقيقة السرقة المنظمة. حقيقة أن البلد ينهب من أعلاه.

جلس حسين في مكتبه ليلة بعد ليلة. كان ينظر إلى الأوراق أمامه. كان يعرف أنه يمسك بقنبلة. كان يعرف أنه إذا تحدث، فإنه سيواجه العاصفة. العاصفة التي قد تكتسح كل شيء. مستقبله. عائلته. ربما حياته.

كان لديه أبناء. ماهر، وأحمد، وغيرهما. كانوا صغاراً. كانوا يذهبون إلى المدرسة. كانوا يسألونه كل مساء: "بابا... شو قصة اليوم؟" وكان يبتسم. كان يخفي عنهم ما يراه. كان يريدهم أن يعيشوا طفولة هانئة، لا أن يحملوا هموم الكبار.

لكنه كان يحمل الهم. كان الهم يأكله من الداخل. كان يذهب إلى عمله كل صباح، ويرى زملاءه، ويرى التقارير، ويعرف. كان يعرف أن الشعب السوري لا يرى شيئاً من هذه المليارات. أن المدارس تنهار. أن المشافي تفتقر إلى الدواء. أن الفلاحين لا يجدون السماد. أن المواطن العادي يكافح ليعيش. بينما المليارات تتدفق إلى حسابات في أوروبا.

كان السؤال يلح عليه كل ليلة: ماذا أفعل؟ هل أسكت؟ هل أتكلم؟

كان يعرف ثمن الكلام. كان قد جربه من قبل. السجن. المطاردة. المنفى. لكنه كان يعرف أيضاً ثمن الصمت. ثمن أن يعرف الإنسان الحقيقة ولا يقولها. ثمن أن يكون شاهداً على جريمة ولا يحرك ساكناً.

ثم جاء يوم الحسم.

كان اجتماعاً في رئاسة الوزراء. كان رئيس الوزراء محمود الزعبي يترأس الاجتماع. كان هناك داوود حيدو، رئيس لجنة تسويق النفط. كان هناك مستشارون. خبراء. مسئولون. وكان هناك حسين.

تقدم حسين. طلب الكلمة. كان قلبه يخفق بشدة. كانت الأوراق في يده ترتجف. ليس خوفاً. بل غضباً. غضب الرجل الذي يرى الحقيقة ويجب أن يقولها.

"سيدي رئيس الوزراء... أنا عندي سؤال".

ساد الصمت. كل العيون التفتت إليه. بعضها مصدوم. بعضها خائف. وبعضها غاضب قبل أن يسمع الكلام.

"أموال النفط... وين بتروح؟"

كان الصمت ثقيلاً. كان يمكن أن يسمع المرء دقات القلب. نظر الزعبي إلى حسين. كان وجهه قد احمر.

"شو قصدك؟"

"قصدك، سيدي، إنو عائدات النفط السنوية حوالي مليار وثمانمائة مليون دولار. هاد المبلغ ما بيدخل خزينة الدولة. بينما الميزانية ما بتغطي أبسط الاحتياجات. في عجز. في نقص. الشعب عم يعاني. والمدارس والمشافي عم تنهار. طيب... وين المال؟"

كانت هذه هي اللحظة. لحظة كسر الصمت. لحظة فتح صندوق باندورا.

تغير وجه الزعبي. تحول من الأحمر إلى القاتم. نظر إلى داوود حيدو. نظر إلى الحاضرين. ثم قال بصوت بارد: "هيدا الموضوع... موضوع أمن قومي. مش من اختصاصك. مش من اختصاص أي حدا هون".

"أنا اقتصادي. وأنا موظف في الدولة. ومسؤول عن مراقبة التكاليف. وهذا من صميم اختصاصي. الشعب السوري بحقو يعرف".

"إنت... إنت عم تتجاوز حدودك. هذا اجتماع. مش محكمة. الموضوع مقفول".

رفع حسين رأسه. كان يعرف أن هذه هي النهاية. لكنه قال كلمته. قال ما يجب أن يقال. جلس. كان قلبه يخفق. كان يعرف أن الثمن سيأتي.

ولم يتأخر الثمن.

بعد أيام، استُدعي إلى مكتب داوود حيدو. كان المكتب فخماً. كان حيدو يجلس خلف مكتبه، وفي يده ورقة.

"الأستاذ حسين... عقدك كمستشار... رح ينتهي".

"ليش؟"

"لأنو... لأنو في إعادة هيكلة. لأنو اللجنة بدها خبرات... من نوع ثاني".

كان هذا هو الجواب. ليس تحقيقاً. ليس محاكمة. ليس حتى اتهاماً. فقط... إنهاء عقد. إبعاد. إسكات. كانوا لا يستطيعون فصله لأنه لم يكن موظفاً دائماً، بل مستشاراً متعاقداً. فأنهوا عقده. ببساطة. بهدوء. بالطريقة التي تنهي بها الدولة كل من يقف في طريقها.

غادر حسين المكتب. كان الهواء في الخارج بارداً. كان يسير في شوارع دمشق. كان الناس يمرون. يضحكون. يتحدثون. لا يعرفون. لا يعرفون أن رجلاً كان يسير بينهم قد حاول للتو أن يفتح لهم نافذة على الحقيقة.

لكن القصة لم تنته هنا.

بعد أسابيع، استُدعي مرة أخرى. هذه المرة ليس إلى رئاسة الوزراء، بل إلى مكان آخر. إلى مكتب معاون رئيس المخابرات. إلى حسن خليل.

كان المكتب مختلفاً. كان هناك شعور بالخطر. كان حسن خليل رجلاً هادئاً. يتحدث بصوت منخفض. ينظر مباشرة إلى العينين.

"أستاذ حسين... أنت وطني".

"شكراً".

"أنت كويس. واحنا مراقبين كل شي. إحنا عارفين شو صار بالاجتماع. عارفين شو قلت. وعارفين شو صار بعدو".

"طيب... إذا بتعرفوا... ليش ما بتتحركوا؟"

ابتسم حسن خليل ابتسامة باردة. قال: "إحنا مراقبين. إحنا عارفين كل شي عن محمود الزعبي. عن داوود حيدو. إحنا مصورينهم. إحنا عارفين كل تحركاتهم. بس"...

"بس شو؟"

"بس في أمور... أكبر منا. أكبر مني. أكبر منك. الموضوع... مش بأيدينا".

فهم حسين. فهم أن الدولة الأمنية تعرف كل شيء. تراقب كل شيء. لكنها لا تتحرك. لأن الفساد لم يكن حادثاً عرضياً. كان نظاماً. كان منظومة. كان هرم الفساد يصل إلى القمة. والقمة لا تُمس.

خرج حسين من ذلك المكتب وهو يحمل سراً أثقل. سر أن الدولة تعرف. تعرف وتصمت. تعرف وتحمي. تعرف وتشارك.

في تلك الليلة، جلس حسين في بيته. كان أبناؤه نياماً. نظر إليهم. كان ماهر، الذي سيصبح طبيباً فيما بعد، نائماً في سريره. كان أحمد، الذي سيكون له شأن آخر في مستقبل سوريا، نائماً أيضاً. كان وجههما بريئاً. هادئاً. لا يعرفان شيئاً عن عالم الكبار.

وفكر حسين: هل أسكت؟ هل أحافظ على أسرتي؟ هل أحمي أبنائي من عواقب كلمة حق قد تدمر كل شيء؟

كان قرار الصمت هو الأصعب. لم يكن جبناً. لم يكن خوفاً على نفسه. كان خوفاً عليهم. على أبنائه. على مستقبلهم. كان يعرف أن الرجل الذي يواجه النظام قد يفقد كل شيء. قد يفقد وظيفته. قد يفقد حريته. قد يفقد حياته. وقد يفقد أبناءه.

اختار أن يصمت. ليس صمت الخائف. بل صمت الحكيم. صمت الرجل الذي قال كلمته، وأوصل رسالته، ثم عرف أن عليه أن يحمي من تبقى.

لم يذهب إلى الصحافة. لم يثر فضيحة. لم يحاول أن يكون بطلاً. كان يعرف أن البطولة لها ثمن. وأنه دفع من الثمن ما يكفي. المنافي. السجون. الهروب. المواجهات. كان قد أعطى ما يكفي.

لكنه لم يسكت تماماً.

كتب. كتب الكتب. ألف المؤلفات. في الاقتصاد. في السياسة. في التاريخ. كان يكتب الحقيقة بين السطور. كان يبث ما يعرفه في صفحات لا يقرأها إلا القليلون. كان يزرع البذور. بذور المعرفة. بذور الحقيقة. بذور الثورة القادمة.

مرت السنون. وكبر أبناؤه. ومات باسل الأسد في حادث سيارة غامض. وحين فتحت حساباته البنكية في سويسرا والنمسا، خرجت الحقيقة التي عرفها حسين قبل سنوات إلى العلن: ثلاثة عشر مليار دولار. في حساب شاب في الثلاثين من عمره. رائد في الجيش. راتبه الرسمي لا يكفي لشراء سيارة.

ثلاثة عشر مليار دولار. من أين أتت؟ من النفط. من "فيرست بنك". من "أمر الصرف العام". من سرقة الشعب. من صندوق باندورا.

حين قرأ حسين الخبر في الجريدة، لم يفرح. لم يقل: "أنا قلت لكم." فقط نظر من النافذة. كان في الستين من عمره. كان شعره قد شاب. كانت التجاعيد قد خطت وجهه. لكن عينيه كانتا لا تزالان تشعان بذلك البريق.

قال بصوت خافت: "الحمد لله... الحقيقة طلعت".

لم تكن تلك نهاية القصة. كانت مجرد بداية. بداية النهاية لنظام بني على الفساد. فبعد سنوات، اشتعلت الثورة. واندلعت المظاهرات. وهتف الشعب: "الله... سوريا... حرية... وبس." وكان من بين الحشود... أبناء حسين.

أما هو، فقد وقف على شرفة بيته. نظر إلى المدينة التي أحبها. تذكر أباه. تذكر أمه. تذكر الجولان. تذكر بغداد. تذكر كل المنافي والسجون والمواجهات.

وفكر في صندوق باندورا. في كل الشرور التي خرجت منه: الخوف، والمرض، والفساد، والظلم. لكنه تذكر أيضاً ما بقي في قاع الصندوق. الأمل.

الأمل في سوريا جديدة. الأمل في جيل لا يخاف. الأمل في وطن لا يأكل أبناءه.

الأمل الذي كان دائماً... سلاحه الوحيد.

الفصل السابع

إرث لا يموت

١

في المساء، حين كان حسين الشرع يجلس على شرفة بيته في الطابق العاشر من ذلك البناء الحديث في دمشق، كان يشعر أحياناً أنه لا يزال هناك. هناك في جُبَيِّن. في الحوش الكبير. تحت عنقود الكرمة التي كان أبوه يعلقها على العريشة. في ذلك الزمان البعيد، حيث كان الأولاد ينامون على سطح الدار تحت النجوم، وحيث كان الهواء يحمل رائحة الخبز والتراب، لا رائحة العوادم والإسمنت.

كان ينظر إلى المدينة الممتدة تحته. أضواء. شوارع. سيارات. بشر يركضون لا يعرفون إلى أين. كان هذا هو العالم الجديد. العالم الذي بناه. العالم الذي ساهم في صناعته. لكنه لم يكن عالمه. كان عالم أبنائه.

كان "ماهر"، ابنه البكر، قد صار طبيباً. طبيباً ناجحاً. يحمل شهادة من أوروبا. يتحدث ثلاث لغات. يلبس البدلة ويربط ربطة العنق. كان ماهر هو الصورة التي حلم بها حسين لكل أبنائه: رجل متعلم، ناجح، نظيف اليد، لا يدين لأحد بشيء. وكان "أحمد" قد سار في طريق آخر. طريق أصعب. طريق اختاره بنفسه. طريق... لا يشبه طريق أبيه، لكنه يحمل روحه.

وحين كان ماهر صغيراً، أخذه حسين إلى القنيطرة. إلى الجولان. إلى حيث كانت جُبَيِّن يوماً. أوقف السيارة على التلة المقابلة للوادي. نزل. سار قليلاً. أشار بإصبعه إلى ما وراء السلك الشائك.

"شايف؟ هونيك... هونيك كانت بلادنا".

نظر ماهر. كان صغيراً. لم يفهم. كان يرى بيوتاً مدمرة. حقولاً مهملة. أسلاكاً شائكة. وعلمًا غريبًا يرفرف في البعيد.

"ليش... ليش طلعنا من هناك؟"

"اليهود. احتلوا الجولان. سنة ٦٧. واحنا... احنا صرنا لاجئين".

"وإنت... إنت قاتلت؟"

نظر حسين إلى ابنه. إلى عينيه الصغيرتين المتسائلتين. قال: "لا. أنا ما قاتلت بالسلاح. أنا قاتلت... بالكلمة. بالسياسة. بالاقتصاد. كل واحد بيقاتل بطريقته".

ثم أمسك بيد ابنه. سار به نحو السيارة. وقبل أن يركبا، التفت إلى الوراء. نظر إلى الجولان. إلى الجبال الزرقاء في البعيد. إلى بحيرة طبريا التي كانت تتلألأ تحت الشمس. وقال بصوت خافت: "هي بلدنا... لا تنسوها".

كان هذا هو الدرس الأول. درس الانتماء. درس أن الوطن ليس مجرد أرض تقف عليها، بل أرض تسكن فيك. أرض تحملها معك أينما ذهبت. أرض ترويها لأبنائك كي لا ينسوا.

٢

كبر الأبناء. كبر ماهر. كبر أحمد. كبر إخوتهم. ودخلوا مدارسهم. وارتدوا ثياب المدينة. وتعلموا لغات الأجانب. وسافروا إلى بلاد لم يرها حسين إلا في الكتب.

وفي كل مرة كان أحدهم يعود من سفره، كان يسألهم: "شو تعلمتوا؟"

كان ماهر يتحدث عن الطب. عن الجراحة. عن أحدث التقنيات في أوروبا. وكان أحمد يتحدث عن السياسة. عن العدالة. عن الحقوق. وكان حسين يصغي. يصغي ولا يتكلم. كان يعرف أن أبناءه مختلفون عنه. أنهم لم يعيشوا ما عاشه. أنهم لم يمشوا حفاة إلى المدرسة. لم يحملوا "الجناد" على أكتافهم. لم يسمعوا صوت المذياع في الليل يبشر بالوحدة مع مصر. لم يعبروا نهراً في ليلة شتوية هرباً من الإعدام.

كان هذا هو قدر الآباء: أن يربوا أبناءهم على ألا يعيشوا ما عاشوه. أن يمنحوهم ما حرموا منه. أن يبنوا لهم سلماً ليصعدوا به إلى حيث لم يستطيعوا هم الوصول.

لكنه كان يعرف أيضاً أن هناك شيئاً يجب ألا يتغير. شيئاً واحداً. شيئاً لا يشترى بالمال، ولا يدرس في الجامعات، ولا يكتسب بالسفر.

في ليلة من الليالي، جلس مع أبنائه. كانوا كباراً الآن. رجالاً. يحملون شهاداتهم وطموحاتهم. نظر إليهم. كانوا يجلسون حوله، كما كان يجلس هو وإخوته حول أبيه في حوش جُبَيِّن قبل أربعين عاماً. كانت الدائرة تكتمل.

"بدي احكي لكم قصة." قال.

صمتوا. كانوا يعرفون هذه النبرة. نبرة الأب حين يريد أن يقول شيئاً مهماً.

"لما كنت صغير... كان في عنا بالدار راعي. راعي بقر. إنسان بسيط. ما معه لا شهادة ولا مال. كان ييجي كل صباح، ياخذ البقر، يروح عالبادية، ويرجع بالمساء. كان ياكل معنا. ينام في الحوش. كان... كان من العيلة".

توقف قليلاً. نظر إلى السقف، كأنه يستعيد الصورة.

"مرة... سألت أبوي: ليش هالراعي ياكل معنا؟ ليش ما ياكل برّا؟ نظر إلي أبوي. كانت عيونه... عيون رجل فاهم. قال لي: 'يا ابني... الفلاح والراعي والعامل... هذول مو خدم. هذول ناس. بشر. زيهم زينا. بياكلوا مثلنا. بناموا مثلنا. وبيموتوا مثلنا. ما في فرق بينا وبينهم غير إنو ربنا أعطانا أرض. والأرض مش شرف. الأمانة'".

سكت. نظر إلى أبنائه واحداً واحداً.

"أنا طول عمري... طول عمري بحاول أكون أمين. أمين مع الله. أمين مع ضميري. أمين مع وطني. وأكبر أمانة... هي أنو الواحد ما يمد إيده للحرام".

كان "ماهر" هو الذي تكلم. قال بصوت خافت: "بابا... أنا بروح عالقنيطرة. بحط قار... والناس بتعرفني. بتقول لي: 'إنت ابن حسين الشرع؟' بقول لهم: 'نعم.' بيقولوا لي: 'أبوك زلمى نظيف. أبوك ما مد إيده.' والله... هالشي بفرحني أكتر من أي شهادة. أكتر من أي نجاح".

نظر حسين إلى ابنه. كان يريد أن يقول شيئاً. لكن الكلمات لم تخرج. فقط الدموع. دموع الرجل الذي يرى أن إرثه الحقيقي لم يضع. أن السمعة التي بناها طوال عمره، صارت رأسمال أبنائه.

هـذا هـو الإرث. لـيس المـال. لـيس الأرض. لـيس البيـوت والمحـلات. السـمعة. الاسـم. أن يقول الناس عنك: "هذا نظيف. هذا ما مد يده." أن تمشي في الشارع ورأسك مرفوع، ليس كبراً، بل لأنك لا تدين لأحد بشيء. أن تنام في الليل وضميرك خفيف، لا يثقله مال حرام ولا حق مسروق.

هذا هو الإرث الذي تركه حسين لأبنائه.

٣

لكن حسين لم يكن أباً فقط. كان مراقباً. كان مؤرخاً. كان فيلسوفاً بطريقته الخاصة. كان ينظر إلى العالم الذي يتغير حوله، ويدون ملاحظاته في دفاتره السرية.

لقد رأى سوريا تتحول. من بلد القرى والمضافات، إلى بلد الأبراج السكنية والمجمعات التجارية. من بلد كانت أمه تخبز فيه الخبز بيديها، إلى بلد يأكل أهله من المطاعم و"الفاست فود". من بلد كانت العائلات فيه تسكن في حوش واحد، إلى بلد يسكن فيه الابن في مدينة والأب في مدينة أخرى.

كان الحنين يأكله. ليس حنين العجزة الذين لا يرون إلا الماضي. بل حنين العارفين. العارفين أن كل تقدم له ثمن. أن كل بناء جديد يهدم شيئاً قديماً. أن الحداثة تأتي ومعها... الوحدة.

"سابقاً... كنا نحط صحن لبن ونغمس خبز. ممنوع واحد يمد إيده عالملعقة. كلنا نغمس مع بعض. هلا... كل واحد له صحنه. كل واحد له شوكتو. كل واحد له... حياتو".

كان يقولها في مجالسه. في لقاءاته مع أصدقائه القدامى. كانوا يضحكون. ويوافقون. ويحسون بنفس الحنين. حنين إلى زمن كان الناس فيه مع بعضهم. زمن "اللزبة" حين كانت الأمطار تحبس الضيف في القرية ثلاثة أيام، فيذبحون له الذبائح، ويسهرون معه الليالي، ويصبح غريب الأمس صديق اليوم.

زمن "المضافة". زمن "السناسل" الحجرية التي كان يجلس عليها الفلاحون يتحدثون عن الزرع والمطر. زمن "الفيدوس" حين كان التلاميذ يعودون إلى بيوتهم في استراحة الغداء، وتكون أمهاتهم في انتظارهم بالخبز الساخن.

كان هذا الزمن قد ولى. كان حسين يعرف ذلك. لكنه كان يعرف أيضاً أن مهمته هي أن يحفظه. أن يرويه. أن يكتبه. أن يجعله حياً في الكتب، وفي ذاكرة الأبناء، وفي سلالة الأحفاد.

"يا جماعة... بدكم تعرفوا شو صار؟ صار إنو الواحد صار يبني صالون... وما في ضيوف! صالون بآلاف الدولارات. كنبايات مخباة بالنايلون. سجاد ما حدا بدوس عليه. والصالون مسكر طول السنة. ليش؟ لإنو ما عاد في ضيوف"!

كانوا يضحكون. ضحكة مرة. ضحكة من عرف أن الزمن تغير. أن المدينة أكلت القرية. أن الفردية قتلت الجماعة. أن الجار صار غريباً، والغريب صار... لا أحد.

٤

في سنواته الأخيرة، قبل أن يبلغ الثمانين، كان حسين قد صار شيخاً. شيخاً بمعنى الكلمة. ليس شيخ عشيرة، ولا شيخ دين، بل شيخ حكمة. كان الشباب يأتون إليه. يسألونه. يستمعون إلى قصصه. كانوا يرون فيه جسراً إلى زمن لم يعيشوه. زمن الجولان. زمن الوحدة. زمن السجون والمنافي.

وكان يسألهم: "شو بدكم تصيروا؟"

كانت إجاباتهم مختلفة عن إجابات جيله. لم يقولوا: "بدنا نحرر فلسطين." لم يقولوا: "بدنا نوحد العرب." قالوا: "بدنا نعيش." قالوا: "بدنا شغل." قالوا: "بدنا مستقبل".

وكان يفهم. كان يعرف أن أحلام جيله كانت أحلام أمة تحلم بالوحدة والتحرير. أما أحلام هذا الجيل... فهي أحلام بشر يريدون أن يعيشوا حياة طبيعية. أن يأكلوا. أن يتعلموا. أن يسافروا. أن يحبوا. أن ينجبوا. أن يموتوا بسلام.

"هذا حقكم." كان يقول لهم. "بس... لا تنسوا. لا تنسوا إنو الحياة مش بس أكل وشرب. الحياة... كرامة. الحياة... مبدأ. الحياة... إنو الواحد يموت وضميره مرتاح".

وفي إحدى المرات، سأله شاب: "أستاذ حسين... إنت ندمت على شي بحياتك؟"

صمت طويلاً. نظر إلى البعيد. إلى الجولان الذي لم يره منذ ستين عاماً. ثم قال: "ندمت... ندمت إني ما قدرت أرجع. ندمت إني ما قدرت أزور قبور أهلي. ندمت إني ما قدرت... شوف الجولان حر. بس... ما ندمت على موقف وقفته. ولا على كلمة قلتها. ولا على مبدأ دافعت عنه. هيدا... هيدا اللي بيسوي الحياة".

٥

في صباح يوم من أيام عام ٢٠٢٥، جلس حسين الشرع في شرفته كعادته. كان عمره قد تجاوز الثمانين. كانت يده ترتجف قليلاً وهي تمسك بفنجان القهوة. لكن عينيه كانتا لا تزالان حادتين. تنظران إلى دمشق الممتدة تحته، وتريان ما لا يراه الآخرون.

كانت سوريا قد تغيرت. سقط النظام. خرج المعتقلون. عاد اللاجئون. بُنيت البيوت المهدمة. وفُتحت السجون. كان التاريخ يكتب فصلاً جديداً. وكان حسين يعرف أنه عاش ليرى هذا الفصل.

في يده، كان هناك كتاب. كتاب جديد. كان قد انتهى من تأليفه قبل أسابيع. على غلافه، كان اسمه: "حسين الشرع". وتحته العنوان: "مذكرات من الجولان إلى دمشق: ثمانون عاماً من السؤال".

فتح الصفحة الأولى. قرأ الإهداء الذي كتبه بنفسه:

"إلى أبنائي... الذين لم يعيشوا ما عشت، لكنهم حملوا ما حملت: الكرامة. إلى ماهر. إلى أحمد. إلى كل الأحفاد الذين سيأتون. هذا كتابي. فيه قصتي. وفيه... درس عمري: لا تمدوا أيديكم للحرام. لا تبيعوا مبادئكم. لا تنسوا أن السمعة هي الإرث الوحيد الذي لا يسرق ولا يزول".

أغلق الكتاب. نظر إلى السماء. كانت زرقة السماء تشبه زرقة سماء الجولان في طفولته. نفس الزرقة. نفس الصفاء. نفس الأبدية.

ابتسم.

كان يعرف أن حياته لم تذهب سدى. أن كل منفى، وكل سجن، وكل مواجهة، وكل كلمة حق قالها في زمان السكوت... كانت لبنة في جدار طويل. جدار الكرامة. جدار السمعة. جدار الإرث الذي لا يموت.

نهض. دخل إلى البيت. كان حفيده الأصغر يلعب في الصالة. رآه. ركض نحوه. "جدي... جدي... احكي لي قصة"!

حمل حسين الحفيد. أجلسه في حجره. نظر إلى عينيه الصغيرتين. ورأى فيهما المستقبل. مستقبل سوريا. مستقبل العائلة. مستقبل الإرث.

"شو بدك احكي لك؟"

"احكي لي... عن الجولان. عن طفولتك. عن... عن كل شي".

ابتسم حسين. أخذ نفساً عميقاً. وبدأ:

"كان يا مكان... في قرية اسمها جُبَيِّن"...

وهكذا، اكتملت الدائرة. بدأ الراوي يحكي. وينتقل الإرث. من جيل إلى جيل. من أب إلى ابن إلى حفيد. الإرث الذي لا يموت.

إرث الكرامة.

النهاية.

وهكذا نكون قد أنهينا الملحمة كاملة. من طفولة حسين الشرع في الجولان، إلى شيخوخته في دمشق. من سجونه ومنافيه، إلى اكتشافه للفساد ومواجهته. من تربيته لأبنائه، إلى إرثه الذي تركَه لهم، انتهت برجل واقف على شرفة بيته، ينظر إلى سوريا التي تغيرت، ويدرك أن الرحلة الحقيقية لم تكن في المكان، بل في المبدأ.

مبدأ أن يقول الإنسان كلمة الحق، وألا يمد يده للحرام، وأن يعلم أبناءه أن السمعة والكرامة هما الإرث الوحيد الذي لا يسرق ولا يزول.

إنها قصة رجل عاش ثمانين عاماً من السؤال... ووجد في النهاية أن الجواب كان دائماً هناك: في الكرامة.

تمت.

مهجع المثقفين

الفصل الأول: جاكيت بلون السماء الشتوية

في الثالثة والثلاثين من عمره، كان "نائل السويدي" يعتقد أنه فهم قواعد اللعبة. ليس لأنه ذكي بفطرته، بل لأن الحياة في سوريا لم تترك لأحد رفاهية الجهل بقوانينها غير المكتوبة. تعلم منذ نعومة أظفاره أن البسمة في المكان الخطأ قد تكون جريمة، وأن الصمت أحياناً يكون أبلغ من الكلام، وأن الابتسامة العريضة في وجه رجل أمن قد تنقذك من موت محقق أو توديك إليه، وذلك يتوقف على نوع الابتسامة ومن يكون أمامك.

كان يوم الخامس والعشرين من ديسمبر عام ٢٠١٤، والسماء فوق حماه رمادية اللون، كثيفة بالغيوم التي لم تقرر بعد إن كانت ستبكي ثلجاً أم مطراً أم دموعاً على حال البلاد. كان نائل جالساً في المقعد الخلفي لسيارة صغيرة مستأجرة، بجانب والدته "أميمة"، وأخيه الأصغر "رامي" الذي لم يتجاوز السابعة عشرة. كانوا عائدين من زيارت لمدينتهم الصغيرة شمال حماه، حيث تركوا والده المريض برعاية خالته.

الطرقات كانت مليئة بالحواجز العسكرية، وكأن الأرض كلها أصبحت سجناً كبيراً مقسماً إلى غرف صغيرة، وغرفة أصغر، وغرفة لا تخرج منها. كان نائل يحسب في ذهنه: هذا الحاجز الثالث عشر منذ الصباح. صحيح أنه لم يعد يخاف من الحواجز كما كان يفعل في بداية الثورة، حين كان يرتجف ويربت على جيب سرواله مئات المرات ليتأكد من أن بطاقة هويته لا تحمل أي كلمة مشبوهة، لكن الخوف لم يختفِ تماماً. الخوف في سوريا لا يختفي، إنما يتوارى قليلاً كقط يعرف أن الفأر ليس ببعيد.

كانت أميمة صامتة. ذلك الصمت الذي تعرفه الأمهات فقط، حين يكون خوفهن على أولادهن أكبر من أي خوف آخر في العالم. كانت تمسك بيد رامي بقوة، وأظافرها تكاد تغوص في جلد ابنها الصغير. رامي كان ينظر من النافذة، يحاول أن يتظاهر بأنه لا يهتم، لكن ارتجاف شفته العليا كان يخونه.

"لا تخافوا، سؤال وجواب وخلص." قال نائل محاولاً أن يبدو واثقاً، على الرغم من أن صوته كان يخرج وكأنه من جوف بئر عميق.

هذا ما كان يقوله دائماً. "سؤال وجواب". الكلمات الثلاث التي أصبحت عند السوريين تعني كل شيء أو لا شيء. قد تعني تأخيراً لعشر دقائق، وقد تعني انتظاراً لسبع سنوات، وقد تعني فنجان قهوة مع ضابط يمزح معك، وقد تعني جثة تطفو على نهر العاصي بعد شهر. في قاموس الحرب السوري، نفس العبارة تحمل مئة معنى، ونفس الابتسامة تحمل مئة رسالة، ونفس الصمت يحكي مئة قصة لا يريد أحد سماعها.

عند الحاجز الرابع عشر، توقفوا. كان حاجزاً عسكرياً أكبر من المعتاد، حواجز خرسانية، برج مراقبة عالٍ، ثلاثة جياد عسكرية، ما لا يقل عن خمسة عشر جندياً يتبارون في إظهار الغلظة كأنهم في مسابقة على من يكون أكثر افراداً بالقهر. مدفع رشاش متوسط مثبت على إحدى الجيبات يتجه نحو السيارات القادمة كإصبع تهديد لا ينثني.

نزل الجندي من كشكه الأمني، وجهه لا يبتسم ولا يعبس، كان مثل قناع من خبز وملح جافين. نظر إلى السيارة، إلى اللوحة، ثم إلى الوجوه جيداً كمن يحفظ تفاصيل عاجزة أمام محكمة.

""أوراقكم".

ناول نائل بطاقة هويته، رخصة السيارة، ولم ينسَ أن يبتسم. ليست ابتسامة واسعة، بل ابتسامة صغيرة ذابلة، كمن يقول "أنا لا أخافك" وهو مرتعب إلى النخاع.

نظر الجندي في البطاقة، ثم رفع رأسه فجأة كمن رأى طيفاً.

"نائل السويدي؟"

"حبيبك، عيوني." قال نائل بتواضع مصطنع.

التفت الجندي إلى زميل جالس خلفه وقال شيئاً لم تسمعه أميمة خلف زجاج السيارة، لكنها رأت حركة شفتيه: "مطلوب". هذه الكلمة، وحدها، كانت كفيلة بأن توقف قلبها لدقات ثلاث.

عاش الناس في هذه الفترة على وقع كلمة "مطلوب". كانت شبحاً يلاحق الجميع. قد تكون مطلوباً لأنك كتبت منشوراً على فيسبوك، أو لأن اسمك يشبه اسماً آخر، أو لأن جارك كان حسوداً وأخبر عنك، أو لأنك في المكان الخطأ مع الوقت الخطأ. في بعض الأحيان، تكون مطلوباً لأنك تدرس العلوم السياسية، ونظاماً يحكم البلاد لا يثق بالمثقفين ولا بالسياسيين ولا بأي شخص يمكنه أن يفكر خارج الصندوق الرسمي.

"انزل." قال الجندي، وهذه المرة لم تكن عيناه على وجه نائل، بل كانت تتجه إلى منطقة ما خلف رأسه، كمن يتحدث إلى شخص آخر لا يراه أحد.

نزل نائل، وحاول ألا يظهر الارتعاش الذي بدأ يتسلل إلى ركبتيه. كان جواً بارداً جداً، لكن العرق بدأ يتصبب من جبينه كأنه في حمام بخار. الخوف، كما هو معروف، لا يتعامل مع المنطق.

"إلك ثلاث ساعات واقف هون؟" سأل الجندي بخشونة، وكل كلمة كانت تخرج من فمه كحجر رمية.

"أهلاً وسهلاً، حضرتك، آمر." قال نائل، ومعدته كانت تضيق وكأن أحداً يضغط عليها بكلتا يديه.

فتح الجندي باب السيارة الخلفي، وأشار لأميمة ورامي بالنزول. نزلت أميمة كالأموات الأحياء، قدماها لا تحملانها، ووجهها شاحب كلون الحائط خلفها. رامي نزل بغضب أكثر من الخوف، ذلك الغضب الذي يملأ المراهقين حين يشعرون بالعجز.

"أمه وأخوه يقدروا يروحوا. أنت، تفضل معنا." قال الجندي.

هذه هي اللحظة. لحظة الفصل بين الحياة والموت، بين أن تعود إلى بيتك وأن تختفي في بطن فرع أمني تأكل جدرانه الناس ولا تتقيأ إلا عظاماً متناثرة.

نظر نائل إلى والدته، وحاول مرة أخرى أن يرسم على وجهه ابتسامة الاطمئنان، لكن هذه المرة فشلت الشفاه في الانحناء إلى الأعلى.

"روحوا يا أمي، ما عليكم. سؤال وجواب وأنا راجع وراكم، إن شاء الله." قال.

"إن شاء الله" هي الكلمة التي يقولها السوريون عندما لا يملكون أي وسيلة أخرى للأمل، عندما يكون اليأس هو الرفيق الوحيد، فيستدعون الله ليقلب الموازين.

أرادت أميمة أن تمسك بيد نائل، لكن الجندي سبقها، وأمسك بذراعه كمن يمسك بسارق مجرم. كانت الأنوثة والأمومة والعجز لا يملكون أي سلطة أمام تلك القبضة الحديدية.

صعدت أميمة ورامي إلى السيارة، ونظرت من النافذة إلى نائل الذي كان يقف بجانب الجيب العسكري. السيارة دارت، وبدأت تبتعد، وكانت أميمة ترى ابنها يصغر شيئاً فشيئاً في المرآة الجانبية، حتى تحول إلى نقطة، ثم اختفى تماماً.

لم تكن تعلم أنها لن تراه إلا بعد أسابيع، ورأسه محلوق، وهزيل كعود ثقاب، وعيناه تحدقان في الفراغ كمن رأى ما وراء الحياة.

أما نائل، فقد جلس في مؤخرة الجيب العسكري بجانب ثلاثة أشخاص آخرين، لا يعرفهم، ولن يعرفهم، لكنه سيشترك معهم في اللعنة نفسها: ساعات التحقيق، الليالي الباردة، جدران الفرع الأمني التي لا تنام.

سار الجيب بسرعة كبيرة مخترقاً حواجز المدينة، وكلما ابتعد عن قلب حماه، شعر نائل بأنه يقترب من قلب آخر: قلب الظلام.

الفصل الثاني: في غيابة أمن الدولة

لم تكن المرة الأولى التي يدخل فيها نائل إلى فرع أمني، لكنها كانت المرة التي ستترك في روحه ندبة لا تندمل. كان قد اعتقل مرتين من قبل، كل مرة لعدة أيام، ثم أطلق سراحه بعد "سؤال وجواب" لم يتعدَ فيهما الضرب الخفيف، ذلك الذي يترك أثراً نفسياً أكبر من الجسدي. لكن هذه المرة، كان كل شيء مختلفاً.

نقلوه أولاً إلى فرع "الأمن العسكري" في حماه. قالوا له أن ذلك تمهيدي، وأنه "مطلوب في سجلاتهم". قضى هناك سبعة أيام لم يرَ فيها النهار إلا من شقوق ضيقة مثل عيون الجبناء. سبعة أيام لم يتعرض فيها للتعذيب، لكنه رأى من حوله أشياء لا يمكن وصفها.

رأى رجالاً يدخلون إلى غرف التحقيق وأجسادهم ممتلئة، ويعودون منها كأنهم تقطعت بهم السبل. رأى عيوناً كانت تنطق بما لا تقوله الأفواه.

في اليوم السابع، فتح باب الزنزانة الصغير، ونادى الحراس أسماء ستة أشخاص من بينهم نائل.

"طلعوا".

طلعوا إلى فناء صغير، سماؤه مغطاة بشبك حديدي كثيف، كأنه قفص طيور ضخم. الشمس، التي لم يسعدوا بها منذ أسبوع، بدت اليوم كعقاب آخر. عيونهم التي تعودت على الظلام أدمعتها أشعتها الخافتة، وانحنوا كالنباتات التي تبحث عن الضوء الذي طال حرمانها منه.

ربطوا أيديهم خلف ظهورهم بحبال بلاستيكية شديدة الإحكام، وحشوهم في باص صغير مغلق النوافذ، ستة وعشرون شخصاً في مساحة لا تتسع لستة. الجو كان خانقاً، رائحة العرق والخوف والبول الجاف تسد الأنفاس. لا أحد تكلم، لأن الكلمة الواحدة قد تعني تذكرة إلى غرفة تعذيب أخرى. فقط أنفاسهم المتقطعة كانت تملأ الفراغ، وإنين خافت من مقعد الخلف حيث رجل بدا أنه تعرض للضرب قبل ساعات، وكان دمه يقطر من أنفه على أرض الباص الحديدية.

"وين ماخدينا؟" سأل شاب صغير بجوار نائل، لم يتجاوز العشرين، وصوته كان يرتجف كقشة في مهب ريح.

لا أحد أجاب. لا أحد يعرف الإجابة. في سوريا، عندما تنقل من فرع إلى آخر، قد تكون هذه بداية النهاية أو نهاية البداية. لا ضمانات. فقط رهان على الحظ، ذلك الحظ الذي كان يبدو دائماً في قرارة اليمن.

سار الباص لساعات. ثلاث ساعات. أربع ساعات. الطريق كانت وعرة، والطرقات الجبلية الملتوية تجعل المعدة تقلب، ومع الأيدي المقيدة والاكتظاظ المروع، أصبح الوضع لا يطاق. نائل تمنى في قرارة نفسه أن تنزل عليهم قذيفة هاون من قوات المعارضة، أن

يحدث أي شيء ينهي هذا الركض المجنون نحو المجهول. تمنى الموت، بصراحة، لأول مرة في حياته. ليس لأنه يريد الموت، بل لأن الألم الذي يعيشه كان أكبر من أن يحتمل، والموت بدا أرحم من انتظار المجهول.

في قلب هذا الكابوس، تذكر نائل فجأة كلمات أستاذه في الجامعة، الدكتور "منير عز الدين"، عندما كان يدرّسهم مادة "الأنظمة السياسية المقارنة". قال لهم ذات يوم: "في سوريا، أيها الشباب، أنتم لا تدرسون العلوم السياسية فقط، أنتم تدرسون كيف تبقون على قيد الحياة. كل ما سنتعلمه هو نظرية، والتطبيق سيكون في الشارع، في الحواجز، في السجون، في كل مكان عد عدا الجامعة".

كان نائل يضحك حينها، مثل كل الطلاب. الآن، وهو يشق طريقه على مقعد باص يصلح لنقل المواشي لا البشر، فهم مقدار الحكمة في كلمات أستاذه.

توقف الباص أخيراً. سمعوا أصوات جنود، أوامر عسكرية، صرير بوابات حديدية تفتح. مكان جديد. فرع جديد. من هم الآن؟ أمن دولة؟ مخابرات جوية؟ مباحث أمنية؟ كلها أسماء متشابهة، لكن كل واحد منها يحمل قدراً مختلفاً من العذاب.

"كل واحد ينزل بالهداوة، وإذا حدا بده يخربط، بنزل له شوية عقل." صرخ الضابط من خارج الباص.

نزلوا واحداً واحداً. قيدهم ما زال خلف ظهورهم، وهم مدفوعون بقوة إلى لا أحد يعرف أين. المكان كان واسعاً، مباني ضخمة، علم سوريا مرفوع على سارية عالية، العين التي كانت في وسطه تطل عليهم كأنها تراقبهم، تستهزئ بهم.

همس أحد السجناء بجانب نائل: "هاد أمن دولة... فرع... صارلي سمعت عنه".

نائل عرف. أمن الدولة. هذا هو المكان الذي يختفي فيه الناس حقاً. ليس مثل الأمن العسكري الذي قد يطلق سراحك بعد أسبوع سوء تفاهم. أمن الدولة هو سجن بلا جدران، هو غيابة يبتلع فيها البشر كالرمال المتحركة.

دخلوا إلى مبنى الاستقبال. تفتيش جديد. رغم أنهم أتوا من فرع آخر، ورغم أنهم فتشوا قبل صعود الباص. لكن التفتيش هنا كان أكثر قسوة. جردوهم من كل شيء: الأحزمة، الأربطة، الأزرار المعدنية، حتى خيوط ملابسهم. ثم طلبوا منهم التعري. نعم، التعري الكامل في قاعة مفتوحة، نساء ورجال جنود ينظرون إليهم كأنهم سلع في سوق مواشٍ.

أماكن الجسم التي لا يعرفها إلا الحبيب، أصبحت مكاناً للتفتيش العلني. كان الإذلال هو الهدف الأول، قبل أي تحقيق، قبل أي سؤال. أذلهم حتى يكسروا روحهم، ثم يسألونهم ما يشاؤون.

بعد التفتيش، جاء دور "الفرز". قسم السجناء إلى مجموعات. كل مجموعة حسب "التصنيف". كان نائل يراقب، كعادته، يحلل، يفكر. رأى كيف يفرقون بين "إرهابيين" و"اشتباه" و"طوارئ" و"سياسيين". هو أين سيكون؟

كان الضابط المسؤول عن الفرز رجلاً في الأربعينيات، نحيفاً، عينان زرقاوان تخفيان شراً كبيراً. كان يحمل أوراقهم ويقرؤها، ثم يشير بيده لأحد الحراس ليوجه السجين إلى مهجع معين. كل إشارة، كانت كحكم بالإعدام أو تأجيله.

جاء دور نائل. نظر الضابط إلى الورقة التي بحوزته، ثم إلى وجه نائل، ثم إلى الورقة مرة أخرى. تلا ما كتب: "نائل السويدي... دارس علوم سياسية... مطلوب من فرع خارج حماه"...

توقف. كان هناك صمت دراماتيكي، كمن يريد أن يعلن شيئاً مهماً.

"هاد دارس علوم سياسية..." قال الضابط بصوت جهوري، كأنه يخبر العالم كله. "خدوه على المهجع رقم واحد".

ثم أضاف، وكأنه يتمتم لنفسه، لكن صوته كان مسموعاً للجميع: "يمكن إذا طلع، يصير سفير أو شي".

ضحكة خافتة من بعض الحراس. لكن نائل لم يضحك. لقد فهم الرسالة: أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون به، لكنهم في الوقت نفسه لا يريدون الإفراج عنه. سيحتجزونه حيث "المثقفون"، حيث أصحاب الكليات، حيث من يشكلون "خطراً فكرياً" على النظام.

تعلم نائل في درس اليوم الأول في أمن الدولة: أن تكون مثقفاً في بلد لا يحب المثقفين هو أن تكون جثة تمشي على قدمين.

الفصل الثالث: المهجع رقم واحد

الممرات كانت طويلة، مطلية باللون الأخضر الغامق، ذلك اللون الذي اعتاد السوريون رؤيته في كل مؤسسة حكومية، لكنه هنا كان أكثر قتامة، كأنه يمتص الضوء بدلاً من أن يعكسه. كل خطوة كان يخطوها نائل كانت تتردد في الممر كأنها خطوات مئة شخص، والهواء كان أثقل من رئتيه.

الحراس كانوا يمشون بجانبه، مسدساتهم في أيديهم، وعيونهم تتحرك بين الحين والآخر كأنهم يتوقعون أن ينفجر فجأة أو يتحول إلى شبح يختفي بين الجدران.

وصلوا إلى باب حديدي ضخم، فتحه أحد الحراس بمفتاح كبير، وصدر منه صرير كأنه يئن من التعب. دفعوه إلى الداخل، وكان أول ما لاحظه نائل أن المكان ليس زنزانة عادية. كانت قاعة كبيرة جداً، تحت الأرض، تسع ربما لألف شخص أو أكثر. السقف عالٍ، وعليه أنابيب صرف صحي ونوافذ صغيرة جداً قرب السقف لا تدخل إلا قليلاً من ضوء النهار.

هذا هو المهجع رقم واحد.

لكن المفاجأة لم تكن في حجم المكان. المفاجأة كانت في طريقة الجلوس. لم ير نائل فوضى أو عشوائية. رأى ترتيباً غريباً. كل سجين كان جالساً على بلاطة أرضية واحدة، بلاطة سيراميك بيضاء متسخة. كل شخص له بلاطته الخاصة التي لا يتعداها. على تلك البلاطة، يجلس السجين طوال يومه، يأكل، يشرب، ينام، يبول، يتغوط. لا يبرحها إلا عندما ينادي

الحراس عليه، أو عندما يأتي وقت "الجولة" التي تدوم خمس دقائق في الساحة الضيقة فوق سطح المبنى.

نظر نائل حوله: كان المكان نصف ممتلئ. مئات السجناء، كل واحد منهم جالس على بلاطته، وكأنهم قطع شطرنج موزعة على رقعة ضخمة. بعضهم كان نائماً، بعضهم يقرأون كتباً ممزقة، بعضهم يتمتمون لأنفسهم، وآخرون فقط يحدقون في السقف، عيونهم زجاجية بلا روح.

"هاي بلاطتك." قال الحارس، مشيراً إلى بلاطة في الزاوية، بجانب رجل في الخمسينيات، لحيته طويلة وشعره كثيف كشعر المجانين.

جلس نائل على بلاطته، شعر بالبرد القارس يأتي من الأرض، حتى من خلال ملابسه. كانت القاعة شديدة البرودة، لأنها تحت الأرض، لأن التدفئة كانت معدومة، لأنهم كانوا يريدون أن يتجمد السجناء حتى الموت ببطء، أو على الأقل ليجعلوهم يعانون حتى قبل أن يبدأوا في تعذيبهم.

نظر إلى الرجل بجانبه. الرجل كان يقرأ كتاباً قديماً، الغلاف ممزق، ولا يمكن تمييز عنوانه. لاحظ نائل أن الرجل كان جالساً بطريقة مهذبة، ظهره مستقيم، ورجلاه متقاطعتان، كأستاذ في جامعته.

"عفواً..." همس نائل.

الرجل لم يرفع رأسه من الكتاب.

"عفواً... كم صار لك هون؟"

رفع الرجل رأسه ببطء، نظر إلى نائل بعينين غائرتين، داكنتين، عينين رأتا الكثير. صوته كان خافتاً، كأنه لم يتكلم منذ شهور: "سبع شهور... قيمة سبع شهور".

نائل شعر كأن صاعقة ضربت قلبه. سبع شهور؟ على بلاطة واحدة؟ كيف؟ كيف يمكن لإنسان أن يتحمل سبع شهور من الجلوس على الأرض الباردة، يأكل الخبز الجاف والماء الفاتر، وينتظر الموت كل يوم؟

"سبع شهور... وأنت؟" استمر نائل، على الرغم من أن صوته أصبح شبه معدوم.

"سبع شهور وشوية." قال الرجل، ثم عاد إلى قراءة كتابه كأنه لم يتحدث أبداً.

نظر نائل إلى البلاطة الأخرى بجانبه، حيث كان شاب في العشرينات، رأسه محلوق، وجسمه ضامر كأنه لم يأكل شيئاً منذ أسابيع.

"وأنت؟" سأل نائل.

"سنة وشهرين." قال الشاب، وكأنه يتحدث عن الطقس.

سنة وشهرين. هو في عمر رامي، أخوه الصغير.

كان نائل يظن أن العذاب الأكبر هو التعذيب الجسدي، الضرب، الصعق الكهربائي، التعليق من الأيدي. لكنه الآن فهم أن نوعاً آخر من العذاب موجود، أشد فتكاً: الملل، الانتظار، فقدان الأمل، الجلوس على بلاطة واحدة لأشهر وسنوات، تعرف فيها كل خطوة في الخرسانة، كل شق في الجدار، كل قطرة ماء تتساقط من أنبوب الصرف الصحي.

ثم سأل الرجل الآخر، الذي بدا أكبر من الخمسين: "وأنت، كم صار لك؟"

الرجل كان نائماً على بطنه، وجهه نحو البلاطة. رفع رأسه بصعوبة، وكأن كل عضلة في رقبته تؤلمه.

"أنا... أنا أول مرة أجي هون... بس سمعت... سمعت إنه في ناس قضوا سنتين... ثلاث"...

لم يقل "سنوات"، قال "سني... ثلاث..." وكأن الكلمة عالقة في حلقه.

جلس نائل في صمت، يحاول استيعاب ما يحدث. حوله مئات الرجال، وكل واحد منهم قصة، كل واحد منهم مثل نائل، أو ربما أسوأ.

لكنه لم يكن يعلم بعد أن هذه كانت فقط البداية، وأن المهجع رقم واحد، مهجع المثقفين، سيصبح عنوان أطول وأصعب أيام حياته.

الفصل الرابع: همس تحت الأرض

تعلم نائل في الأيام الأولى أن الحياة في المهجع لها إيقاع خاص. إيقاع بطيء جداً، كنبضات قلب إنسان على وشك الموت. كل يوم يشبه الآخر لدرجة الجنون.

في الساعة الخامسة صباحاً، يفتح الحراس الباب الحديدي الكبير ويصرخون: "قيام، قيام... جهزوا حالكم للجولة." فيبدأ السجناء بالتحرك كالروبوتات، يطوون حصائرهم البلاستيكية (إن كان لهم حصائر، أغلبهم لم يكن لديه)، يرتبون ملابسهم، يقفون في صفوف منتظمة. ثم يخرجون إلى الساحة العلوية، فناء صغير مكشوف، تكون السماء فيه كقطعة قماش زرقاء بعيدة، لا تمسها أيديهم أبداً.

الجولة تدوم خمس عشرة دقيقة. ليس أكثر. فيها يمشون كالدجاج في حظيرة، حذرين من الاقتراب من الجدران العالية التي تحمل أسلاكاً شائكة، حذرين من النظر طويلاً إلى الحراس على الأبراج. بعدها، يعودون إلى المهجع، ويبدأ اليوم الطويل. يوم كامل على البلاطة.

الطعام كان مرتين في اليوم: قطعة خبز أسود، غبارها يخلط بالرمل، ووعاء من حساء العدس (إن أطلق عليه حساء) يحتوي حبات قليلة من العدس الغارق في ماء دافئ. بعض السجناء كانوا يموتون جوعاً، وكأن النظام كان يريد أن يوفر عليهم عناء الإعدام، بتركهم يموتون بطيئاً.

الماء كان هناك، لكنه كان بارداً جداً، وكثيراً ما كان يسبب التهابات في الأمعاء. كانت المرحاض عبارة عن حفرة في أرضية المهجع، خلف حاجز أسمنتي قصير، تفتقر إلى أي مقومات النظافة. الرائحة كانت كريهة، لكن السجناء تعودوا عليها، كما يتعود الناس كل شيء إذا أُجبروا.

لكن أكثر ما كان يؤلم نائل ليس الجوع ولا الرائحة، بل الصمت والصخب معاً. كانت أصوات الاستنشاق والبكاء الخافت والأنين المستمر تملأ المهجع، لكنها كانت تحت

صوت السكون العظيم. لا أحد يتكلم بصوت عالٍ. أقرب شيء إلى النقاش هو همس في أذن الجار، مع النظر باستمرار إلى الحراس الموجودين في الزوايا.

في اليوم الرابع، استجمع نائل شجاعته وهمس للرجل بجانبه، الدكتور "رياض" كما عرفه لاحقاً. كان رياض طبيب قلب، اعتقل قبل سبعة شهور لأنه تبرع بالدم لجريح من المعارضة.

"دكتور رياض... شلون تعيش هون سبع شهور؟"

نظر رياض إلى نائل كمن يرى طفلاً يسأل سؤالاً ساذجاً.

"تعيش؟ مين قال إننا عايشين؟ احنا موتنا متأخر... هاد الفرق".

كان نائل يريد أن يسأل أكثر، لكنه تردد. في هذه الأماكن، كثير من الأسئلة كانت جريمة. لكن رياض بدا متفهماً، ورأى في عيون نائل الخوف الذي يعرفه جيداً.

"اسمعني، يا ولدي. هون قاعدين أنواع. في ناس بدهم يقتلونا عشان يخلوا حساب، في ناس بدهم يستخرجونا معلومات، وفي ناس... بس بدهم يخلونا نتعذب. احنا، حنا في المهجع رقم واحد... هاد اسمه مهجع المثقفين".

نسيت أن أقول شيئاً. كل واحد في هذا المهجع كان يحمل شهادة جامعية. دكاترة. مهندسين. محامين. أساتذة جامعيين. مثقفين. نظام الأسد كان يعتبرهم خطراً، لأنه يعتقد أن الثقافة خطيرة، وأن من يعرف كيف يفكر قد يزرع فكرة خاطئة في رأس واعٍ.

"كل يوم..." تابع رياض، وصوته أصبح أخفض من الهمس، يكاد لا يسمع، "... بيجو الحراس، بيصيحوا باسمين، بطلعوا... وما برجعوا".

نائل شعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري.

"ما برجعوا... ليه؟"

نظر إليه رياض بعينين جافتين، كمن يتحدث عن شيء لا يريد أن يتذكره.

"تسأل؟ ليش بتسأل؟ شو بدهم يعملوا بيهم؟ بيخلصوا عليهم. يا بيضربوهم حتى الموت، يا بيعلقوهم فأماكن يموتوا بالبرد، يا بيصعقوهم بالكهربا لحتى تسكر قلوبهم. وكله علينا؟ بألف حساب ورد".

صمت نائل لبرهة. كان يحاول أن يفهم المنطق. لماذا يقتلون الناس دون محاكمة؟ لماذا كل هذه القسوة؟

لكنه عرف أن الحكمة في زمن الحرب لا تعطى دروساً. إنها تمطرك بالقذائف، وتتركك تجمع أشلاءك.

"أنا..." قال نائل بصوت مختنق، "أنا دارس علوم سياسية. لهيك حطوني هون"...

نظر إليه رياض للحظة، ثم ابتسم ابتسامة مريرة.

"علوم سياسية؟ شاطر... هدي يا ولدي. أنا طبقت هون سنين، وكل يوم بقراء بالكتاب هاد"...

رفع الكتاب القديم الذي كان يقرأه.

..."لأعرف ليش الدنيا هيك".

نظر نائل إلى غلاف الكتاب: "مقدمة ابن خلدون". الكتاب القديم الذي يتحدث عن سقوط الحضارات وعن العصبية وعن كيف تنهار الدول عندما تغتر بسلطانها.

فجأة، وبينما كان نائل غارقاً في أفكاره، صاح أحد الحراس بصوت جهوري:

"رامز عباس... محمود الحريري... اطلعوا برا"!

خفق قلب نائل. رامز كان شاباً جلس إلى جانبهم، عمره لا يتعدى الثلاثين. كان أستاذ رياضيات في جامعة حلب. قبل أيام فقط، كان يضحك مع نائل على المقلب الذي لعبه الحراس مع سجين ثالث. الآن، كان الحراس يصيحون باسمه.

نهض رامز، ورأسه منحني، وخرج وسط زملائه. نظر إلى نائل قبل أن يغادر، ونظرته كانت تقول كل شيء. لم يقل كلمة واحدة. فقط نظر. نظرة لا تحتاج إلى ترجمة.

خرج رامز وزميله، وانغلق الباب الحديدي من جديد. وساد الصمت مرة أخرى.

لم يعد رامز أبداً.

الفصل الخامس: ليلة الأرق وولادة الفكرة

في الليلة التالية، لم يذق نائل طعم النوم. كان مستلقياً على بلاطته الباردة، عيناه مفتوحتان على السقف، حيث أنابيب الصرف الصحي كانت تتقطر ببطء، كل قطرة وكأنها تقول له: "عد الثواني... تمضي حياتك قطرة قطرة... ونحن هنا ننتظر".

كان يفكر في رامز. أستاذ الرياضيات الشاب. كان يتذكر كيف كان يقرأ المعادلات في الهواء، بأصابعه، لأنه لم يكن يملك ورقة ولا قلماً. كان يرسم دوائر في الفراغ، ويقول: "الزاوية المستقيمة ١٨٠ درجة... تمام متل خط سير حياتنا. كل ما تمشي، بترجع عن نفس النقطة".

كم كان صادقاً. كلما مشوا في هذه الدائرة، عادوا إلى النقطة ذاتها: الموت، الانتظار، الألم، لا شيء جديد.

نائل بدأ يفكر في نفسه. ماذا سيفعل؟ كيف سينجو؟ كل يوم يساق اثنان أو ثلاثة من السجناء، ويختفون إلى الأبد. هل سيكون هو التالي؟ ربما غداً ينادون باسمه، فيخرج، ويضربونه حتى يموت، ثم يرمونه في مقبرة جماعية في مكان ما.

فكر في والدته، كيف ستنظر لو علمت؟ فكر في رامي، أخيه الصغير، الذي كان يحلم بأن يصبح طياراً. فكر في والده المريض، الذي قال له قبل أن يغادر: "خليك عحذر، نائل. أيامك الحمرا جاييتك".

ثم... ثم فكر في الجامعة. في دراسة العلوم السياسية.

نعم، لقد كانت دراسة العلوم السياسية هي سبب وجوده هنا. نظام الأسد لا يحب السياسيين، ولا يحب من يفكر في الأنظمة البديلة. دراسة العلوم السياسية كانت تعني، في قاموسهم، أنك تملك ميولاً انقلابية. لكن هل كانت الدراسة مجرد سبب؟ أم أنها يمكن أن تكون حلاً؟

تذكر نائل محاضرته الأولى في الجامعة اللبنانية، حيث أكمل دراسته لأنه طرد من سوريا بعد أن رفع صوره مع أساتذة انتقدوا النظام. كان الدكتور "فريد الخطيب"، أستاذ النظم السياسية، يقول:

"في أي نظام استبدادي، هناك هرمية للسلطة. الطريق إلى القمة ليس معبداً بالورود، بل بالأرواح. لكن إذا فهمت كيف تتحرك القمة، تستطيع أن تحمي نفسك بالتقرب من مركز القرار".

كان نائل يظن حينها أن الدكتور يتحدث عن مبادئ نظرية لا تطبق. الآن، كان جالساً في مهجع المثقفين، وعقله كان يعمل كجهاز حاسوب: يحلل، يستشف، يبحث عن ثغرة.

أعضاء القيادة في النظام... مين يتبع لمين؟

أمن الدولة... هذا الفرع... من يديره؟ هل يتبع لوزارة الداخلية أم لرئاسة الجمهورية؟ هل الضباط هنا قريبون من القصر أم أنهم مجرد عجلات في آلة؟

إذا كان ضابط فرع أمن الدولة يعتقد أنك تملك علاقة مع "البيت"، أي القصر الجمهوري، فهل سيعاملك كضيف أم كسجين؟

الفكرة كانت مجنونة. لكنه كان مجنوناً أيضاً. من يجلس في زنزانة وينتظر الموت يومياً ليس عاقلاً تماماً.

تذكر شيئاً آخر قاله له صديق قديم، ضابط سابق في الجيش السوري هرب إلى تركيا قبل سنوات: "نظام الأسد مبني على الثقة الشخصية أكثر من القانون. إذا ضابط كبير اعتقد إنك قريب من القصر، ما بيكتشف كذبك إلا إذا بحث كثير. وإذا بحث كثير... بتكون شربت الماي من العين".

تلك كانت الفكرة. بذرتها. سينميها نائل، يرويها بالجرأة، حتى تصبح شجرة تظله من الموت.

فجأة، وبينما كان غارقاً في تفكيره، شعر بلمسة خفيفة على كتفه. التفت إلى اليمين، فرأى الدكتور رياض جالساً، وكانت الساعة قاربت الفجر.

"ما نمت، يا ولدي؟" همس رياض.

"كيف تنام؟ كل يوم بنسمع أصوات صراخ من فوق... من غرف التحقيق"...

"بتنام لما تتعود. بس أنت... شكلك عم تفكر بشي... عيونك عم تشع".

تمتم نائل: "بدي أعمل شي... بدي أطلع من هون... مش من الباب، من العقل".

ابتسم رياض ابتسامة فيها خليط من الشك والأمل. كان يعرف أن الأمل في هذا المكان هو أول ضحايا الحرب.

"الله معك، يا ولدي... بس لا تموت على حلم. عيش عشان الناس اللي برا".

عاد نائل إلى تأمل أفكاره. كان يعرف أن الصباح سيأتي، وأن الحراس سيدخلون في الصباح الباكر ليأخذوا ضحاياهم الجدد. السؤال هو: هل سيكونون هم الضحايا، أم سيكون هو الصياد؟

في الثانية صباحاً، كان القرار قد اتخذ في داخله. كان سيلعب اللعبة. لعبة السياسة التي درسها. لعبة التظاهر، التمثيل، الكذب المقدس. لعبته، أو سيموت.

الفصل السادس: صباح الجاكيت الكحلي

في اليوم التالي، كان نائل قد استعد نفسياً. ارتدى جاكيته الكحلي الجميل، ذلك الذي أحضره معه من المنزل قبل الاعتقال، والذي ظل طوال الأيام السابقة مطوياً تحت رأسه كوسادة. طلاه جيداً، مسح عنه الغبار، وربت على ياقته كمن يربت على صديق قديم. الجاكيت كان جميلاً حقاً. قطعة صنعت في تركيا قبل سنوات، لم يلبسه إلا في المناسبات المهمة. كان يمثل في مخيلته جزءاً من شخصيته الأنيقة، ذلك الجزء الذي كان يريد أن يظهر به أمام الناس كشخص ناجح، مثقف، محترم. والآن، كان الجاكيت سيمثل جزءاً من خطة البقاء.

في العاشرة صباحاً، وبينما كانت الشمس تحاول أن تخترق النوافذ الضيقة قرب السقف، فُتح باب المهجع الحديدي بصوت عالٍ. دخل ثلاثة رجال: ضابط برتبة عقيد، وحارسان.

العقيد كان رجلاً في الخمسينيات، نحيفاً، وجهه يشبه وجه طائر جارح، وعيناه صغيرتان لكنهما حادتان كالمشرط. كان يحمل ملفاً في يده، ويلوح به كمن يلوح بسيف.

"نائل السويدي... تحقيق".

هذه هي اللحظة. لقد حان وقت الامتحان.

نهض نائل ببطء، محاولاً أن يبدو كمن ينهض من كرسي ملكي لا من بلاطة أرضية باردة. وقف مستقيماً، ظهره مشدود، ذقنه مرفوعاً قليلاً. خطا خطواته نحو الباب، وكأنه يحسبها بدقة، لا كمن يساق إلى حتفه.

لاحظ الحارس الذي كان بجانب الباب جاكيته. نظر الحارس إلى الجاكيت، ثم إلى بقية السجناء الذين كانوا يرتدون ملابس بالية ممزقة. لقد كان الجاكيت متألقاً على نحو لافت، يثير الانتباه ويثير التساؤلات.

"جاكيتك حلو..." تمتم الحارس بصوت خافت، وكأنه يحدث نفسه.

نظر نائل إلى الحارس مباشرة في عينيه. كان قلبه يخفق كمجنون، لكن صوته كان هادئاً كمن يتحدث في اجتماع مهم.

"هاد؟" قال نائل، ملمساً ياقة الجاكيت كمن يعرض تحفة فنية. "هاد هدية من عند السيدة أسماء الأسد... أكيد ذوقها حلو".

صمت الحارس للحظة. الكلمات كانت كالصاعقة. أسماء الأسد؟ السيدة الأولى؟ زوجة بشار الأسد؟ كيف يمكن لسجين بسيط أن يكون على علاقة بالسيدة الأولى؟

"شو قلت؟" سأل الحارس، وصوته أصبح مبحوحاً من الدهشة.

"قلت: هدية من السيدة أسماء الأسد... وشكله ذوقها حلو... أكيد يعني".

الحارس نظر حوله كمن يبحث عن مساعدة. ثم قال:

"وإنت بتعرف أسماء الأسد؟"

نائل لم يتردد. ارتسمت على وجهه ابتسامة دبلوماسية واسعة، كمن يتحدث عن صديق قديم.

"ليش إنت ما بتعرف مين أنا؟"

"مين إنت؟"

كان نائل ينتظر هذا السؤال. تنفس بعمق، وبدأ يلقي "خطابه الرئاسي:"

"أنا نائل السويدي... أنا طلعت الأول على الجمهورية العربية السورية في قسم Human Resources Management...اللي هي دراستي، اللي أنا مبدع فيها، واللي السيدة أسماء بتحبها كتير... أنا كل شهر عندي لقاء مع السيدة... بنتناقش بمواضيع البلد المستقبلية... حول دمج الشباب بالمجتمع، بالوضع الراهن... شو بدك كمان؟ أنا اللي برسم السياسات، وهي بتناقشها مع الرئيس... وأنا اللي بقترح، والقصر بيعتمد".

كان الكلام يخرج منه كالسيل. لم يكن يتكلم فقط، بل كان يمثل. كان يخلق شخصية جديدة لنفسه. كان يصبح ما يسمى "المستشار الشاب المقرب من القصر". كل جملة كان يضيفها كانت تعزز مصداقيته في عين الحارس الساذج.

الحارس، وهو مجرد جندي بسيط لا يعرف التفاصيل المعقدة للسياسة، شعر فجأة أنه أمام شخص مهم جداً. شخص يمكنه أن يغير حياته إن أساء معاملته. شخص يمكنه أن يبلغ عنه للقصر، فيختفي هو الآخر من الوجود.

"تفضل معي... الأستاذ نائل." قال الحارس، وكأنه يتحدث إلى ملك.

أخذه إلى غرفة التحقيق الكبيرة. هناك، كان العقيد الجارح جالساً خلف مكتبه، يدخن سيجارة ويقلب في ملف نائل. رفع رأسه عندما دخلا، ونظر إلى نائل بتحدٍ.

"اقعد".

جلس نائل على الكرسي. كانت المرة الأولى التي يجلس فيها على كرسي حقيقي منذ أيام. شعر بالخشب الدافئ تحت جسده، وكأنه راحة سماوية. لكنه لم يُظهر ذلك. ظهره كان مشدوداً، وعيناه تحدقان في العقيد بثبات.

"أهلاً وسهلاً فيك... الأستاذ نائل." قال العقيد، وكان صوته يسخر منه قليلاً. "المرتين الماضيات حكينا بمواضيع جميلة... بس هلا الموضوع سخن ونار، إن شاء الله. وبدي أبلش بسؤال قوي... تفضل".

نظر العقيد إلى الملف مرة أخرى، ثم إلى نائل.

"دارس علوم سياسية... وكشخص سوري دارس علوم سياسية، قولا واحداً: بعثي. بالنسبة لنا كسوريين، لما نقول سياسة، معناها أي واحد محسوب على النظام، محسوب على حزب البعث".

ابتسم نائل من الداخل. العقيد كان يتحدث وكأنه يلقي خطاباً في مؤتمر حزبي. لكن نائل كان يعرف ما يريده العقيد حقاً: أن يبين نائل ولاءه للنظام، أو أن يعترف بأنه جزء من المعارضة.

"خليني أسألك..." تابع العقيد، "شو كانت الفائدة من دراسة العلوم السياسية؟ شو فادتك بطوال سنوات الثورة أو بعد سقوط النظام؟ أو شو... فادتك بحياتك؟"

وهنا، بدأ نائل الجولة الثانية من اللعبة. لم يعد يتحدث عن الجاكيت، بل بدأ يتحدث بجدية أكاديمية، كأستاذ جامعي يلقي محاضرة.

"هلا بداية... موضوع دراسة العلوم السياسية، هي موضوع أكاديمي مثلها مثل أي مادة ثانية: حقوق، رياضيات، طب، هندسة. هي كلية، مثل باقي الكليات. ولكن التسمية تبعها شوي بتعمل بلبلة عند الجمهور... علوم سياسية، كأنها ضرب من المستحيل".

توقف نائل ليراقب رد فعل العقيد. العقيد كان يحني رأسه قليلاً، كمن يستمع إلى شيء جديد عليه.

"دراسة العلوم السياسية لا تحتاج إلى علامات عالية بالبكالوريا، ولكن تحتاج إلى أبعد من ذلك. لازم يكون عندك هندام، لازم يكون عندك طريقة للحضور، طريقة للكلام. لأنك بتمثل البلد بالمستقبل... كسفير أو حدا بالسلك الدبلوماسي".

"للأسف، ما درست بسوريا. أول سنتين درست بلبنان... بسبب التقرير السياسي".

العقيد رفع حاجبيه. "تقرير سياسي؟ شو قصدك؟"

"يعني... حكولي إني مطلوب. بدون أسباب. دراستي للعلوم السياسية كانت شبهة كافية. فطلعت برا البلد، ورحت لبنان أكمل".

كان نائل يلمح هنا، دون أن يقولها صراحة، أن النظام هو من اضطره إلى مغادرة سوريا. لكنه كان أيضاً يلمح بأنه لم يحارب النظام أبداً، بل هرب منه فقط. رسالة مزدوجة: "أنا ضحية النظام" و"أنا لم أعتدي عليه". الذكاء السياسي في أن تقول ولا تقول.

"طيب..." قطع العقيد عليه، "شو أثرت هالدراسة معك سلباً ولا إيجاباً بعد سقوط النظام؟ يعني... إذا سقط النظام، أنا مش قاعد بقول أنه رح يسقط، بس... سيناريو افتراضي... وين كنت رح تكون؟"

ابتسم نائل ابتسامة هادئة. "السياسة ليست لحزب البعث فقط. هي كليات، أكاديميات، دراسات. لو سقط النظام... أنا برضو بقى دارس علوم سياسية. معرفتي، شهادتي، دراستي... ما حدا بقدر ياخدها مني".

كان العقيد يحرك رأسه، وكأنه يفكر. ثم جاءت الضربة.

"طيب... احكيلي قصة وحدة، الفائدة اللي جنيتها من دراسة العلوم السياسية. قصة حقيقية".

تنفس نائل بعمق. هنا بدأ الجزء الأهم. هنا سيخلق حبكة درامية، قصة يعرف أنها ستلامس قلب العقيد، وتثبت له أن دراسة العلوم السياسية مفيدة حتى لرجال الأمن أنفسهم.

"هلا شوف... كفائدة... بدي أحكي قصة سريعة".

وتابع: "أنا دراسة العلوم السياسية، بمرحلة ما... أنقذت حياتي".

صمت العقيد. ساد الهدوء الغرفة.

"وذلك..." قال نائل، "لأنها علمتني كيف أفكر، كيف أحلل، كيف أقرأ بين السطور. علمتني أنه حتى في أسوأ الظروف، في أحلك السجون، العقل هو السلاح الوحيد اللي ما حدا بقدر يصادره".

كان يتحدث عن نفسه دون أن يقولها مباشرة. كان يتحدث عن المحققين والحواجز، عن أمن الدولة والمهجع رقم واحد، عن كيف أن المنطق السياسي يمكن أن يبني جسراً حيث لا توجد جسور.

ولكن، بدلاً من أن يكمل في التعقيد، قرر نائل أن يختصر ويضرب مثالاً غير مباشر.

"أنا مرة كنت نازل من مدينتي على حماه... وقفوني على حاجز... وبعدين نقلوني من فرع لفرع... وما أطول عليك... المهم، علمتني الدراسة أني لما أوصل لمرحلة ما، ما يبقى عندي شي أخسره. وإذا ما عندك شي تخسره... خلاص صرت حر. حر إنك تتكلم، حر إنك تخترع، حر إنك تتصرف بجرأة".

العقيد كان ينظر إليه بعيون ضيقة. "يعني... قصدك إنك استعملت اللي درسته عشان تتفادى الموت؟"

"موضوع مش تفادي... موضوع لعبة. مثل الشطرنج. الأبيض يهاجم، الأسود يدافع. بس أحياناً، الأسود لازم يهاجم عشان يفوز".

فجأة، صاح العقيد بصوت عالٍ:

"وإنت مين؟ يعني إنت مطلوب من الفرع، وأنا هلق جاي أتعامل معك كأنك ضيف؟"

هنا، كان نائل يعلم أن المفترق قد وصل. لم يعد لديه وقت للاستدارة.

وقف من الكرسي. ببطء، دون أن يطلب منه العقيد الوقوف. خطا خطوتين نحو المكتب، وجعل يديه على ظهر الكرسي، وانحنى قليلاً نحو العقيد.

"سيدي العقيد... أنا ما بدي أزعجك. بس إذا حضرتك عندك وقت، أنا ممكن أشرحلك الموضوع من أوله لآخره... الموضوع كله سوء تفاهم. وبتفاهم حضرتك مع السيد مدير الإدارة، أكيد كل شي بينحل".

نظر إليه العقيد ملياً. ثم أشار بيده إلى الحارس.

"خذه عند المدير".

نائل شعر بقلبه يكاد يقفز من صدره. المدير؟ مدير الفرع؟ كل شيء يسير حسب الخطة.

خرج من غرفة التحقيق ورأسه مرفوعة، وكأنه يخطو على سجادة حمراء وليس على أرضية خرسانية.

في داخله، كان يخشى أن يكون قد بالغ في الأمور، وأن المدير سيكتشف كل شيء في ثوان. لكن الجسر كان قد عبر نصفه، ولم يعد هناك مجال للتراجع.

الفصل السابع: لقاء مع مدير الفرع

كان مكتب المدير مختلفاً تماماً عن غرف التحقيق. فيه سجادة فاخرة، وستائر مخملية، وطاولة خشبية كبيرة، وأريكة جلدية سوداء. كانت الصورة المعلقة خلف الكرسي هي لبشار الأسد، مبتسماً، ويداه متشابكتان، كمن يقول: "كل شيء تحت السيطرة."

المدير كان رجلاً في الأربعينيات، شعر أسود ممشط بعناية، عينان بنيتان دافئتان نسبياً، وابتسامة ترحيبية زائفة. كان يرتدي بدلة عسكرية أنيقة، وأزرارها ذهبية اللون.

دخل نائل، وقف منتصباً، لكنه لم ينتظر الإذن ليجلس. جلس على الكرسي المقابل للمكتب، ووضع ذراعيه على مسندي الكرسي كمن يجلس في صالون منزله.

المدير ابتسم ابتسامة عريضة غير متوقعة.

"أهلاً وسهلاً، أستاذ نائل. أنا آسف على الإزعاج... هالحراس ساعات يتخربطوا بالأسماء".

ضرب نائل كفاً بكف داخلياً. لقد عملت الخطة. الحارس صدق، ومن ثم الضابط، والآن المدير نفسه يتحدث معه وكأنه صديق قديم.

"حضرتك..." تابع المدير، "حكولي إنك دارس علوم سياسية... وناجح كمان... الأول على سوريا؟"

"الحمد لله، نعم. بس نحن ما بنفاخر، هادي نعمة من الله".

"تمام، تمام... طيب إلك علاقة بالقصر؟"

وهنا كان السؤال الحاسم. لو تراجع نائل الآن، لو أنكر، فسيعتبرون أنه كذب، وسيكون مصيره أسوأ من أي سجين آخر. لكن لو أكد، فربما فتح على نفسه باباً من الخطر لا يمكن إغلاقه.

"علاقة حضرتك..." قال نائل، محاولاً أن يبدو متواضعاً، "موضوع بسيط... أنا عندي لقاء شهري مع السيدة أسماء. بنتناقش بمواضيع الشباب والثقافة ودمج الشباب... البلد بدها أفكار جديدة، وحضرتك عارف، السيدة أسماء عندها اهتمام كبير بهيك مواضيع".

المدير أومأ برأسه كمن يفهم. "طيب... يعني حضرتك مقرب منهم؟"

"أنا مش حابب أصف حالي بالمقرب... أنا مستشار متعاون. بس إذا بدنا نحكي بواقعية... السيدة أسماء شخصياً طلبت مني إني أدير ملف الشباب في حماه. بس الظروف... تعرف، الحرب، التقرير... لسا ما بلشنا".

كان نائل يخلق من لا شيء إمبراطورية علاقات. كل كلمة كان يضيفها كانت تزيد من وزنه في عين المدير.

"طيب..." قال المدير، وهو ينهض من كرسيه ويذهب إلى النافذة. "أنا خليني صريح معك... إنت شكلك شخص مثقف، وأنا بحترم المثقفين. بس النظام عنده ترتيبات... إذا حضرتك فعلاً مقرب من القصر، بيننا وبينك ناسيها. وعسى ما يكون شر".

عاد إلى مكتبه، وأخرج ورقة من الدرج.

"أنا رح أكتب لعند السيد مدير الإدارة... ونشوف إذا في مخابئ... يعني، إذا طلع كلامك صحيح، فأنت طالع من هنا اليوم... وإذا طلع غلط"...

ابتسامة المدير اختفت للحظة، ثم عادت.

..."فأنت بتعرف. ما بدي أشرحلك".

نائل شعر بقشعريرة تسري في جسده. لكنه لم يُظهر خوفه.

"أكيد كلامي صحيح. أنا ما عندي مصلحة أكذب".

نهض نائل، وصافح المدير بقوة.

"لما بدي أطلع، بدي طلب بسيط... في ناس بالمهجع... أهاليهم خايفين عليهم. إذا ممكن أوصللهم خبر"...

المدير نظر إليه نظرة طويلة.

"خلص، أنا بشوف. نازلينك هلق للمهجع، ونمشيلك خبر".

خرج نائل من المكتب، وعاد إلى المهجع محملاً بأمل زائف. لكنه كان يعلم أن كل هذا كان الخطوة الأولى فقط.

في الداخل، عندما عاد إلى المهجع رقم واحد، هرول إليه السجناء، يسألونه عما جرى.

"شو صار معك؟ شو عملوا فيك؟"

نظر نائل إليهم، وابتسم ابتسامة المنتصر.

"والله ما صار شي... الجماعة محترمين، وبيحترموا المثقفين".

نظر إليه الدكتور رياض، الذي كان يعرف أن نائل يلعب لعبة خطيرة.

"بيحترموا المثقفين؟" سأل رياض ساخراً.

"إي والله... أنا قلتلهم إني مثقف... قالولي المثقفين على راسنا... شربنا شاي مع بعض... والأمور طيبة".

بعض السجناء صدقوه. بعضهم الآخر نظر إليه كمن يقول: "هذا إما بطل خارق أو أحمق كبير".

لكن نائل لم يهتم. كان قد شرع في تنفيذ الخطة. وكان يعلم أن الأيام القادمة ستكون فيها إما تحرره أو تدمره تماماً.

في تلك الليلة، نام ولأول مرة منذ أسبوعين مرتاح البال. ليس لأنه سينجو، بل لأنه فعل شيئاً. لأنه لم يستسلم. لأنه استخدم كل ما تعلمه ليلعب اللعبة الأصعب في حياته.

الفصل الثامن: أيام في الضباب

كان الأسبوع الثاني في المهجع رقم واحد أشبه بمقطع فيلم سينمائي أعيد عرضه مئات المرات، بلا نهاية، بلا تغيير، بلا أمل في ظهور كلمة "النهاية" على الشاشة. كل يوم كان يبدأ بنفس الطريقة: صوت صفارة الحراس في الخامسة صباحاً، همهمات السجناء وهم ينهضون من نومهم الثقيل، صوت الأقدام وهي تزحف على الأرض الخرسانية، رائحة الجوع التي تلتصق بالملابس والجلد والروح.

نائل كان قد بدأ يعتاد على الإيقاع، وهذا ما كان يخيفه أكثر من أي شيء آخر. التكيف مع الظلم هو أول خطوات الموت البطيء. حين يعتاد الإنسان على الألم، يصبح الألم جزءاً منه، وحين يصبح جزءاً منه، يفقد الرغبة في المقاومة. كان نائل يخشى أن يستسلم، أن يرضى بالبلاطة الباردة، بالخبز الأسود، بالماء الفاتر، بالعيون التي تحدق في الفراغ.

لكنه كان يتذكر كل صباح أنه ليس هنا ليعتاد، بل لينجو.

جلس على بلاطته، وبدأ يدلك قدميه اللتين كانتا تخدران من البرد كل ليلة. نظر حوله، فرأى المشهد نفسه: مئات الرجال، كل واحد منهم على بلاطته، كأنهم خلايا في سجن عملاق، كل خلية منعزلة عن الأخرى رغم قربها. كانوا يتحدثون أحياناً، لكن الهمس كان مسموحاً فقط عندما يبتعد الحراس. وفي هذا المهجع، كان الحراس قريبين دائماً.

الدكتور رياض، جاره الذي أصبح صديقه الوحيد في هذا الجحيم، كان جالساً على بلاطته كعادته، يقرأ كتاب "مقدمة ابن خلدون" للمرة الثالثة عشرة منذ دخوله. كان رياض قد حفظ فقرات كاملة منه عن ظهر قلب، وكان يرددها أحياناً همساً، كمن يقرأ ورداً دينياً.

في أحد الأيام، وبينما كان الحراس في استراحة الغداء، تحرك رياض نحو نائل قليلاً، وتكلم بصوت خافت لم يصل إلى مسافة ثلاثة أمتار.

"نائل... أنت أيامك مع المدير، شو صار بالزبط؟"

همس نائل: "والله يا دكتور، حاولت. قلتله إني مقرب من القصر، وأن السيدة أسماء"...

قطعه رياض: "وأنت شو عندك علاقة بالقصر؟ أنت مجرد طالب دارس علوم سياسية... أكيد ما بتعرف السيدة أسماء شخصياً".

نظر نائل إلى عيني رياض. كانت عينان حزينتان لكنهما كانتا أيضاً تعكسان ذكاءً حاداً. لم يكن رياض من السذاجة بحيث يصدق أي مسجون يدعي أنه قريب من السلطة. كان يعرف أن السجون السورية مليئة بالمدعين و"أولاد العم" و"الأصهار" وأشباه المقرَّبين.

"والله يا دكتور..." همس نائل، وقرر أن يشاركه جزءاً من حقيقته، لأن الكذب على شخص ذكي كان أصعب من الكذب على ضابط مخابرات. "... ما بعرف السيدة أسماء شخصياً. ولو بعرفها، ما كنت جالس هون".

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه رياض. "إذاً، بتكذب عليهم؟"

"أنا مو بكذب... أنا بحكي قصة بدهم يسمعوها. هم بدهم يصدقوا إنه في ناس مقربين من القصر، لأنه هيك حياتهم بتصير منطقية. إذا كل الناس صارت تكره النظام، مين رح يحمي الظالم؟"

لطم رياض فخذه بهدوء. "هذا عين العقل. النظام لا يستطيع أن يحكم بالحديد والنار وحده. يحتاج إلى شركاء، أو على الأقل إلى وهم وجود شركاء. أنت، يا نائل، أعطيتهم الوهم".

ضحك نائل ضحكة جافة كصدأ الحديد.

"ولما يكتشفوا الوهم؟"

"ساعتها يا ولدي..." همس رياض، "ساعتها تكون خبر كان".

ساد صمت ثقيل بينهما. كان نائل يعرف أن رياض لم يقل شيئاً جديداً، لكن سماعها بصوت واضح كان كقراءة حكم الإعدام بصوت مسموع بعد أن كان مكتوباً بخط صغير.

الفصل التاسع: قصص البلاطات

في المهجع رقم واحد، كان كل سجين يحمل قصة مؤلمة، كل بلاطة كانت تحكي معاناة. كانت الحكايات تروى في الليل، بصوت خافت جداً، وكأن السجناء كانوا يعترفون لقسيس في زنزانة اعتراف لا يغفر الخطايا بل يزيدها ثقلاً.

إلى يمين نائل، كان يجلس "مالك"، شاب في الثالثة والعشرين من عمره، طالب هندسة مدنية في جامعة حلب. اعتقل قبل تسعة شهور لأنه شارك في تظاهرة سلمية في حي صلاح الدين. كان مالك خجولاً، لا يتكلم إلا إذا سأله أحد، وعندما يتكلم كانت عيناه تدمعان دون سبب واضح.

ذات ليلة، كان المهجع يصمت بشكل أعمق من المعتاد، ويبدو أن الحراس كانوا في عطلة أو مشغولين بأعمال أخرى، فاقترب مالك من نائل وبدأ يهمس:

"أنت عم تحكي إنك بتعرف ناس بالقصر... أتأمل إنك تقدر توصل خبر لأهلي... أمي كانت تعبانة كتير قبل ما أعتقل، وخايف تكون"...

قاطعه نائل: "مالك، والله لو عندي قدرة ما بقصر. بس أنا كمان سجين، زيك، ما عندي هاتف، ما عندي واسطة. الكل عم يتوهم"...

نظر مالك إلى نائل بعيون اتسعت كأنها رأت شبحاً. "يعني أنت عم تمثل عليهم؟"

ابتسم نائل ابتسامة حزينة. "كلنا عم نمثل. الحكومة عم تمثل إنها شرعية، والمعارضة عم تمثل إنها بتقدر تسقط النظام، ونحن عم نمثل إننا ما يهمنا. كلها تمثيليات، مالك. بس تمثيليتي أنا حالياً أحسن من تمثيلية غيري، لأنه على الأقل بتخليني عايش".

لم يقل مالك شيئاً، لكنه انسحب بهدوء إلى بلاطته. كان متعباً من الكلام، متعباً من الأمل، متعباً من الانتظار.

أما يسار نائل، فكان يجلس "فادي"، أستاذ لغة عربية في الأربعينيات من عمره، معتقل منذ عامين لأنه كتب قصيدة يمدح فيها الحرية. كانت القصيدة منشورة في جريدة

إلكترونية معارضة، فجاءوا إليه في منزله في حماه في منتصف الليل، اقتادوه أمام زوجته وأولاده الخمسة، ومنذ ذلك الحين لم يره أحد.

فادي كان ذكياً، مثقفاً، لكنه كان مصاباً بنوع من السوداوية القاتلة. كان يقضي معظم وقته صامتاً، يرسم بحصاة صغيرة على البلاطة. كان يرسم أشكالاً هندسية، دوائر ومربعات، وأحياناً يكتب بيت شعر ثم يمسحه براحة يده.

في ليلة أخرى، بعد أن نام معظم السجناء، همس فادي لنائل:

"سمعتك عم تحكي مع دكتور رياض... سمعتك بتقول إنك بتلعب لعبة الكذب على الضباط. اسمح لي أنصحك، كأستاذ لغة عربية".

"تفضل".

"الكذب مثل النار. تستطيع أن تستخدمه لتدفئتك، لكنه سيحرقك إن اقتربت منه أكثر من اللازم. أعرف كم شخصاً كذبوا على السلطة، قالوا إنهم من أبناء العشيرة، من المقربين، من أصحاب الشأن. بعضهم خرجوا من السجون، لكنهم دفعوا الثمن لاحقاً حين انكشفت الحقيقة. والبعض الآخر لم يخرجوا أبداً، لأن الكذب زادهم قرباً من الموت".

شعر نائل بقشعريرة تسري في ظهره.

"يعني أنت تنصحني بأن"...

"أنصحك بأن تكون حذراً. الكذبة الصغيرة تتحول إلى كبيرة، ثم إلى أسطورة، ثم إلى حقيقة في عقلك أنت أولاً. فإذا صدقتها، هلكت. وإذا ارتكبتها، افتضحت. طريق صعب يا نائل".

"طيب، شو بدك تسوي؟ أنت عم ترسم عالبلاطة من سنتين، وبتنتظر إنهم يخلوك تموت أو يعتقوك. أتعتقد إنهم حيعتقوك؟"

صمت فادي. كانت عيناه تلمعان كأنما تبللت بماء غير موجود.

"لا، لن يعتقوني. أنا أعرف أن مصيري هو الموت هنا. لكن على الأقل أموت وأنا لم أخن نفسي. أموت وأنا لم أقل إنني أحب القاتل".

تنهد نائل. كان يريد أن يقول لفادي: "أنا لا أقول إني أحب القاتل، أنا فقط أقول إني أحب الحياة. هل هذا جريمة؟" لكنه سكت، لأنه عرف أن الجدل في مكان كهذا كان مضيعة للطاقة.

الفصل العاشر: ليلة الطبيب وحديث الموت

مرت الأيام. كان البعض يخرج إلى التحقيق ويعود محطماً، وآخرون لا يعودون أبداً. كل يوم كان نائل يعد الضحايا: اثنان يومياً، أحياناً ثلاثة، وأحياناً واحد فقط إذا كان الحراس في مزاج جيد.

في ليلة جمعة، كان الجو هادئاً بشكل غريب، والحراس وكأنهم اختفوا تماماً. السجناء اغتنموا الفرصة، وجلسوا في حلقات صغيرة يتبادلون الأحاديث الهمسية. نائل جلس مع الدكتور رياض، ومالك، وفادي، وطبيب اسمه "زياد" كان قد اعتقل قبل أربعة أشهر لأنه عالج جريحاً من المعارضة في عيادته الخاصة.

زياد كان رجلاً في الخمسينيات، ضخم الجسم، صوته عميق، وكان يتكلم بثقة تثير الإعجاب. رغم اعتقاله، كان يبدو أقوى من غيره. ربما لأنه كان يرى الموت كل يوم في عيادته، فلم يعد يخاف منه كثيراً.

"اسمعوا يا جماعة." همس زياد، وكانت الكلمة تخرج من فمه كأنها صدى في كهف. "أنا بدي احكيلكم شي. الموت هون، في هذا المكان، ليس أسوأ من الموت في السرير. أتعرفون لماذا؟"

صمت الجميع.

"لأن الموت في السرير يأتي ببطء، مع الأمراض، مع الإحباط، مع مراقبة أهلك لك وهم يتمنون موتك لتريحهم. أما الموت هنا، فهو سريع، أغلبه صاعق كهربائي أو رصاصة في الرأس. أنت هنا حتى تموت، وهذا هو اليقين الوحيد. تقبلوه تعيشوا بأقل ألم".

كان مالك يبكي بصمت. كان وجهه مغموراً بالدموع، ولا يمسحها خوفاً من أن يسمع الحراس حركة يديه.

فادي كان يرسم دائرة أخرى على البلاطة. كان يرسم دوائر متداخلة، كأنه يحاول أن يرسم خريطة للعذاب.

دكتور رياض كان يغلق عينيه، كأنه يتأمل. ثم فتحهما وقال:

"زياد، كلنا هنموت. أنت طبيب، وبتعرف هالشي. لكن مش هالموت اللي بيخوفنا. اللي بيخوفنا إننا نموت ونسير مثل الأرقام في ملفات، أرقام فقط. لا أحد يعرف أسماءنا، لا أحد يقرأ لنا الفاتحة، ولا أحد يبكينا. هذا هو العذاب الحقيقي".

نظر زياد إلى رياض، ثم قال بصوت خافت:

"يا صديقي، أسماءنا ليست مهمة. ما يهم هو ما فعلناه. أنا عالجت إنساناً يحتضر، أعطيته أسبوعاً إضافياً من الحياة ليرى أولاده. هذا الشيء لا يموت. هذا الشيء يبقى وإن ذهبت أنا".

نائل كان يستمع، وقلبه يخفق. كان يحاول أن يجد معنى لوجوده. كل واحد من هؤلاء الرجال كان لديه سبب للفخر: رياض طبيب أنقذ قلوباً، زياد طبيب أنقذ روحاً، فادي أستاذ علم الأجيال، مالك طالب أحلامه لم تمت بعد. أما هو، نائل، فقد كان طالب علوم سياسية، لم ينجح بعد في شيء، لم ينقذ أحداً، ولم يزرع حلماً.

"أنا..." همس نائل، وشعر أن عليه أن يقول شيئاً، "أنا لم أفعل شيئاً في حياتي. فقط درست، وقرأت، وجادلت. هل هذا يكفي؟"

نظر إليه دكتور رياض بحنان غريب.

"يا ولدي، دراسة العلوم السياسية في زمن الاستبداد هي فعل مقاومة في حد ذاته. النظام يريد شعباً جاهلاً لا يفقه السياسة، لأن الجاهل لا يطالب، لا يحتج، لا يحلم. أنت درست ما يخشاه النظام. هذا يجعلك خطيراً. وهذا وحده يكفي ليجعلك تفخر".

كانت هذه الكلمات بمثابة بلسم لجرح نائل. لأول مرة، شعر أن دراسته لم تكن عبثية، وأن جلوسه هنا لم يكن عبثياً. هو هنا لأنه قرر أن يفهم، والسلطة لا تريد لأحد أن يفهم، لأنها تعيش بفضل الظلام.

الفصل الحادي عشر: خروج اثنين وعودة أمَر

في صباح اليوم التالي، كان الحراس في حالة نشاط غير معتادة. كانوا يركضون بين الممرات، ويصرخون بأسماء سجناء، ويجمعونهم في مجموعات. نائل لم يسمع اسمه، لكنه سمع اسمين آخرين: "محمد الوزان" و"ياسر حمدان."

كان محمد الوزان رجلاً في الأربعينات، مهندساً من حلب، يبدو عليه التواضع والهدوء. كان معتقلاً منذ عام كامل، وكان الجميع يحترمونه لأنه كان يساعد السجناء الجدد، يشرح لهم قواعد المهجع، يهدئ من روعهم.

أما ياسر حمدان، فكان شاباً في الثلاثين، كان أستاذاً للفلسفة في جامعة دمشق، اعتقل لأنه نشر مقالاً ينتقد فيه "عبادة الزعيم" كما قال.

وقف الاثنان في صف واحد، والحراس يدفعونهم دفعاً نحو الباب.

نظر محمد الوزان إلى نائل لحظة، ثم إلى دكتور رياض. لم يقل شيئاً. لكن عيناه كانتا تتكلمان. كانتا تقولان: "وداعاً، لا تنتظرونا".

انغلق الباب خلفهما.

بعد ساعة، سمع السجناء صرخات من الطابق العلوي. كانوا يعرفون أن هذا الطابق هو غرفة التحقيق والتعذيب. صرخات مؤلمة، ثم صمت. بعدها، صرخات أخرى، ثم صمت. هذا استمر لثلاث ساعات.

ثم، وبينما كان الجميع ينتظرون بقلوب خائفة، فُتح الباب فجأة، ودخل محمد الوزان مرة أخرى.

لكنه ليس كما خرج.

كان محمد الوزان الآن شبحاً. وجهه مشوه، عيناه منتفختان، شفتاه متشققتان، ويداه ترتجفان بعنف. كان يمشي بصعوبة، كأنه يحمل جسداً ليس جسده. سقط على بلاطته، وأخذ يبكي بصوت عالٍ غير مبالٍ بالحراس، غير مبالٍ بأي شيء.

اقترب منه نائل ودكتور رياض.

"شو صار، محمد؟ وين ياسر؟"

نظر إليهم محمد بعيون زجاجية، وكأنه لا يراهم.

"ياسر... ياسر مات... وهو على كرسي التحقيق".

شعر نائل كأن أحداً يضغط على صدره بقبضة حديدية.

"ضربوه بالكابل، كابل الكهرباء. كلما صرخ، يضربونه أكثر. ساعتين على كرسي التحقيق، وهو يصرخ 'أمي، أمي'. ثم سكت. قال الضابط: 'هذا مات'. حملوه، وخرجوا به. لن يعود".

ساد صمت رهيب في المهجع. حتى الحراس صمتوا. الجميع يعرف أن ما حدث لمحمد وياسر يمكن أن يحدث لأي منهم في أي لحظة.

نائل جلس على بلاطته، وشعر برجليه ترتجفان. حاول أن يتذكر وجه ياسر، صوته. كان قد تحدث معه قبل أيام فقط عن معنى "السعادة" في فلسفة أرسطو. قال ياسر: "السعادة ليست ما نفعله، بل ما نكونه". الآن، كان ياسر لا يفعل شيئاً ولا يكون شيئاً. مجرد رقم في ملف، واسم في قائمة.

في تلك الليلة، لم يستطع نائل النوم. ظل مستلقياً، عيناه مفتوحتان، يتأمل السقف. بدأ يشك في خطته. هل كان يمثل دوراً أكبر من قدراته؟ هل سينتهي به الأمر مثل ياسر، جثة تخرج من غرفة التحقيق؟ أم مثل محمد، يعود حياً لكنه ميت من الداخل؟

تذكر جاكيته الكحلي، تذكر كذبه عن السيدة أسماء، تذكر كلامه الفارغ عن اللقاءات الشهرية. شعر بالغثيان. ما الذي كان يفعله؟ أملاً في الخروج؟ أم أملاً في البقاء على قيد الحياة أياماً إضافية؟

همس في نفسه: "أنت لست ثورياً ولا بطلاً، أنت مجرد جبان يحاول أن ينجو. والجبان حين يضطر إلى الكذب يصبح أشد خطراً على نفسه من العدو".

لكن صوتاً آخر داخله كان يقول: "أنت تفعل ما يجب فعله. حين تكون في غابة الذئاب، لا تتصرف كحمل. تصرف كذئب حتى تجد مخرجاً".

تنهد بعمق. كانت المعركة في الداخل أشد من أي معركة في الخارج.

الفصل الثاني عشر: الذاكرة والجامعة

في الأيام التي تلت موت ياسر، كان نائل يعيش على أطراف أعصابه. كان ينتظر النداء كل صباح برعب، يعد أسماء الضحايا، يحمد الله كل مرة لا ينادون اسمه. لكنه كان يعلم أن هذا لا يمكن أن يستمر للأبد. في يوم ما، سينادون عليه، وسيضطر إما أن يلعب دوره من جديد، أو يواجه مصيراً محتوماً.

لجأ إلى ذاكرته. إلى أيام الجامعة، إلى المحاضرات، إلى الأساتذة الذين شكلوا عقله. كان يسترجع التفاصيل كما لو كانت شريط فيلم يديره في رأسه.

تذكر يومه الأول في الجامعة اللبنانية، حيث انتقل ليدرس بعد أن طرد من سوريا. كان خائفاً، وحيداً، لا يعرف أحداً. لكنه سرعان ما وجد نفسه بين طلاب من كل الدول العربية، يتناقشون، يتحاورون، يتبادلون الأفكار.

كان الدكتور "فريد الخطيب" هو أستاذ مادة "الأنظمة السياسية المقارنة". رجل في الستين، زرق العينين، شعره أبيض بالكامل، وصوته كان يملأ المدرج كأنه خطيب جمعة.

في إحدى المحاضرات، قال الدكتور فريد:

"أيها الطلاب، سوريا ليست حالة شاذة. كثير من الدول العربية تعاني من خلط بين السلطة والدين أو السلطة والعشيرة أو السلطة والمال. ولكن الخطورة في سوريا أنها خلطت السلطة بالجيش، وحولت المؤسسة العسكرية إلى حزب، والحزب إلى عائلة، والعائلة إلى طائفة. وعندها أصبح أي نقد للنظام نقداً للجيش، وللعائلة، وللطائفة. فانعدمت مساحات النقد".

رفع نائل يده حينها وسأل: "إذاً، كيف ننقد النظام ونحن بداخله؟"

ابتسم الدكتور فريد ابتسامة عريضة.

"أنت لا تنقده من داخله. أنت تفككه من داخله. الفرق كبير. النقد المباشر يؤدي إلى السجن. التفكيك يعني أن تزرع بذور الشك، أن توحي بأن النظام ليس مثالياً، أن تظهر التناقضات دون أن تسميها. هذا هو فن السياسة".

كان نائل يتذكر هذه الكلمات الآن، وهو جالس على بلاطته، ويتساءل: هل ما يفعله مع الضباط هو "تفكيك"؟ هل يحاول أن يزرع شكاً في نفوسهم عن طريق كذبه؟ أم أنه يغذي أوهامهم؟

تذكر أيضاً محاضرة للدكتورة "هالة ناصر"، أستاذة علم الاجتماع السياسي. قالت مرة:

"الاستبداد لا يسقط بقنابل، ولا بخطب، ولا بمظاهرات فقط. الاستبداد يسقط عندما يبدأ أجهزته بالتشكك في بعضها. عندما لا يعرف الضابط البسيط إن كان الرئيس لا يزال يثق به. كل شك هو خنجر في قلب السلطة".

هذا هو بالضبط ما كان نائل يفعله. كان يحاول أن يخلق شكاً لدى الضباط: إذا كان نائل قريباً من القصر، فلماذا هو معتقل؟ أخطأوا في اعتقاله؟ هل سيثور القصر عليهم إذا عرفوا أنهم أساؤوا لأحد المقربين؟

كان يريد أن يقول لهم دون أن يقول: "أنتم لستم آمنين. القصر يراقبكم. وقد لا تخرجون سالمين إن أذيتموني".

لكن هذه اللعبة كانت خطيرة. فإذا اكتشف الضباط أن القصر لا يعرف نائل من الأساس، فسيكون غضبهم عليه أشد من غضبهم على أي سجين آخر. لأنه لم يكذب فقط، بل جعلهم يبدون أغبياء أمام أنفسهم.

الفصل الثالث عشر: زيارة المدير المفاجئة

في صباح اليوم الخامس عشر من اعتقاله، حدث ما لم يكن نائل يتوقعه. دخل العقيد الذي حققه في اليوم الأول إلى المهجع، وصاح بصوت عالٍ: "نائل السويدي... المدير يطلبك".

ارتعشت قلب نائل. هل كان هذا هو اليوم الذي سينكشف فيه أمره؟ هل أرسل القصر تحقيقاً ولم يجد اسمه بين المقربين؟ أم أن المدير ببساطة يريد استكمال حوارهما؟

نهض من بلاطته، وربت على جاكيته الكحلي (الذي كان ينام فيه الآن خوفاً من أن يسرقه أحد الحراس)، ومشى خلف العقيد بطريقة تظهر الثقة والهدوء.

صعدوا الدرجات إلى الطابق العلوي، حيث مكاتب الضباط. هذه المرة، لم يدخلوا غرفة التحقيق، بل ذهبوا مباشرة إلى مكتب المدير.

كان المدير جالساً على كرسيه خلف المكتب، وكان أمامه كوب من القهوة العربية، ونرجيلة تدخن بجانبه. بدا مسترخياً، وكأنما يستعد لجلسة سمر وليس لاستجواب.

"تفضل، تفضل، استاذ نائل." قال المدير، مشيراً إلى الكرسي المقابل. "عامل حالك كما لو كنت في بيتك".

جلس نائل، وتظاهر بالاسترخاء. لكن عينيه كانتا تراقبان كل حركة للمدير، كل إشارة، كل انفراجة في وجهه.

شرب المدير رشفة من قهوته، ثم قال:

"أرسلت استفساراً للإدارة المختصة بخصوص علاقتك مع القصر".

توقف. كانت لحظة حاسمة.

"وما كان الجواب؟" سأل نائل، وهو يحاول ألا يظهر الخوف.

ابتسم المدير ابتسامة غامضة. "الجواب... لم يصل بعد. ولكن ما يهمني ليس الجواب النهائي، بل ردة فعلك أنت الآن".

نظر نائل إلى المدير مباشرة في عينيه. لاحظ شيئاً غريباً: المدير لم يكن يبدو غاضباً أو متحفزاً. كان يبدو فضولياً فقط.

"سيدي المدير..." قال نائل، وصوته أهدأ مما توقع. "أنا ما عندي شي أخفيه. إذا القصر قال إني لا أتواصل معهم، فمعناها عندهم أسبابهم، مثل ما عندي أنا أسبابي. لكن الحقيقة"...

"ما هي الحقيقة؟" قاطعه المدير.

ابتسم نائل ابتسامة واثقة.

"الحقيقة أنني لا أستطيع أن أثبت لك شيء الآن. أنا سجين، وما معي تلفون، وما معي عنوان. لكن السيدة أسماء تعرفني، وأنا أعرفها. إذا أردت التأكد، اتصل بالقصر واسألهم عني".

قال نائل هذه الكلمات وهو يعلم أن المدير لن يتصل بالقصر أبداً. لأن الاتصال بالقصر ليس بالأمر السهل، ولأن أي اتصال كهذا سيعرض المدير نفسه للمساءلة: لماذا يحتجز شخصاً مقرباً من القصر؟ هذا قد يوقف مسيرته المهنية، أو ربما يعجل بنهايتها.

كانت هذه ورقة نائل الرابحة. في الأنظمة البيروقراطية، الخوف من المساءلة أكبر من الخوف من أي شيء آخر. والمدير، مثل أي مسؤول في نظام الأسد، كان يخاف من أن يظهر بمظهر الغبي أمام رؤسائه.

هز المدير رأسه، ثم سحب نفساً طويلاً من النرجيلة.

"أنا ما بدي اتصل بالقصر... لأن إذا اتصلت، وطلع كلامك صحيح، رح تطلع من هنا بكرامة، وأنا رح أكون عملت معروف لشخص مهم. وإذا طلع كلامك غلط"...

رفع إصبعه وأشار به إلى نائل.

..."فأنت هالك. بكل بساطة. هالك".

شعر نائل بالقشعريرة تسري في جسده، لكنه حافظ على هدوئه.

"أنا ما رح أخيب ظن حضرتك، سيدي المدير. أنا رح أطلع من هنا بكرامة، وإنت رح تفتخر إنك ساعدتني. صدقني، السيدة أسماء تعرف معروف اللي بيعملوه معي".

نهض نائل من كرسيه، وكأنه بذلك ينهي المقابلة. وقف المدير أيضاً، ومد يده لمصافحته. كانت المصافحة قوية، وكأن كل واحد منهما يحاول قياس قوة الآخر.

"اقعد، لم تخرج بعد." قال المدير ضاحكاً. "ما تكنش مستعجل. بدنا نحكي كمان شوي".

جلس نائل مرة أخرى، يشعر بأن الجلسة تطول أكثر مما توقع.

الفصل الرابع عشر: حوار في السياسة والدين

أطفأ المدير النرجيلة، وأدار كرسيه ليواجه نائل بشكل مباشر. أصبحت العيون الأربعة تتجه كل منها نحو الأخرى كسيوف في مبارزة.

"أنا مهتم بمعرفة رأيك كدارس علوم سياسية... ما رأيك باللي عم يصير بالبلد؟ أنا لا أسألك كمعتقل، أسألك كأكاديمي".

كان هذا سؤالاً فخاً. لو قال نائل رأيه الحقيقي (أن النظام قمعي ويقمع شعبه)، فسيُعتبر معارضاً ويعاقب. ولو قال رأياً مدحياً جداً (أن النظام مثالي)، فسيبدو كاذباً.

"سيدي المدير..." قال نائل، وهو يفكر في كل كلمة قبل أن تنطق بها شفتاه، "السياسة ليست ديناً. الدين فيه حقائق مطلقة، أما السياسة فهي نسبية. الذي هو خطأ اليوم قد يكون صواباً غداً، والعكس صحيح".

"أكمل".

"ما عم يصير بالبلد... هو نتاج ظروف. الحرب، الإرهاب، التدخل الأجنبي... كلها عوامل أدت لقرارات صعبة. بعض القرارات كانت صائبة، وبعضها كانت خاطئة. لكن الأكيد أننا كسوريين يجب أن ننتبه لمستقبلنا".

كان نائل يتحدث بلغة دبلوماسية متقنة، لا يمدح ولا يذم، يحلل فقط دون أن يحكم. هذه كانت حرفة السياسي الحقيقي: أن يقول كل شيء دون أن يقول شيئاً.

أومأ المدير برأسه. كان يبدو معجباً.

"طيب... بالنسبة للإخوان المسلمين، شو رأيك فيهم؟"

"سيدي المدير، أنا لا أؤيد الإسلام السياسي. لكني أؤمن أن الدين لله والوطن للجميع. المشكلة ليست في الإخوان كأفراد، المشكلة في أي جماعة تحاول أن تحتكر الحقيقة باسم السماء. في النهاية، جميعنا بشر، والسماء بعيدة".

ضحك المدير ضحكة عالية.

"ما شاء الله، أنت دبلوماسي بالفطرة. والله لو كان عندنا ناس زيك بالخارجية، كان وضع سوريا أحسن".

كان المجاملون في هذا المكان يتقنون فن تبادل الإطراءات الزائفة. نائل عرف أن المدير يحاول كسب ثقته، أو ربما يحاول أن يجعله يبوح بشيء أكثر.

"طيب، سؤال أخير..." قال المدير، مستعداً لإنهاء المقابلة. "هل تعتقد أن النظام سيسقط؟"

سكت نائل لبرهة. هذا هو السؤال الذي يجلبه الجميع، المعارض والنظام على حد سواء. كل طرف يريد إجابة تخدمه.

"سيدي المدير، الأنظمة لا تسقط إلا إذا استنفدت شرعيتها. والنظام السوري... شرعيته اليوم هي من قدرته على حماية المواطن من الإرهاب. إذا استمر في ذلك، سيبقى. وإذا فشل"...

رفع نائل كتفيه. "لا أحد يعلم الغيب إلا الله".

وقف المدير، وهذه المرة كانت المصافحة ساخنة.

"أنا معجب بك يا نائل. جدياً. نادراً ما أجد شخصاً مثقفاً بالطريقة هذه. سأتابع ملفك بنفسي. وحاول أن تبقى هادئاً، ولا تتحدث مع أحد فيما ناقشناه".

خرج نائل من المكتب، وهو يشعر بأنه خطا خطوة كبيرة إلى الأمام. لكنه كان يعلم أيضاً أن كل خطوة تقدم في هذا المكان تتبعه خطوتان للخلف.

عندما عاد إلى المهجع، نظر إليه السجناء بعيون متسائلة.

"شو صار؟"

"ما في جديد." قال نائل مبتسماً. "الجماعة طيبين، والدنيا تمام".

لكن الدكتور رياض نظره نظرة عرف فيها أن هناك شيئاً لا يقوله نائل.

في الليل، عندما غفا الجميع، همس رياض له:

"قل لي الحقيقة".

همس نائل: "المدير معجب بي... هذا يمكن أن يكون خيراً أو شراً".

"كيف شراً؟"

"إذا المدير معجب بشخص، فهذا يعني أنه يريد استخدامه. قد يطلب مني خدمة... قد يطلب مني التجسس على سجناء آخرين... قد يطلب مني أن أكون عينه داخل المهجع. وهذه هي اللعنة بعينها".

فهم رياض كل شيء. كان يعرف أن الموافقة على طلب كهذا تجعلك خائناً لأصحابك، والرفض يجعلك عدواً للمدير. كلا الخيارين مميت.

"لا توافق على شيء يخون أصلك، يا نائل." همس رياض. "الموت يأتي مرة واحدة، لكن الخيانة تبقى إلى الأبد".

نام نائل تلك الليلة مقلقاً، يحلم بكوابيس متقطعة: كان يرى نفسه محاصراً بين ضباط يحملون مسدسات، وبين سجناء يبصقون في وجهه. كان يصرخ، لكن لا صوت يخرج منه.

الفصل الخامس عشر: نداء الفجر

في اليوم التالي للساعة الرابعة فجراً، استيقظ نائل على صوت غريب. لم يكن صوت الحراس، بل صوت بكاء خافت، يكاد لا يسمع. من أين يأتي؟

رفع رأسه قليلاً، ورأى في الظلام شبحاً منحنياً على بلاطة بعيدة. كان مالك، الشاب الهندسي، يبكي بين يديه كطفل صغير. تقدم نائل نحوه بصعوبة، متجنباً أن يلمس بلاطات الآخرين.

"مالك... شو بك؟"

رفع مالك وجهه الملطخ بالدموع.

"حلمت بأمي... كانت عم تناديني... قالتلي: 'وينك، مالك؟ وينك؟ رجعتلك الحلويات'"... خنقته العبرات.

كنت وعدتها قبل ما أعتقل إني رح أجيبلها فستق من السوق... لسا ما جبتلها شيء...

شعر نائل بقلبه ينكسر. كم عدد الأمهات في سوريا اللواتي ينتظرن أبناءهن الذي لن يعودوا؟ كم عدد الحلويات التي تبرد على موائد العيد دون أن يأكلها أحد؟

"لا تخاف، مالك." همس نائل. "إن شاء الله تطلع، وتجيب لأمك ألف كيلو فستق".

لكن حتى وهو يقولها، لم يكن يؤمن بها. كان يعلم أن مالك، مثل معظم السجناء هنا، قد لا يخرج أبداً.

جلس إلى جانبه، وأخذ يربت على كتفه بصمت. كل ما يمكنك فعله في هذا المكان هو أن تكون موجوداً لمن يحتاجك. البقية تترك للقدر.

في الصباح، استيقظ الجميع على هدير محرك سيارة في الخارج، وصيحات غاضبة. ثم فُتح باب المهجع، ودخل خمسة حراس مسلحين، وخلفهم الضابط الذي كان يشرف على الفرز في اليوم الأول.

نظر الضابط إلى قائمة الأسماء، وصاح:

"مالك الحموي... قوم".

ارتجف مالك. كانت عيناه تملآن بالدموع مرة أخرى.

"قوم، قلت لك." صرخ الضابط.

وقف مالك، وهو يرتجف كالعصفور. نظر إلى نائل لحظة أخيرة، ثم مشى خلف الحراس.

لم يعد مالك أبداً.

الفصل السادس عشر: مأساة المهندس من حلب

مرت عشرة أيام أخرى. في هذه الأيام، تغيرت حياة المهجع بشكل كبير. أصبح الحراس أكثر قسوة، أصبح الطعام أقل، وأصبحت جلسات التحقيق أكثر تواتراً. وكأن النظام كان يحاول أن ينهي الملفات بسرعة قبل حلول العام الجديد.

كان نائل قد بدأ يفقد الأمل في خروجه قريباً. كانت كذباته عن القصر تحميه، لكنها لم تكن كافية لتطلقه. المدير قال إنه سيرسل كتاباً للإدارة المختصة، لكن هذا قد يستغرق أسابيع أو شهوراً. وكل يوم يمر، كان نائل يشعر أنه يقترب من حافة الهاوية.

في أحد الأيام، جاء النداء لأحد الشخصيات البارزة في المهجع: المهندس محمد الوزان من حلب. لم يكن نداءً للتحقيق، بل نداءً للخروج. قال الحراس: "محمد الوزان... أغراضك معك".

نهض محمد بهدوء، وجمع أغراضه القليلة: كتاب صغير، قلم رصاص، وصورة بالية لعائلته. نظر حوله إلى رفاقه في المهجع، لا سيما نائل ودكتور رياض، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

"الله يكون بعونكم... لا تنسوا حقي".

ثم خرج.

نظر نائل إلى دكتور رياض، وفي عيني رياض كان الحزن يتلألأ.

"أتدري أين سيذهبون به؟" سأل نائل.

"إما إلى الإفراج، أو إلى مكان أسوأ. لا أحد يعلم".

بعد ساعات، عادت الأنباء. لم يأت بها حارس أو ضابط، بل أتتها همسات من سجين كان في التحقيق عندما كان محمد الوزان هناك.

"قتلوه." همس السجين. "عذبوه ساعتين، ثم أطلقوا عليه الرصاص في رأسه. سمعت طلقته بنفسي".

سقط نائل على بلاطته كأنما ضربه صاعق. محمد الوزان، المهندس الهادئ، الذي كان يشاركه الخبز في بعض الأيام، الذي كان يسأله عن أخيه الصغير وعن والدته المريضة. محمد سيمفونية الألم التي لا تتوقف.

لم يبكِ نائل. لم يستطع. البكاء أصبح رفاهية لا يستطيع السجين تحملها. دموعك قد تنم عن ضعفك، وضعفك هنا يعني موتك. مئات السجناء في هذا المهجع تعلموا ألا يبكوا،

حتى عندما ينادون على أسمائهم، حتى عندما يقرعونهم بالسلاسل، حتى عندما يسمعون أصوات الرصاص من الطابق العلوي.

لكن في داخله، كان هناك نهر من الدموع يجري. كان يبكي على محمد، على مالك، على ياسر، على كل من دخل هذا المكان ولم يخرج. كان يبكي على كل أمهاتهم اللواتي لا يعلمن أين أبناؤهم. كان يبكي على سوريا، التي أصبحت مقبرة مفتوحة بلا شواهد قبور.

في تلك الليلة، جلس نائل مع الدكتور رياض وفادي وأخذوا يتحدثون بصوت خافت عن معنى الحياة والموت.

"لِمَ نعيش إذا كنا سنموت في النهاية؟" سأل نائل، وكان صوته مرتعشاً.

نظر إليه دكتور رياض بحكمة الشيخ الذي عاش كثيراً.

"نعيش لأن الحياة نفسها ثمينة، يا ولدي. حتى في هذا المكان، الحياة ثمينة. انظر حولك: أنت ترى أناساً متعبين، جائعين، مكسوري الظهر. لكنهم لا زالوا يتنفسون. لماذا؟ لأن في قلوبهم أمل، ولو صغيراً، أن الغد سيكون أفضل".

همس فادي: "أو لأن الموت مؤلم، وحب البقاء أقوى من الألم".

ضحك رياض ضحكة خفيفة. "ربما. ربما. لكني أعتقد أننا نعيش لأننا نؤمن بأن موتنا ليس عبثياً. كل واحد منا هنا... هناك سبب لوجوده. نحن هنا لأننا رفضنا الخنوع. وهذا كاف".

نظر نائل إلى البلاطة التي كان يجلس عليها محمد الوزان قبل ساعات. كانت لا تزال تحمل أثر جلوسه، حفرة صغيرة في الخرسانة شكلها بقعة أرضية أكثر انخفاضاً.

"سأخرج من هنا." قال نائل فجأة، وصوته كان واثقاً.

"كيف؟" سأله رياض وفادي في نفس الوقت.

"سأستمر في لعبتي. سأجعلهم يعتقدون أني أكثر أهمية مما أنا عليه. وسأخرج. وإذا لم أخرج، سأموت وأنا أحاول".

نظر إليه رياض بإعجاب، وفي عينيه بريق أمل لم يره نائل من قبل.

"إذا خرجت، يا نائل... لا تنسنا. لا تنسَ أن تنقل حكاياتنا إلى العالم. لا تنسَ أن تقول إنه في هذا المهجع، في هذه الزنازين، كان هناك رجال ونساء ماتوا وهم يحلمون بأيام أجمل".

"لن أنساك." قال نائل. "أقسم بالله لن أنساك".

الفصل السابع عشر: أنين الليل

كان الليل في المهجع رقم واحد لا يشبه أي ليل عرفه نائل في حياته. لم يكن من النوع الذي يجلب الراحة، بل كان يأتي مزدحماً بالآلام، والذكريات المؤلمة، والهمسات الخائفة.

في ليلة باردة بشكل غير معتاد، بدأت أصوات الأنين تتعالى من زوايا المهجع. كان بعض السجناء يئنون من البرد، وآخرون من الجوع، وآخرون من آلام التعذيب القديمة. لكن أكثر الأنين كان يصدر من رجل عجوز في البلاطة البعيدة، كان اسمه "عبد الكريم". قيل أنه كان بروفيسوراً في الأدب العربي في جامعة دمشق، وكان قد اعتقل منذ ثلاث سنوات بعد أن رفض كتابة قصيدة مدح للرئيس.

كان أنين عبد الكريم هذه الليلة عالياً لدرجة أن الحراس صرخوا فيه مراراً ليخرس، لكن أنينه كان أقوى من تهديداتهم.

اقترب منه نائل، رغم أن الحراس كانوا يتجولون بين الصفوف.

"عمي... عمي عبد الكريم... شو بك؟"

نظر إليه عبد الكريم بعيون بيضاء، كادت تفقد بصرها من شدة العتمة.

"بتألم... ظهري... ضربوني قبل يومين... أنا كتير بتألم"...

نظر نائل إلى ظهر عبد الكريم، فرأى كدمات سوداء وزرقاء تغطي كل سنتيمتر منه. تضررت الفقرات، وانكسرت الأضلاع. وهذا الرجل المسن لا يتلقى أي علاج، لا مسكنات، لا ضمادات، لا شيء.

"عمي... ممكن اطلب من الحراس يجيبولك دكتور"...

ضحك عبد الكريم ضحكة متقطعة، ملؤها الألم.

"دكتور؟ هون؟ في مهجع المثقفين؟ كلنا دكاترة يا ولدي. أنا دكتور أدب، غيري دكاترة قلب، دكاترة أطفال. بس الحقيقي... ما حدا مهتم إنه يعالجنا. النظام بده يخلينا نموت بالبطء".

أخذ نائل يده، وشد عليها بقوة.

"لا تخاف، عمي. ربنا معك".

"ربنا..." تابع عبد الكريم، وصوته أصبح أخف، كهمس ريح. "ربنا... وين ربنا عن هالمكان... شو عملنا غلط... يا رب... سامحنا"...

كانت الكلمات الأخيرة التي قالها عبد الكريم. في الصباح، وجدوه ميتاً على بلاطته. عيناه مفتوحتان، وفمه مفتوح قليلاً، وكأنه كان يتحدث إلى أحدهم حتى آخر لحظة.

نظفوا جسده بقطعة قماش مبللة، وغطوه ببطانية قديمة، وحملوه خارج المهجع. لم تقم له جنازة، ولم يقرأ له أحد الفاتحة. ذهب عبد الكريم، وكأنه لم يكن هنا.

لكن نائل تذكره. دائماً. كان يعرف اسمه، كان يعرف أنه أستاذ أدب، كان يعرف أن لديه عائلة في دمشق تنتظره. وهذا كان كافياً.

في تلك الأيام، تعلم نائل شيئاً لم تعلمه إياه كتب العلوم السياسية. تعلم أن معنى أن تكون إنساناً ليس في دراستك أو منصبك أو ثروتك. معنى أن تكون إنساناً أن تتذكر أسماء الذين ماتوا. أن تعرف أنهم كانوا هنا، وأنهم كانوا يحلمون، وأنهم كانوا يخافون.

لقد تحول المهجع إلى مدرسة أخرى، مدرسة الألم، حيث الدرجات تُمنح بالدموع، والنجاح هو البقاء على قيد الحياة ليوم إضافي.

الفصل الثامن عشر: انكشاف الأوراق

مرت الأيام والأسابيع. كان نائل يقضي فيها بين المهجع وغرف التحقيق، يكرر كذبه، ينمق قصته، يضيف تفاصيل جديدة تجعلها أكثر إقناعاً. لقد أصبح لدرجة أنه بدأ يشك هو

نفسه في حقيقة علاقته بالقصر. كان يحلم في الليل بلقاءات مع السيدة أسماء، ويتذكر تفاصيل لم تحدث أبداً.

لكن في بداية عام ٢٠١٥، بدأت الأمور تتغير. تغير المدير، وجاء مدير جديد أكثر تشدداً وأقل تصديقاً للحكايات. بدأوا بتحقيق دقيق في ملفات السجناء، وطلبوا توثيقاً لكل علاقة يدعي أحدهم أنها موجودة.

في أحد الأيام، استدعى المدير الجديد نائل إلى مكتبه. كان مديراً في الأربعينات، لحيته كثيفة، وعيناه تخفيان نية لا يعرفها أحد. كان يدخن سيجارة كثيفة، والدخان يملأ الغرفة.

"أنا سمعت عنك كثير." قال المدير، مصعداً الدخان من فمه ببطء. "سمعت إنك بتدعي إنك قريب من القصر... وبتعرف السيدة أسماء... ومعك لقاءات شهرية"...

شعر نائل بالخطر يتسلل إلى قلبه. كان هذا المدير مختلفاً. ليس من السذاجة بمكان كسابقه.

"سيدي المدير..." بدأ نائل.

"خف عليا." قاطعه المدير. "أنا مو جاي لأقنع. أنا جاي أدور على الحقيقة. جبت عنوان سيدتك..." ضرب بيده على الطاولة، "وطلعت... معناها ما بتعرفها أساساً".

انكشف الأمر. انهارت جدران الكذب التي بناها نائل بشق الأنفس. أصبح وجهه شاحباً، وبدأ عرقه يتصبب بغزارة، رغم برودة الغرفة.

"أنا... أنا"...

"أنت عم تكذب علينا من أول يوم." صرخ المدير. "إنت عم تستهبل بأمن الدولة. إنت ما حجمك عشان تكذب علينا وتضيع وقتنا بهيك قصص".

كانت الكلمات كالصاعقة. شعر نائل بالأرض تهتز من تحته.

"سيدي... أنا مو قصدي... أنا كنت خايف... أنا كنت"...

"خرس." صرخ المدير. "لو تكمل كلمة، بزبطك زبطة ما بتقوم منها".

جلس نائل صامتاً، وعيناه مثبتتان على الأرض. كان ينتظر القبضة الحديدية التي ستسحبه إلى غرفة التحقيق، ليتعذب ثم يُقتل مثل غيره.

لكن المدير فاجأه: قام من كرسيه، ووقف إلى النافذة، وأخذ يتأمل الخارج لبرهة طويلة. ثم عاد إلى مكتبه، وأخذ يكتب شيئاً على ورقة.

"اسمع..." قال المدير، وصوته كان أهدأ قليلاً. "أنا عارف إنه كتير ناس بتكذب بهيك ظروف. ما إنت أول واحد، ولا آخر واحد. بس أنا ما بدي أضيع وقتي معاك. رح أرسلك على القصر... أي كان القصر... وريهم شو عملت. إذا صدقوك، أنت حر. وإذا ما صدقوك، فأنت"...

رفع إصبعه وحركه في الهواء كمن يقول "انتهى الأمر."

رحل نائل إلى القسم الذي يسمى "القصر". لكنه لم يصل إلى أي قصر. فقط نقل إلى سجن آخر، أكثر قسوة، ثم إلى سجن آخر. كانت أياماً عصيبة، لم يشعر فيها بالأمان للحظة. كل يوم كان ينتظر أن يُنادى اسمه ليعدم.

لكن القدر كان له رأي آخر. بعد سبعة أشهر من الاعتقال، وبعد أن تقلبت به السجون، وبعد أن أصبح هيكلاً عظمياً بالكاد يمشي، أطلقوا سراحه فجأة. بدون تفسير. بدون محاكمة. بدون اعتراف بالخطأ.

وقف عند بوابة السجن، والشمس تضرب وجهه لأول مرة منذ شهور. استنشق الهواء، وتذوق طعم الحرية المر. كان حراً، لكنه لم يكن سعيداً. تركه السجن يغادر، لكن ظلاله بقيت معه.

الفصل التاسع عشر: العودة إلى حماه (ولعبة مستمرة)

عاد نائل إلى حماه في صيف ٢٠١٥. استقبلته أميمة بدموعها المعتادة، ورامي الذي كان قد كبر كثيراً في غيابه، ووالده الذي كان قد تفاقم مرضه. استقبلوه كالبطل، لأنه خرج حياً من قلب الموت.

لكن نائل لم يكن بطلاً. كان يشعر بالذنب لأنه كذب، لأنه تظاهر، لأنه لم يمت كما مات رفاقه. كل ليلة كان يحلم بوجوه الذين تركهم في المهجع: دكتور رياض، فادي، مالك، محمد الوزان، ياسر، عبد الكريم. كانوا يأتون إليه في المنام، يسألونه: "لماذا أنت حي ونحن أموات؟" وكان يستيقظ صارخاً.

لكن شيئاً غريباً حدث بعد خروجه. بعض الناس في حماه سمعوا بقصته، لكنهم سمعوا نسخة مشوهة. سمعوا أنه كان معتقلاً، وأنه كان مقرباً من القصر، وأنه خرج بوساطة رفيعة المستوى. بدأوا يأتون إليه، يطلبون منه المساعدة. كانوا يظنون أنه لا يزال لديه اتصالاته، وأنه يستطيع أن يفرج عن معتقلين أو يحل مشاكل.

وكان نائل... يوافق.

لم يستطع مقاومة الإغراء. بدأ يتظاهر بأنه لا يزال على علاقة بالقصر. كان يجمع الأموال من أهالي المعتقلين، ويزعم أنه يرسلها لمسؤولين لتأمين إطلاق سراح أحبائهم. لكنه في الحقيقة كان يحاول الاتصال بأي شخص يمكنه أن يساعد، أي وسيط حقيقي، أي ثغرة في النظام. وأحياناً، كان ينجح. كان يتمكن من إطلاق سراح بعض الناس بفضل أموال الرشوة التي كان يجمعها. وأحياناً أخرى، كان يفشل، وكان يختفي المال، وتختفي الأحلام.

عاش هذه اللعبة المزدوجة لمدة عامين. من ٢٠١٥ إلى ٢٠١٧، كان نائل شخصيتين: في النهار، كان "الوسيط"، "القريب من القصر."، الرجل الذي يستطيع أن يفعل المستحيل. وفي الليل، كان السجين السابق الذي كان يبكي على رفاقه الموتى.

في أوائل عام ٢٠١٧، انكشفت اللعبة. أحد الأشخاص الذين زعم أنه ساعدهم اكتشف أنه لا توجد أي علاقة بين نائل وأي قصر. انتشر الخبر بسرعة. أدرك نائل أن أيامه في حماه أصبحت معدودة.

في ليلة باردة من فبراير ٢٠١٧، اتصل به شخص كان يعاونه في عمليات الوساطة.

"نائل، هرب. الناس عرفت إنك كنت عم تكذب. في ناس بدها تقتلك. في ناس بدها تسلمك للمخابرات. اخرج من حماه الليلة".

لم يتردد. حزم حقيبة صغيرة، ودع والدته ووالده وأخاه، وخرج إلى المجهول. ترك كل شيء: بيته، مدينته، أصدقاءه، أعداءه. ترك حتى اسمه الحقيقي.

تنقل بين المدن، بين البلدان، ثم استقر أخيراً في تركيا.

الفصل العشرون: ما بعد السجن

في تركيا، بدأ نائل حياة جديدة. عمل في وظائف بسيطة، درس اللغة التركية، حاول أن يبني لنفسه اسماً جديداً. لكنه لم يستطع التخلص من ماضيه.

في إحدى الليالي، سمع بإعلان عن بودكاست يتحدث عن تجارب السجناء السوريين. تطوع للمشاركة، وجلس أمام الكاميرا، وبدأ يروي قصته.

كانت الكاميرا تسجل، والمذيع يسأل. تحدث عن المهجع رقم واحد، عن البلاطات الباردة، عن الخبز الأسود، عن الأصدقاء الذين ماتوا، عن الكذبة التي أنقذته، عن اللعبة التي لعبها مع أمن الدولة.

"ولما انكشفت الأوراق في ٢٠١٧... هربت." قال، وعيناه تدمعان. "كنت خائفاً على حياتي. لا أقول أنني بطل. لم أكن بطلاً. كنت فقط رجلاً يريد أن يعيش".

سأله المذيع: "والآن، ماذا تفعل؟"

"الآن... أحاول أن أنسى. لكنني لا أستطيع. كل يوم أتذكر زملائي الذين ماتوا هناك. دكتور رياض يجب أن يكون في بيته الآن، يمارس الطب. فادي كان يستحق أن يعيش ويكتب الشعر. مالك... كان صغيراً جداً على الموت".

بكى نائل أمام الكاميرا. لأول مرة منذ ثلاث سنوات، سمح لدموعه أن تنهمر.

"دراسة العلوم السياسية أنقذت حياتي... لكنها لم تنقذ أصدقائي. لو كان بإمكاني، لتخليت عن كل دراستي فقط لرؤيتهم يخرجون معي".

توقف البودكاست. لكن القصة لم تتوقف. انتشرت الحلقة، وشاهدها الملايين. اتصل به بعض أهالي السجناء، يشكرونه على نقل الحقيقة. وهاجمه آخرون، متهمين إياه بأنه كان متعاوناً مع النظام.

نائل لم يهتم كثيراً. كان يعرف الحقيقة الوحيدة: أنه نجا. وأنه سينقل قصتهم حتى لا تموت معهم.

في الليل، كان ينام في شقته الصغيرة في إسطنبول، وعيناه تلهثان نحو النافذة. كان يحلم أحياناً بأنه لا يزال في المهجع رقم واحد، على بلاطته الباردة، يسمع أصوات أنين السجناء. كان يستيقظ مذعوراً، يلمس جسده ليتأكد أنه لا يزال هنا، في تركيا، في الحرية.

في أحد هذه الليالي، كتب في مذكراته:

"لطالما ظننت أن العلوم السياسية ستجعلني سفيراً أو وزيراً. لكنها جعلتني... كاذباً نجا. وماذا بعد؟ بعد النجاة تأتي الحياة، ولكن هل هذه الحياة هي ما حلمت به؟ لست متأكداً.

لكن شيئاً واحداً أعرفه: أن الذين ماتوا هناك، في سجون النظام، هم الشهداء الحقيقيون. أنا مجرد راوٍ لقصصهم.

لن أنساهم. لن أنسى دكتور رياض وفادي ومالك ومحمد وياسر وعبد الكريم. لن أنسى البلاطات الباردة والخبز الأسود والجاكيت الكحلي.

لن أنسى أبداً".

أغلق دفتر مذكراته، وأطفأ الضوء. كان الفجر قد اقترب، وكان عليه أن يستعد ليوم جديد.

يوم آخر من الحياة. يوم آخر من الأمل. يوم آخر من نقل الحقيقة.

لأن الحقيقة، في النهاية، هي السلاح الوحيد الذي لا يمكن لأي نظام أن يصادره. الحقيقة تبقى، وإن دفنوها تحت الأرض، ستخرج كالنبتة بين شقوق الصخر.

وهكذا تنتهي رواية نائل، لكن قصة المهجع رقم واحد لا تنتهي. فهي تعيش في كل من سمعها، وستنتقل من جيل إلى جيل، كتحذير، كذكرى، كشهادة على أن الإنسان، مهما كان النظام قمعياً، يستطيع أن يحتفظ بإنسانيته حتى في أقسى الظروف.

خاتمة: ضوء في نهاية النفق

بعد سنوات، في أحد أيام ربيع ٢٠٢٣، جلس نائل على شرفة منزله في إسطنبول، يتأمل غروب الشمس فوق البوسفور. كان يشرب كأساً من الشاي، ويدخن سيجارة، وقد كبرت لحيته وازداد شيبها.

كان يفكر في كل ما جرى: في المهجع، في الكذبة التي أنقذته، في الأصدقاء الذين رحلوا، في السنوات التي تلت.

تذكر كلمات الدكتور رياض في المهجع: "إذا خرجت، يا نائل... لا تنسنا".

"لم أنسكم." تمتم نائل للريح. "لن أنساكم أبداً".

أطفأ سيجارته، ودخل إلى المنزل. كان على موعد مع مقابلة جديدة، مع صحفية أجنبية تريد أن تسمع قصته. سيرويها لها، كما رواها للبودكاست، كما رواها لأي شخص يريد أن يسمع.

ولن يتوقف أبداً عن روايتها.

لأن هذه القصة ليست قصته فقط. إنها قصة آلاف السوريين الذين سجنوا، وعذبوا، وقتلوا. قصة أولئك الذين فقدوا أحلامهم، لكنهم لم يفقدوا إنسانيتهم.

في هذا العالم القاسي، حيث تصمت الضمائر وتنام العدالة، كان هناك دائماً من يرفض الصمت. نائل كان واحداً منهم. ليس بطلاً، بل إنساناً أراد أن يعيش. وهذا، في حد ذاته، كان انتصاراً.

النهاية

هذه الرواية مستوحاة من شهادة حقيقية لسجين سوري قضى شهوراً في سجون النظام السوري. تم تغيير الأسماء باستثناء أسماء الشخصيات الرسمية والمناطق الجغرافية، والأحداث مبنية على تفاصيل وردت في الشهادة، مع بعض التصرف الأدبي لخدمة السرد.

خلداً لذكرى كل من ماتوا في سجون الظلم، ولم يعرف أحد أين دفنوا.

سجنُ صِدنايا
لا إسم لي هناك
الرقم 49
خرجتُ من مخبئي كما يخرج النائمُ من كابوسه، مرتجفاً من البرد والرجاء، حاملاً ورقةً مطبوعةً، وصورةً من المرسوم، وختمَ أمل.
لم أكن أحمل سلاحاً، ولا سرّاً. كنت أحمل ذاكرةً ورغبةً بسيطةً في العودة إلى زوجتي، إلى طفلي. قلتُ: العفو عفوٌ، والدولة دولةٌ، والكلمةُ كلمةٌ.

الفصل الأول: وهمُ العفو

كان الصوت يتردد على شاشات التلفاز كأنه نذرُ خلاصٍ، أو لعلّه كان مجرد صدىً بعيدٍ يضيع في دهاليز الانتظار الطويل. "عفوٌ رئاسيٌ شاملٌ، يُصدره فخامة الرئيس بشار الأسد، ليعود كل مُطلوبٍ إلى قطعهته، ويُسدّ ما عليه من ملفات".

كانت الكلمات تسقط على آذاننا كالمطر على أرضٍ يابسة، فترسم في الخيال خريطةً للعودة، للحياة، للبراءة التي ظننا أنها ستُمنحنا إياها بمجرد أن نخطو خطوةً واحدةً نحو الخارج. لم نكن ندري حينها أن الوعد في هذا البلد ليس خطاً مستقيماً، بل متاهةً من المرايا، تريك ما تريد أن تراه، ثم تغلق الباب خلفك بصمتٍ معدنيّ ثقيل.

خرجتُ من مخبئي كما يخرج النائم من كابوسه، مرتجفاً من البرد والرجاء، حاملاً معي ورقةً مطبوعةً على عجل، وصورةً من المرسوم الذي نُشر على وسائل التواصل، وختمَ أملٍ خفيفٍ على صدري. لم أكن أحمل سلاحاً، ولا ورقةَ ثمنٍ، ولا سرّاً من أسرار المخابرات. كنت أحمل فقط ذاكرةً مُثقلةً بالغياب، ورغبةً بسيطةً في أن أعود إلى بيتي، إلى زوجتي، إلى طفلي الذي لم يرَ وجهي منذ أشهر. قلتُ لنفسي: "العفو عفوٌ، والدولة دولةٌ، والكلمة كلمةٌ". وكم كان جهلي جميلاً في تلك اللحظة.

عند الحاجز، لم أجد ترحيباً، ولا حتى سؤالاً عن الأوراق. وجدتُ أياديَ ممدودةً تأخذني برفقٍ ظاهر، وعيوناً تقرأني كما يقرأ الجراح تشريحاً قبل أن يباشر شقَّ اللحم. سُحبتُ إلى سيارةِ الشرطة العسكرية في بوعبد، وجلستُ على مقعدٍ معدنيّ بارد، بينما كانت العجلات تدور بنا نحو المجهول. لم يربطوني، لم يصفعوني، لم يهينوني. كان الصمتُ هو السلاح الأول، وهو الأقوى. صمتٌ يزنُك قبل أن يتلفظ باسمك، ويقيسُ نبضك قبل أن يسألك عن خطوتك الأولى.

وصلنا إلى الثكنة. أنزلوني إلى طابقٍ تحت الأرض، حيث الهواء ثقيلٌ برائحةِ العفنِ والورقِ القديم. جلستُ على كرسيّ خشبيّ مهترئ، وانتظرتُ. نصفُ ساعة. لم تكن نصفَ ساعةٍ من الزمن، بل نصفُ عمرٍ يُستنزفُ قطرةً قطرة. كنتُ أحسبُ الدقائق، أحسبُ الأنفاس،

أحسبُ كلَّ حركةٍ للباب. ثم فُتح. دخلَ عنصرٌ بزيٍّ رسمي، نظراتُه باردةٌ كالحديد المصقول. قال لي بصوتٍ لا يحمل سوى الأمر: "قوم."

لم أسأل. لم أحتج. مشيتُ خلفه كمن يمشي في حلمٍ يعرفُ نهايته ولا يستطيع إيقاظ نفسه. كان القطار قد غادر المحطة، ولم أكن أنا من قادته.

الفصل الثاني: بابُ رقمِ ٢٣٥

الاسمُ وحده كان يكفي ليُجمّدَ الدمَ في العروق: فرعُ فلسطين. لم نكن نحتاجُ إلى خرائطَ أو عناوينَ دقيقةٍ لنعرفَ إلى أين نسير. يكفي أن تُنطقَ الاسمَ في همسٍ، أو أن تسمعَه من فمِ سجينٍ سابقٍ لا يعودُ بعيونِهِ كما كانت. كان الفرعُ يُروى كحكايةٍ لا تُحكى، كجرحٍ لا يُضمّد، كغرفةٍ لا نافذةَ لها ولا بابَ خروجٍ منها. وفي ذلك اليوم، كنتُ أنا من يُدفعُ إلى عتبته، دون أن أدري أن العتبةَ ليست بدايةَ طريق، بل نهايةَ وهم.

أوقفوني في بهوٍ صغيرٍ، جدرانُه مطليةٌ بلونٍ باهتٍ كأنه يُقاومُ الرطوبةَ واليأسَ معاً. كان هناك سجانٌ يقفُ خلف مكتبٍ معدنيّ، ينظرُ إليّ كما ينظرُ الفاحصُ إلى عيّنةٍ تحت المجهر. لم يُحيِّني، لم يُسلِّم، لم يُعِرني من اسمه شيئاً. سألني بجملةٍ قصيرةٍ كضربةِ سوط: "قدش صارلك موقوف؟"

أجبتُ: "نص ساعة يا سيدي. بالشرطة العسكرية تبع البون."

رفعَ حاجبيه، كأن الإجابةَ ليست مجردَ معلومةٍ، بل تحدٍّ لسلطته. "كذاب"، قالها بنبرةٍ لا تحتملُ النقاش. ثم أردف: "أقسم بالله يا سيدي، نص ساعة. وين؟ بالبون."

صمتَ لحظةً، ثم سأل السؤالَ الذي يُطرحُ في كلِّ مرةٍ يُقادُ فيها إنسانٌ إلى هذه الأبواب: "مين واسطتك؟ مين الواسطة تبعك؟"

نظرتُ إليه، ورأيتُ في عينيه البحثَ عن خيطٍ يربطُني بشبكةٍ أوسع، بظلٍّ أكبر، برُكنٍ في النظامِ يحميني من هذا الظلام. لكنني لم أكن أحملُ خيطاً، ولا ظلاً، ولا ركناً. قلتُ له بهدوءٍ يخلو من التحدّي: "رب العالمين، ومكرمة من سيادة الرئيس."

لم يبتسم. لم يغضب. فقط حرك رأسه إشارةً لفنيٍّ يقفُ قرب الباب. "شلح أواعيك"، قالها دون أن يرفع صوته. "منين هذا القميص؟ منين البنطلون؟ منين الكنزة؟ حطّهم بكيس وربّطهم، وخدهم له."

لم أحتج. لم أبكِ. لم أشرح. خلعْتُ ملابسي كما يخلعُ الميّتُ كفنَه قبل أن يُدفن. كان الثوبُ نظيفاً، جديداً نسبياً، مُعطّراً بعطرٍ رخيصٍ اشتريتهُ قبل أسابيع، ظنّاً مني أنه يحميني من رائحةِ الخوف. لكنَّ الخوفَ لا رائحةَ له، ولا لوناً، ولا وزناً. هو فراغٌ يبتلعُ كلَّ شيء.

سُلِّمتُ إلى غرفةِ الأمانات، حيثُ وُقِّعَ على ورقةٍ بيضاءَ لم أقرأ ما كُتبَ فيها. لم أكن أملكُ هاتفاً، لا مفتاحاً، لا هويةً، لا اسماً. فقط جسداً يرتجف، ورقماً سيُكتَبُ على جبينه قريباً.

الفصل الثالث: رقمٌ بلا اسم

لم أدخل السجنَ، بل دخلتُ نظاماً. نظاماً لا يرى الإنسانَ إنساناً، بل ملفاً، ورقماً، ودرجةَ خطورةٍ، ومصدرَ معلوماتٍ محتملٍ. قُدتُ عبر ممرٍّ ضيقٍ، جدرانُه مغطاةٌ بدهانٍ أخضرَ باهتٍ، أرضيتُه مبللةٌ بماءٍ قذرٍ لا يجفّ. ثم فُتحَ بابٌ حديديّ ثقيلٌ، دُفعتُ إلى داخله، وأُغلقَ خلفي بصوتٍ معدنيّ يتردّدُ في العظام.

كنتُ في القفصِ الأول. ليس زنزانة، لا غرفة، لا سريراً، لا كرسياً. مجردُ مساحةٍ مربعةٍ محاطةٍ بقضبانَ حديديةٍ، كأنها تُعرضُ فيها الحيواناتُ قبل أن تُذبحَ. وقفتُ هناك ثلاثَ ساعاتٍ وأربعاً، لا أجلس، لا أستند، لا أتحرك. الوقتُ لم يكن يمرّ، بل يتراكمُ فوق صدري كصخرةٍ غير مرئية.

ثم فُتحَ الباب. دخلَ سجانٌ يُدعى يامن، وخلفه آخر اسمه حسن. لم يُسلِّما، لم ينظرا إليّ مباشرةً، بل مرّا بي كما يمرُّ الهواءُ الباردُ على جسدٍ عارٍ. أُخرجتُ من القفص، وقُدتُ إلى مكتبِ مديرِ الفرع. وقفتُ أمامه، رأسي منحنيٌّ نحو الأرض، كما يُعلَّمُ كلُّ من يدخلُ هذا المكان: لا تنظر، لا تتكلم، لا تتنفسُ بصوتٍ عالٍ.

سألني: "وين أواعيك؟"

أجبتُ: "برا، يا سيدي. سلّمتها بالأمانات."

فجأة، تغيّرَ نبرته. "لا، لك حيوان! بدي أواعي، ولا عم تتهم إنهم أخدوهم؟"

لم أفهم السؤالَ في البداية. ثم أدركتُ أن الحقيقةَ هنا لا تُقاسُ بالوقائع، بل بالإقناعِ أو بالانكسار. قلتُ له: "يا سيدي، حطّوني، خلّص، أنت بدك تسلمهم، أنا ما بحكي إلا باللي شفته."

نظرَ إليّ طويلاً، ثم أخرجَ قلماً من جيبه، وكتبَ على ورقةٍ بيضاءَ رقماً. "٤٩"، قالها بوضوحٍ بارد. "احفظ هذا الرقم. بس يسألك محقق، بتيجي أمك لعندك لهون، بتقول الرقم ٤٩، أو اللي حيكتبوله إياه. فهمت؟"

أومأتُ برأسي. لم أعدُ إنساناً، صرتُ رقماً. ٤٩. ليس اسماً، ليس هويةً، ليس تاريخَ ميلادٍ أو شهادةَ تعليم. مجردُ سلسلةٍ من الأحرفِ والأرقامِ تُعلَّقُ على حائطِ الزنزانة، وتُحفرُ في الذاكرةِ بالقوةِ والخوف.

حُشرتُ في غرفةٍ تُسمى "التشميس"، رغم أنها لم ترَ الشمسَ منذ سنوات. جلستُ على الأرضِ الباردة، ساعتينِ ونصفَ الساعة، أنتظرُ ما لا أعرفه. ثم فُتحَ الباب، دخلَ سجانان، واحدٌ يحملُ "بربيشاً" أخضر، والآخرُ يحملُ كلبشةً حديدية. لم يُسألوا، لم يُحاوروا. فقط ضربوا، وجروا، وسحبوني عبر الممراتِ ككيسِ خردٍ فارغٍ.

وُصلتُ إلى المهجعِ رقم ١١. فُتحَ الباب، دُفعتُ إلى الداخل، وأُغلقَ. لم أرَ وجوهاً، لا أسماءَ، لا حوارات. فقط هياكلَ عظميةً تلتصقُ بالجدران، أعيناً غائرةً كأنها حُفرتْ بيدِ الوقتِ نفسه، وأنفاساً قصيرةً لا تحملُ سوى الانتظار. كنتُ قد دخلتُ إلى فرعِ فلسطين، وكنتُ قد انتهيتُ من عالمِ الأحياء.

الفصل الرابع: زنزانةُ الظلِ والاعترافِ

الوحدةُ ليست غيابَ الناس، بل حضورُ الصوتِ الداخليّ الذي لا يتوقفُ عن الترديدِ والندمِ والسؤالِ الذي لا جوابَ له. في المنفردةِ رقم ٣٣، لم أكن وحدي، كنتُ مع ذاكرتي،

ومع جسدي الذي بدأ يخونُني، ومع الخوفِ الذي صارَ رفيقاً لا يفارقُني حتى في النومِ إن وُجدَ نومٌ في هذا المكان.

كانت الغرفةُ لا تتجاوزُ مترينِ في مترين، سقُفها منخفضٌ كأنه يضغطُ على الصدرِ ليمنعَ الهواءَ من الدخولِ الكامل. لا نافذة، لا بابَ زجاجي، لا ساعة، لا ضوءٌ طبيعيّ. فقط فتحةٌ صغيرةٌ في الأعلى، تُدخلُ هواءً بارداً مختلطاً برائحةِ العرقِ والقيحِ واليأس. وكان هناك كرسيٌّ معدنيّ مُثبّتٌ بالأرض، وحلقةٌ حديديةٌ في السقف، تُعلَّقُ عليها الأيدي والأرجلُ فيما يُسمّى "الشبح". لم أكن أعرفُ الاسمَ حينها، لكنني عرفتُ المعنىَ بجلدي.

طُلبتُ إلى التحقيقِ الأول. صعدتُ الدرجَ الخرسانيّ، جارىَني السجانُ بقبضةٍ حديديةٍ على كتفي. دُفعتُ إلى غرفةٍ صغيرةٍ، مكتبٌ خشبيّ، كرسيان، ومحققٌ يجلسُ خلفهما بوجهٍ لا يحملُ تعبيراً. لم يُحيِّني، لم يُقدّمِ الماء، لم يسأل عن الاسمِ أو العمرِ أو المهنة. بدأَ مباشرةً:

"عامل تسوية بالـ ٢٠١٨؟ متوقف بفرع أمن الدولة؟"

أجبتُ: "مضبوط يا سيدي."

فجأة، تغيّرَ كلُّ شيء. "مضبوط يا عرصى؟ وخايف ومضبوط؟"

لم أردّ. لم أنكر. لم أجدُ ما أقوله. الجسدُ يعرفُ الحقيقةَ قبل اللسان، والعقلُ يعرفُ أن الإنكارَ هنا ليس شجاعةً، بل انتحاراً بطيئاً. قال المحقق: "شبحوه ساعة ونص."

أُخرجتُ من الغرفة، رُفعتُ أيدي، كُلبشتُ رجلي، عُلقْتُ بالسقفِ بحيثُ لا تلمسُ قدماي الأرضَ إلا بمسافةِ إصبعٍ واحد. كان الألمُ في البدايةِ حاداً، كسكينٍ يقطعُ العضلاتِ من الداخل. ثم صارَ ثقيلاً، كصخرةٍ تترسبُ في العظام. ثم صارَ فراغاً. لم أعدُ أحسّ بجلدي، لم أعدُ أعرفُ إن كنتُ حياً أو ميتاً، فقط كنتُ أنتظرُ اللحظةَ التي يفتحُ فيها البابُ، أو اللحظةَ التي يتوقفُ فيها القلبُ عن الخفقان.

نزلوني. لم يُعطوني ماءً، لم يُعطوني خبزاً. فقط ألقوني على الأرضِ الباردةِ، وتركوني أنزفُ صمتاً. ثم طُلبتُ إلى التحقيقِ الثاني. نفسُ الغرفة، نفسُ المكتب، محققٌ آخرُ بوجهٍ لا

يختلفُ عن الأول. قال لي: "مشكل عصابة مافيا، مؤلفة من ١٤ شخص. انت لله، يا سيدي، أنا ما بحكي إلا باللي عايشه."

ضحكَ ضحكةً قصيرةً جافةً، كأنها تخرجُ من حنجرةٍ صدئة. "أنا بحقق مع ١٠٠ شخص، ومع ١٠٠٠ شخص. يحق لي يموتوا خمسة، ما عندي مشكلة. تعتبر أنت من خمسة. تحب تكون من الخمسة؟ ما عندي مشكلة. طلعوه."

أُخرجتُ، ضُربتُ، رُفعتُ، أُعيدتُ إلى المنفردة. لم أعدُ أعرفُ إن كنتُ أنامُ أم أُغمى عليّ، أم إن كان النومُ نفسه مجردَ وهمٍ في هذا المكان. الوقتُ لم يعدْ يقاسُ بالساعات، بل بدقاتِ القلبِ، وأنفاسِ الصداعِ، وقطراتِ العرقِ التي تسيلُ على الأرضِ ثم تجفّ دون أن تتركَ أثراً.

الفصل الخامس: خبزُ اليأسِ ومربّى الصمتِ

في المعتقلِ، لا يُقاسُ الجوعُ بعددِ الساعاتِ التي تمضي دون طعام، بل بطبيعةِ الوجبةِ التي تُقدَّمُ لك عندما يقرّرُ النظامُ أنك لا تزالُ تستحقُ البقاءَ حياً. في المنفردةِ رقم ٣٣، كان الفطورُ عبارةً عن نصفِ رغيفٍ من الخبزِ اليابسِ، وربعِ كأسٍ من الماءِ الدافئِ، وثلاثِ حباتِ زيتونٍ تُعدُّ بالعددِ لا بالوزنِ. وإذا كان الحظُ حليفاً، يأتونَ بملعقةٍ صغيرةٍ من مربّى التينِ أو "فرمة حلوة"، تُوزَّعُ على رأسِ السكينِ أو طرفِ الإصبع، وتُتركُ على الحائطِ لتجفّ قبل أن تصلَ إلى الشفاهِ.

لم أكن أجوعُ للجسدِ وحده، كنتُ أجوعُ للمعنى. لماذا يُطعِموننا؟ لماذا لا يتركوننا نموتُ بصمتٍ؟ لماذا هذا التوزيعُ الدقيقُ للوجعِ والبقاء؟ ثم فهمتُ: ليس الخوفُ من الموتِ هو ما يُبقيهم أحياء، بل الخوفُ من أن يموتوا دون أن يُعترفَ لهم بجريمةٍ لم يرتكبوها. الاعترافُ هنا ليس اعترافاً، بل طقسُ طهارةٍ للنظامِ نفسه، يثبتُ به أنه يملكُ الحقيقةَ، حتى لو كانت مُختلقةً، مُشوّهةً، مُستخرجةً بالعظامِ والدمِ والوقت.

في أحدِ الأيام، حُطِّمتْ ركبتي بسببِ الوقوفِ الطويلِ والجلوسِ القسريّ. تقيّحَ الجرحُ، انتفخَ، ثم بدأَ يفرزُ سائلاً أصفرَ مختلطاً بالدمِ والقيحِ. لم يُعطوني مرهماً، لم يُنظّفوه، لم

يهتمّوا به. فقط كنتُ أراه ينمو، كنباتٍ سامٍّ في تربةٍ قاحلة. وفي ليلةٍ باردةٍ، سمعتُ صوتَ سجانٍ يضحكُ من بعيدٍ وهو يشيرُ إلى جرحي: "شوفوا الكلب كيف فطس!". لم أردّ. لم أبكِ. فقط وضعتُ إصبعي على الجرحِ، أحسستُ بالدفءِ الخفيفِ للقيحِ، وأدركتُ أن الجسدَ هنا ليس وعاءَ روح، بل مجردُ آلةٍ تُستنزفُ حتى تتوقفَ عن العمل، أو حتى تُنتجَ الاعترافَ المطلوب.

لم أكن وحدي في هذه الزنزانةِ الجسديةِ والنفسية. من خلفِ الجدرانِ، كنتُ أسمعُ أنينَ آخرين، أصواتَ ضربٍ متقطعةٍ، صراخاً يُقطعُ فجأةً، ثم صمتاً أثقلَ من الصراخِ نفسه. في الصباحِ، يفتحُ السجانُ البابَ، يدقّ على الحائطِ بصوتٍ رتيبٍ، ويقولُ بصوتٍ عالٍ: "في عندي مات شخص. ٣٠ فس، ياب شو تت". لا أحدُ يجيب. لا أحدُ يسأل. فقط يُفتحُ البابُ في المساءِ، يُسحبُ الجسدُ في كيسٍ أسودَ، يُسحَبُ السحّابُ، يُحملُ إلى الخارجِ، ولا يعودُ أحدٌ يسألُ عن الاسمِ، أو العمرِ، أو ما إذا كان له ولدٌ ينتظرُه في بيتٍ لا يعرفُ إن كان الأبُ حياً أو ميتاً.

هكذا يموتُ الناسُ هنا. ليس برصاصةٍ، لا بسمٍّ، لا بمرضٍ. يموتونَ بالانتظارِ، بالصمتِ، بالجوعِ البطيءِ، وبالاعترافِ الذي لا يُنقذُ أحداً، بل يُثبتُ فقط أن الآلةَ تعملُ كما صُمِّمتْ.

الفصل السادس: الخروجُ إلى صمتٍ أعمقَ

لم أعرفْ متى خرجتُ. لم يكن هناك إعلانٌ، لا ورقةُ إفراج، لا توقيعات، لا ختمُ "بريء". فقط فُتحَ البابُ في ليلةٍ باردةٍ، قالَ لي السجانُ: "قوم، امشي". مشيتُ. لم أنظرْ خلفي. لم أسألْ عن رقمي، لا عن ملابسي، لا عن حقيبتي التي لم تُسلَّمْ إليّ أبداً. فقط مشيتُ في الممراتِ الطويلةِ، صعوداً على الدرجِ الخرسانيّ، عبرَ البهوِ الضيقِ، إلى البابِ الحديديّ الثقيلِ الذي فُتحَ لي للمرةِ الأولى منذُ أشهرٍ دونَ أن يُسحبَ بيديّ.

خرجتُ إلى الشارعِ. الهواءُ كان بارداً، لكنه لم يكن منعشاً. كان ثقيلاً برائحةِ العوادمِ والغبارِ والذاكرةِ التي لم تتركْ مكاني. نظرتُ حولي، لم أتعرفْ على الألوانِ، لم أصدقْ أن السماءَ لا

تزالُ زرقاء، أن الأشجارَ لا تزالُ قائمة، أن الناسَ لا يزالون يمشونَ في الشوارعِ كأن شيئاً لم يحدث. كنتُ كمن يخرجُ من تحتِ الماءِ بعدَ أن نسيَ كيف يتنفسُ فوقَه.

لم أذهبْ إلى البيتِ أولاً. لم أبحثْ عن زوجتي، لا عن أصدقائي، لا عن أوراقِ الهويةِ التي ضاعتْ مع الملصقاتِ والملفاتِ والأماناتِ التي لم تُردْ. فقط سألتُ عن ولدي. كان اسمي قد حُذفَ من الذاكرةِ الرسمية، لكن اسمَه كان لا يزالُ حياً في صدري، كنبضٍ أخيرٍ لم يتوقفْ بعد.

مشيتُ في الأزقةِ، عندَ كلِّ خطوةٍ كنتُ أسمعُ صوتَ السجانِ يقول: "٤٩". عندَ كلِّ زاويةٍ كنتُ أرى الظلَّ يمتدُ خلفي، طويلًا، مشوهاً، كأنه يريدُ أن يُعيدني إلى الزنزانة. ثم وصلتُ إلى الحارةِ التي كانتْ فيها بيتُنا. وقفتُ أمامَ البابِ، لم أجرؤ على الدقِّ. فقط سمعتُ صوتاً من الداخلِ، خافتاً، متقطعاً، كأنه طفلٌ يبكي في حلمٍ لا يستطيعُ إيقاظَ نفسه.

فتحتُ البابَ ببطءٍ. كان يجلسُ في الركنِ، ظهرُهُ للجدارِ، عينيهِ مغمضتينِ، يديهِ تتحركانِ ببطءٍ كأنه يمسحُ شيئاً غيرَ مرئيٍّ عن وجهه. لم ينظرْ إليّ. لم يتكلمْ. فقط همسَ بكلمةٍ لم أفهمْها، أو لعلها كانتْ اسمي، أو لعلها كانتْ مجردَ صوتٍ يخرجُ من فمٍ نسيَ كيف يُشكّلُ الكلماتِ.

انهارتُ. لم أبكِ، لا صرختُ، لا توسلتُ. فقط جثوتُ على ركبتيّ، وضعتُ يدي على رأسه، وأحسستُ بوزنِ العالمِ كلِّه يسقطُ على كتفيّ. لم أعدْ خائفاً من السجنِ، لا من التعذيبِ، لا من الرقمِ ٤٩. كنتُ خائفاً من أن أنسى. كيف أُعيدُ بناءَ إنسانٍ كانَ لا يزالُ طفلاً حينَ سُلِبَ منه أبوه، وحينَ سُلِبَ من أبويهِ طفولتُه.

الفصل السابع: طفولةٌ مُعلَّقةٌ على حافّةِ النومِ

لم يكن هناك وقتٌ للبكاءِ، ولا للندمِ، ولا للخطبِ الرنانةِ عن العدالةِ والحريةِ والكرامةِ. كان هناك فقط وقتٌ ضيقٌ، كضيقِ المنفردةِ نفسها، يجبُ أن يُملأَ بحركةٍ سريعةٍ، بقرارٍ لا يحتملُ التأجيلَ، بخطوةٍ واحدةٍ قد تكونُ الأخيرةَ أو الأولى.

حملتُه بينَ ذراعيّ، لم يكن يزنُ شيئاً، أو لعلَّ الوزنَ كلَّه كانَ في عينيهِ الغائرتينِ، في يديهِ المرتعشتينِ، في صمتِهِ الذي كانَ أثقلَ من كلِّ الصراخِ الذي سمعتُه في فرعِ فلسطين. خرجتُ به إلى الشارعِ، وقفتُ عندَ الحافةِ، أبحثُ عن سيارةٍ، عن تاكسي، عن دراجةٍ ناريةٍ، عن أيِّ عجلةٍ تدورُ بنا بعيداً عن هذا المكانِ الذي كانَ بيتاً ثم صارَ مقبرةً للذاكرةِ.

لم تتوقفْ سيارةٌ. لم يمرّ تاكسي. لم يسمعْ أحدٌ صوتَ طفلٍ يُحملُ بينَ ذراعي رجلٍ يرتجفُ من البردِ والخوفِ والذنبِ الذي لم يرتكبه. ثم جاءَ شابٌّ على دراجةٍ ناريةٍ، توقفَ عندَ الحافةِ، نظرَ إليّ، نظرَ إلى الطفلِ، لم يسألْ عن الاسمِ، لا عن القصةِ، لا عن المالِ. فقط قال: "اركب."

ركبتُ. أمسكتُ بولدي بينَ يديّ، أحسستُ بنبضه الخفيفِ على صدري، كأنه خيطٌ رفيعٌ يربطُني بالحياةِ بعد أن كادتْ تنقطع. انطلقتْ الدراجةُ في الشوارعِ المظلمةِ، عجلاتُها تلمسُ الأرضَ كضرباتِ قلبٍ متسارعةٍ. لم أكن أعرفُ الطريقَ إلى مشفى حمدان، لكنني كنتُ أعرفُ أن التأخيرَ دقيقةً واحدةً قد يعني الفرقَ بينَ أن ينامَ الطفلُ، وبينَ أن ينامَ إلى الأبد.

وصلنا. أُدخلنا إلى غرفةِ الطوارئِ، أُجريَ الفحصُ، كُتبتْ الوصفةُ، أُعطيتْ الجرعةُ الأولى. جلستُ بجانبِ السريرِ، أمسكتُ بيدِه الصغيرةِ، أحسستُ ببطءِ نبضه، ببطءِ تنفسه، ببطءِ عودتهِ إلى العالمِ الذي سُلِبَ منه دونَ أن يُستأذنَ. لم أنمْ تلك الليلةِ. لم أغمضْ عينيّ. فقط كنتُ أراقبُ صدرَه يصعدُ وينزلُ، أراقبُ جفنيه تتحركانِ في حلمٍ لا أعرفُ ماذا فيه، أراقبُ يدَه الصغيرةَ تمسكُ بأصبعي كما لو أنها تخافُ أن يضيعَ منها مرةً أخرى.

قالَ الطبيبُ: "بيحتاجِ هدوء، مهدئات، وقت. بيرجع تدريجياً. لا تخاف، بيرجع". لم أقلْ له إن الخوفَ ليس من الموتِ، بل من النسيانِ. ليس من الجرحِ، بل من الندبةِ التي لا تزولُ. ليس من السجنِ، بل من أن يصبحَ الولدُ نسخةً مني، يحملُ الرقمَ ٤٩ في ذاكرتهِ دونَ أن يعرفَ كيفَ كُتبَ عليه.

الفصل الثامن: ما تبقى من الاسمِ

في الصباحِ، فتحَ عينيْه. لم ينظرْ إليّ فوراً، بل حدّقَ في السقفِ، ثم في الجدارِ، ثم في يدهِ الصغيرةِ التي لا تزالُ تمسكُ بأصبعي. ثم التفتَ إليّ، همسَ بكلمةٍ لم أسمعها بوضوحٍ، أو لعلها كانتْ "بابا"، أو لعلها كانتْ مجردَ صوتٍ يخرجُ من فمٍ تَعوّدَ الصمتَ في الزنزانةِ التي لم يدخلها لكنه عاشَ فيها من خلالِ غيابي.

جلستُ بجانبه، لم أتكلّمْ، لم أبكِ، لم أعدْ أسألُ عن العدالةِ أو عن المسؤولينِ أو عن الملفاتِ المغلقةِ أو عن العفوِ الذي كانَ مجردَ فخٍ من فولاذٍ وورقٍ مطبوع. فقط كنتُ هناك. موجوداً. حياً. أتنفسُ نفسَ الهواءِ الذي يتنفسه، أحسُّ بنفسِ الدفءِ الذي يحاولُ العودةَ إلى أطرافه، أراقبُ نفسَ العينينِ اللتينِ بدأتا تستعيدانِ بريقَهما ببطءٍ مؤلمٍ وجميلٍ في آنٍ واحدٍ.

لم أكنْ بطلاً. لم أكنْ ضحيةً بالمعنى الذي تُصوّره الخطاباتُ أو التقاريرُ أو الشهاداتُ الإعلاميةُ. كنتُ إنساناً دخلَ غرفةً لا نافذةَ لها، خرجَ منها بجلدٍ متشقّقٍ وذاكرةٍ مثقوبةٍ، لكنه لم يخرجْ فارغاً. خرجَ يحملُ رقماً، خرجَ يحملُ جرحاً، خرجَ يحملُ طفلاً عادَ إليه متأخراً، لكنه عادَ.

اليومَ، حينَ أسمعُ كلمةَ "عفوٍ" على التلفازِ، أو حينَ أرى إعلاناً عن تسويةٍ أو مصالحةٍ أو صفحةٍ جديدةٍ، لا أضحكُ، لا أبكي، لا أغضبُ. فقط أغمضُ عينيّ، أرى الزنزانةَ رقم ٣٣، أرى الرقمَ ٤٩ مكتوباً على الحائطِ، أرى يدَ طفلي تمسكُ بأصبعي في الليلةِ التي لم أنمْ فيها، وأقولُ لنفسي: "لم أنجُ لأنني بريء، نجوتُ لأنني لم أتنسَ من أنا."

الأسماءُ تُسحبُ، تُستبدلُ، تُحذفُ من الملفاتِ، تُعلَّقُ على القضبانِ، تُدفنُ في الأكياسِ السوداءِ. لكن الذاكرةَ لا تُدفنُ. الجسدُ ينسى. الألمَ حينَ يبرأُ الجرحُ، لكن الروحَ لا تنسى. لحظةَ التعليقِ على السقفِ، لا تنسى. قطرةَ المربّى على الحائطِ، لا تنسى. صمتَ الطفلِ الذي عادَ إليه أبوه متأخراً لكنه عادَ.

هذه القصةُ ليست شهادةَ اتهامٍ، لا طلبَ انتقامٍ، لا خطابَ شجاعةٍ. هي مجردُ تسجيلٍ لإنسانٍ دخلَ متاهةً، مشى فيها بلا خريطةٍ، خرجَ منها بقليلٍ من الجلدِ، وكثيرٍ من الذاكرةِ، ووالدٍ لا يزالُ يتعلّمُ كيفَ ينامُ دونَ أن يخافَ من إغلاقِ البابِ خلفه.

وإذا كانَ هناك درسٌ واحدٌ في كلِّ هذا، فليسَ في السياسةِ، ولا في العفوِ، ولا في الملفاتِ المغلقةِ أو المفتوحةِ. الدرسُ في أن الإنسانَ، حتى في أدنى درجاتِ السقوطِ، يظلُّ قادراً على أن يحافظَ على شيءٍ واحدٍ لا يُسرقُ، لا يُكسرُ، لا يُستبدلُ برقمٍ أو بملفٍ أو بقرارٍ رئاسيٍّ يُنشرُ على التلفازِ ويُنسى في الغدِ.

ذلك الشيءُ هو الاسمُ. ليس الاسمُ الذي كُتبَ على ورقةِ التسليمِ، ولا الذي حُذفَ من السجلاتِ، ولا الذي يُنادى به في الغرفِ المغلقةِ. الاسمُ الذي يبقى حينَ تُطفأُ الأنوارُ، حينَ يُغلقُ البابُ، حينَ يُنسى الرقمُ ٤٩، حينَ يعودُ الطفلُ إلى النومِ بسلامٍ.

ذلك الاسمُ هو أنا. وهو هو. وهو ما بقيَ منّا حينَ ذهبَ كلُّ شيءٍ آخرُ.

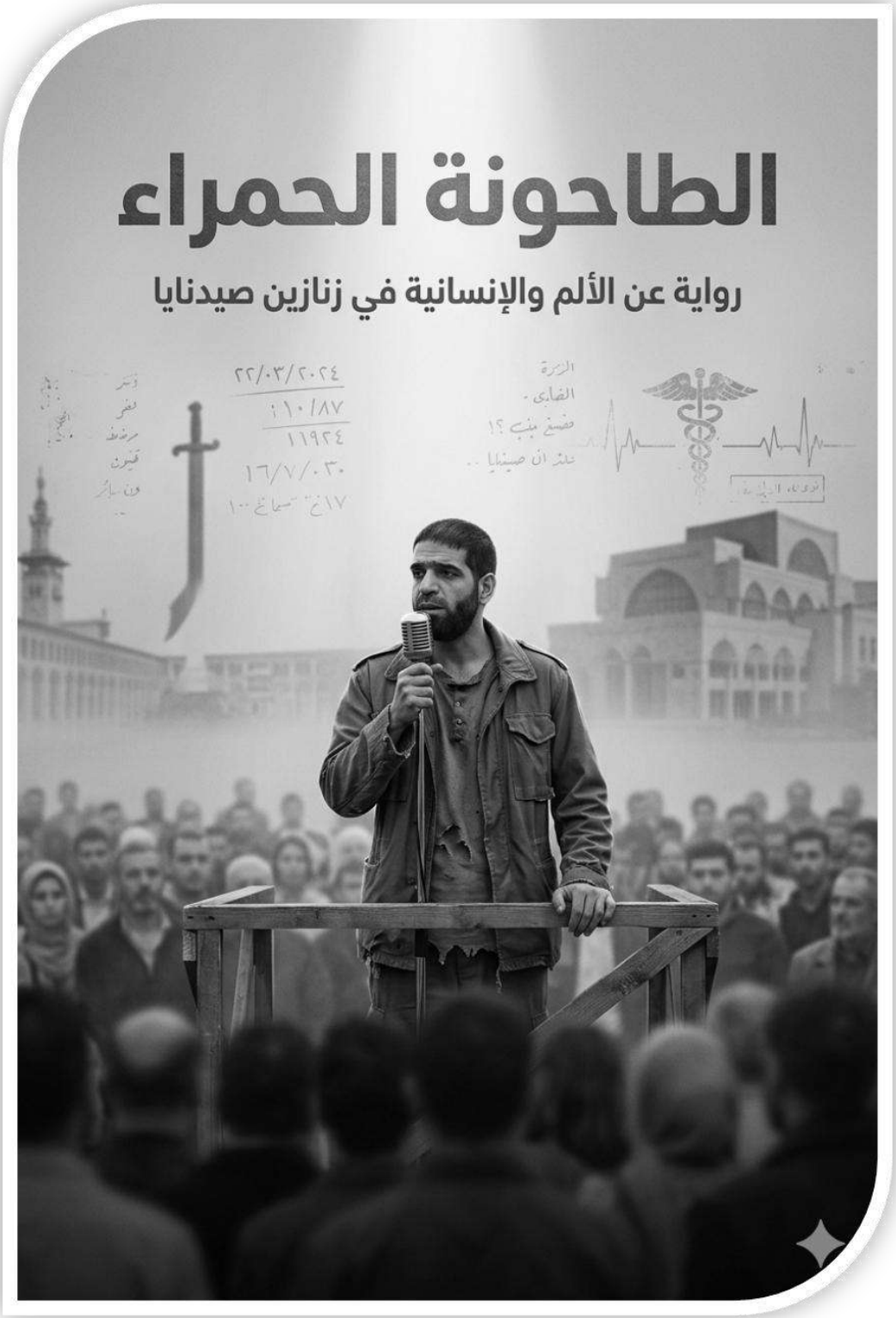
الطاحونة الحمراء
رواية عن الألم والإنسانية في زنازين صيدنايا

الفصل الأول: البداية

في ذلك المساء البارد من شتاء دمشق، حين كانت الرياح تعوي بين أروقة جبل قاسيون، كان أيوب الصفراوي يجلس على حافة كرسيه الخشبي، ينظر إلى النافذة المطلة على شارع لم يعد يعرفه بعد تسع سنوات قضاها في بطن الوحش. كانت يده ترتجف قليلاً وهو يرفع كأس الشاي إلى شفتيه، ليس من برد، بل من ذكرى لا تزال عالقة في عظامه كالرصاص الذي لم يُستخرج بعد.

كان الرجل في التاسعة والثلاثين من عمره، لكن وجهه بدا أكبر بعقد كامل. عيناه اللتان كانتا تعكسان ذات يوم بريق التاجر الشاب صارتا الآن عميقتين، تحملان في أعماقهما ظلالاً لا تُمحى. جلس أمامه المحاور، شاب في الثلاثين، يحمل دفتراً صغيراً وقلمًا، وقد بدا عليه الترقب والخوف معاً، كمن يستعد لسماع ما لا تطيق العقول احتماله.

"صار في انتهاكات جنسية بسجن صيدنايا،" قال أيوب بصوت خافت، وكأن الكلمات نفسها تخاف أن تُسمع. "عندهم سجن اسمه سجن الطاحونة الحمراء... يلي مات من الجوع أكثر من اللي مات من القتل".

كانت الجملة الأولى كالصاعقة. المحاور أسدل قلمه على الدفتر، وعيناه شاخصتان إلى أيوب الذي كان يحدق في الفراغ، يرى ما لا يراه الآخرون.

"كان حلم حياتي،" تابع الرجل، وفجأة ارتفع صوته قليلاً، ليس غضباً، بل مرارة متراكمة طوال سنين. "كان حلم حياتي إني يوم من الأيام أمسك رغيف خبز كامل".

خرسَة لحقت الكلمات. في الخارج، كانت دمشق تعيش فجراً جديداً بعد التحرير، لكن في داخل ذلك البيت المتواضع في حي الميدان، كان الزمن قد توقف عند لحظات لا تُنسى.

"أغلب مرضى السجن معهم سل، وأغلبهم فيهم كوليرا،" قال أيوب وكأنه يسرد وصفة طبية. "فعملت حساب إني في يوم من الأيام يكشفوا أمري، ويقتلوني".

ولم يكن يعلم يومها أن الحقيقة ستكون أشد مما تخيل، وأن أسطره القادمة ستحكي قصة تحول رجل درس الأدب الفرنسي- إلى طبيب بلا شهادة، يداوي جراح المساجين بأدوات بدائية الصنع، وفي قلبه إيمان لا يتزعزع بأن الإنسانية هي أعظم ما في هذا العالم، حتى في أحلك زنازينه.

الفصل الثاني: الأيام الأولى

كان ذلك في ربيع ٢٠١١، حينما كان أيوب الصفراوي، ابن الميدان الدمشقي، يعيش حياة تاجر مزدهر. كان والده - رحمه الله - قد رباه على حب العلم والتجارة معاً، فدرس الأدب الفرنسي- في الجامعة، ثم انتقل إلى عالم البيع والشراء برغبة جامحة في النجاح. ونجح بالفعل؛ فكان له محل خضرة وفواكه في جرمانا، ومكتب لبيع السيارات، وشراكة في مركز كرم لطب الأسنان في قلب الميدان.

كان يومها زوجاً محباً، وأباً لولد وبنت. يخرج صباحاً إلى متاجره، يديرها بحكمة وحنكة، ويعود مساءً إلى بيته الذي يملؤه ضحكات الأطفال وصخب الحياة. كان طموحه أن يوسع أعماله، أن يبني إمبراطورية صغيرة تليق بدمشق التي عشقها منذ نعومة أظفاره.

لكن القدر كان له رأي آخر.

جاء الخلاف على محل تجاري تابع للأوقاف، محل ذو موقع استراتيجي في الميدان، كان يريد أيوب أن يوثقه رسمياً. "بتعرف محلات الأوقاف،" كان يقول لأصدقائه، "الإيجار رخيص والمحل التجاري كبير، والربح كبير جداً." لكن الخلاف مع بعض الأشخاص - الذين كانوا يمتلكون صلات بعصابات الدفاع الوطني، بتلك "الشبيحة" التي حكمت دمشق في ظل النظام البائد - تحول إلى كارثة.

في إحدى الليالي، كان أيوب في بيته، يقرأ كتاباً بالفرنسية، ربما لدوستويفسكي أو لبروست، لا يذكر تماماً. كان ينساب في عوالم الأدب كما كان يفعل دائماً، عندما سمع طرقاً عنيفاً على

الباب. قبل أن يفتح، تداعى الباب نفسه من مكانه، ودخل عليه خمسة رجال ملثمون بأقنعة سوداء، بأيديهم عصي ومسدسات.

"سريّة ٢١٥، أمن عسكري،" قال أحدهم بصوت جاف، لا يحتمل نقاشاً. "أبو كرم؟ أنت أيوب الصفراوي؟"

تقدم أحدهم، شاب في مقتبل العمر، لكن عينيه كانتا خاليتين من أي روح. "اللي صار معك بالمحل معروف،" قال. "في ناس كبار بدهم يقابلك".

اقتادوه إلى جبل قاسيون، إلى سجن لم يكن أيوب قد سمع به من قبل: "الطاحونة الحمراء."

لم يكن هذا السجن كغيره. كان صغيراً، عبارة عن ثماني غرف فقط، تابع لما كان يسمى بالحرس الجمهوري. لكنه كان، كما سيكتشف لاحقاً، لا يقل عن صيدنايا تعذيباً وقتلاً. بل كان في بعض جوانبه أشد.

"سجن الطاحونة الحمراء،" كان يشرح أيوب للمحاور لاحقاً، وصوته يرتجف رغم محاولاته التماسك. "عبارة عن سجن سري، يلي هو لا يقل عن صيدنايا. الناس بتحكي عن صيدنايا، بس انما هذا السجن من السجون يلي لا يقل عنه بالتعذيب والقتل بكل شيء".

هناك، في زنزانة لا تزيد مساحتها عن أمتار قليلة، قضى أيوب أياماً لا تُحصى. التحقيق، الضرب، الصعق. وكل سجان كانوا يسمونه "جعفر"، ليس لأن هذا اسمه الحقيقي، بل لأنهم كانوا يختبئون خلف أقنعة، وكان جعفر هو الاسم الوهمي الذي يوحد كل جلاديهم.

"بيلبس قناع، هيك الطاقية اللي بتنزل مفتوحة من هون عند عيونه ومن هون،" أشار أيوب إلى وجهه، "بس ما بتشوف منه شيء. وكلهم اسمهم جعفر".

كانوا يريدون المال، بالطبع. لقد سمعوا عن المحل، عن أرباحه. أرادوا حصتهم منه. لكن أيوب، رغم كل الضرب، لم يخضع. ليست بطولة، كما يقول، بل عناد، أو ربما إيمان بأنه لو أعطاهم اليوم، سيعودون غداً ليأخذوا المزيد.

وبعد أيام من التحقيق، نقلوه إلى صيدنايا.

هناك، في ذلك السجن الذي صار عنواناً للإرهاب السوري، بدأت قصة أخرى.

"اللي بيروح على صيدنايا الأحمر،" كان أيوب يقول، ويداه ترتجفان كأوراق الخريف، "خلّص هن بيعملوا حسابهم أنه هذا الزلمة بده فترة من الوقت ويموت. أما بموت بسل، أو بيموت بكوليرا، أو بيموت جوع".

وهكذا، في سجن صيدنايا، ذلك الصرح المظلم الذي شيدته أيادي الظلم، بدأ أيوب الصفراوي، تاجر الخضرة، وخريج الأدب الفرنسي، رحلته مع الموت كل يوم، ومع الحياة كل صباح.

الفصل الثالث: جدران من زنزانة

لم يكن هناك لمبات في غرف سجن صيدنايا عام ٢٠١٧. الظلام كان صديقهم الوحيد، كظلمة القبور التي يتوقع المرء كل لحظة أن يزورها. كان المساجين اثنين وعشرين في زنزانة واحدة، يتنفسون الهواء نفسه، ويتبادلون الأمراض، ويشتركون في رغيف الخبز الواحد كل أربعة أيام.

"يحط لك رغيف خبز لأربعة وعشرين زلمة،" كان أيوب يشرح بصوت خافت، كمن يخشى أن تسمعه الجدران وتحكي الأسرار. "بتقسم بيطلع للواحد ربع رغيف كل يومين والثالث... مربع خبز معفن".

كان الجوع سيد الموقف. مات من الجوع في صيدنايا عام ٢٠١٧ أكثر مما مات من القتل. جثث تتراص في الأروقة، عيون زجاجية تحدق في الفراغ، أرواح ترفرف خارج الأجساد قبل أن تغادرها تماماً.

"مرقت علينا أيام،" كان يقول أيوب، وصوته يخنقه الحنين إلى لقمة خبز. "أنا واحد من الناس عديت البرغل يلي ممكن يكون حصتك من الأكل. هيك طلعوا لي ثمانية عشر حبة برغل. قدامي شب، أبو البراء اسمه، طلع له سبعة عشر".

يتخيل القارئ ذلك المشهد: أربعة وعشرون رجلاً بالغاً، يحيطون بطبق من البرغل، يعدون الحبات الواحدة تلو الأخرى، كأنهم أطفال يلهون. لكنهم لم يكونوا يلهون. كانوا يقسمون الطعام بقدر ما يقسمون الألم.

الجوع لا يوصف، كان أيوب يكرر هذا. "ما في إنسان يوصفه، ولا في إنسان يحكي فيه غير اللي بيعيش فيه. والله ما في حدا بحس فيه غير اللي بيمرق بالجوع".

لم يكن الجوع وحده. كان هناك العطش أيضاً، والبرد، والأمراض. السل ينتشر كالنار في الهشيم، والكوليرا تأتي كالسيل الجارف. لكن الأشد من كل ذلك، ربما، هو الإذلال.

"أطلع عالحمام بالزلط، بدون ثياب نهائياً، حتى البوكسر ما بتلبس شيء. طلعة الحمام هي عبارة عن عقوبة. يجيبوا سائل كتوب الممر، ويوقفوا عشرين خمسة وعشرين شرطي، ويبلشوا ضرب بالعالم".

يموت ناس في طلعة الحمام. ويموت ناس في طلعة الحلاقة. كل شيء في صيدنايا كان مميتاً. كل حركة يمكن أن تكون الأخيرة. كل نظرة يمكن أن تكون الوداع.

ومع ذلك، في تلك الظلمة الحالكة، في ذلك الجوع المتواصل، في ذلك الخوف المزمن، كان هناك شيء واحد لم يستطع النظام أن يسلبهم إياه: إنسانيتهم. والعجب العجاب أن تلك الإنسانية هي التي كادت أن تودي بحياة أيوب، قبل أن تمنحه هبة جديدة للحياة.

الفصل الرابع: ولادة طبيب

جاءت البداية من زيارة الأهل.

كان أيوب قد مضى في السجن ثلاثة أو أربعة أشهر. كان قد أقنع السجانين بأنه "خضرجي"، بائع خضرة، لا أكثر. لكن الحقيقة، كالعادة، كانت أكثر تعقيداً.

في الزيارة، تلك الطقوس المؤلمة التي كان يمر بها المساجين وأهاليهم، وقف أيوب خلف الشبك الحديدي، يرى أباه وزوجته وابنه الصغير - الذي كان في الصف الثاني الابتدائي - من بعيد. كان الولد يشبهه كثيراً، وجه مستدير، عينان واسعتان، وشعر أسود مجعد.

"طمّنوني شلونكم؟" سألهم أيوب، مجبراً على التمثيل، على قول إنه بخير، وإنه لا ينقصه شيء، وإن الرياضة هي التي جعلته نحيفاً هكذا.

لكن الابن، ذلك الطفل البريء الذي لا يعرف من الدنيا إلا أن والده رجل عظيم، انفجر فجأة: "بابا دكتور أسنان"!

صُعق أيوب. شعر وكأن الأرض تهتز تحت قدميه. نظر إلى أبيه الذي كان يبتسم بفخر، وهو يقول للشرطي الذي كان يقف بجانبه: "ابني عنده مركز طبي".

ذلك الشرطي، الذي كان قد سأل أيوب في الحلاقة قبل أسابيع عن عمله، وكان أيوب قد أقنعه بأنه تاجر خضرة، نظر إليه الآن بعين مختلفة. كانت عيناه تقول: "كذبت عليّ".

"وه،" قال الشرطي بصوت هادئ مخيف، "دكتور أسنان؟ يعني أنت دكتور؟"

حاول أيوب التراجع، لكنه كان قد وقع في الفخ. أمامه خياران: إما أن يستمر في الكذب، فيقول إن ابنه مخطئ، وإنه لا يعرف شيئاً عن الطب، لكن من سيصدقه؟ ابنه وأبوه قد شهدا ضده. أو يعترف، ويواجه عواقب هذا الاعتراف.

وبعد أن انتهت الزيارة، وجد نفسه في يد ذلك الشرطي نفسه. كان الهروان - تلك العصاة التي يستخدمونها في الضرب - ترتطم بظهره، والصوت الجاف يسأل: "شو قلت لي بتشتغل؟ قلت خضرجي، ها؟"

كاد يكذب مرة أخرى. لكن شيئاً ما في داخله - ربما ذلك الإحساس بعبث أي مقاومة - جعله يقول الحقيقة: "عنّي مركز طبي، سيدي. شريك في مركز لطب الأسنان".

الشرطي سكت للحظة. ثم ضحك. ضحكة جافة، كصرير باب صدئ.

"طيب،" قال ببطء. "يعني أنت تفهم بالطب شوي؟"

"لا، والله يا سيدي، أنا ما عندي شهادة طب. أنا دارس أدب فرنسي، وتاجر، بس مش مركز طب باسمي و...

قطعه الشرطي بضربة خفيفة على كتفه. "ما يهم،" قال. "المهم إنك رح تساعدنا. رئيس مهجع. من اليوم، أنت مسؤول عن صحة المواقيف في هاد القسم".

أصر أيوب. رفض. توسل. أقسم أنه لا يعرف شيئاً، أنه سيتسبب بموت الناس لا بعلاجهم. لكن كل كلماته كانت كالماء يصب على صخر جلمود. الشرطي كان قد قرر.

"إذا ما اشتغلت،" قال ببرود، "راح أعتبرك عاصي للأوامر. وبتعرف شو يعني عقوبة العصيان بهالمكان؟"

عرف أيوب. رأى بأم عينيه ما يعني.

فعمل ما كان عليه أن يفعل.

قبل أن يبدأ، كان هناك خوف. خوف من الجهل. خوف من الفشل. خوف من أن يكون سبباً في موت إنسان بدلاً من إنقاذه.

لكن أول حالة جاءته غيرت كل شيء.

الفصل الخامس: دروس في الظلام

كان الدكتور محمد العيسى من دير الزور. رجل في الخمسين، وجهه متعب من سنين السجن، لكن عينيه ما زالتا تلمعان بالذكاء والمعرفة. كان طبيباً حقيقياً، تعلم في الجامعات، وعالج آلاف المرضى قبل أن يُعتقل.

لما سمع أن أيوب - "الخضرجي" - صار "طبيب" السجن، طلب رؤيته.

"خير، أبو كرم، ليليك متكدر؟" سأله بروح الدعابة التي كانت طبيعته رغم كل شيء.

"أبني خرب بيتي، يا دكتور،" أجاب أيوب باكتئاب.

"شلون ابنك خرب بيتك؟"

حكى له القصة. كيف أن ابنه الصغير كشف أمره، وكيف أصبح الآن مطالباً بعلاج الناس رغم جهله التام بالطب.

ضحك الدكتور محمد. ثم أخرج شيئاً من تحت فراشه. كان صدراً من الكرتون، عليه رسوم بالحبر الأسود.

"تعال،" قال، وأشار إلى الأرض.

جلَسا معاً على البلاط البارد، وغاص الدكتور محمد في شرح أول درس في الطب. رسم جسم الإنسان، أجهزته، أعضاءه. شرح له الجهاز الهضمي، التنفسي، التكاثري، العصبي. كان يرسم على الصدرة البيضاء كما يرسم المعلم على السبورة، لكن لم يكن هناك تلاميذ آخرون، ولا كان هناك كتاب، ولا قلم حبر.

"هذا الجهاز ممكن هيك، وهذا هيك،" قال، وإصبعه تجر على الورق المقوى. "أعراض المرض واحد اثنين ثلاثة، وكل جهاز له شو وظيفته".

استمر الدرس لساعات. ثم أعقبته دروس أخرى في الأيام التالية. تعلم أيوب عن التركيبات الكيميائية للأدوية، عن الميترونيدازول الذي نعرفه باسم "الفلاجيل"، عن السبروفلوكساسين، عن الباراسيتامول الذي يصفونه لكل شيء. تعلم أن الباراسيتامول يستقلب في الكبد، فلا يعطى لمرضى الكبد. تعلم أن الديكلوفيناك لا يعطى لمرضى الربو أو القرحة.

كان يتعلم في النهار، ويطبق في الليل.

أتاه أول مريض بعد شهر. شاب في العشرين، يعاني من التهاب رئوي، حرارته مرتفعة، وهو يكاد لا يتنفس. خاف أيوب. لم يعرف ماذا يفعل. لكنه تذكر درس الدكتور محمد: "اسأله متى بدأت الأعراض، أيش يشعر به، هل عنده أمراض مزمنة، هل عنده حساسية من أي دواء".

سأل. استمع. ثم وصف العلاج الخفيف: مضاد حيوي، خافض حرارة، سوائل. وبعد ثلاثة أيام، تحسنت حالة الشاب.

كان أيوب مندهشاً. هل فعل ذلك حقاً؟ هل كان بوسعه، خريج الأدب الفرنسي، أن يعالج مريضاً؟!

لكن تلك كانت البداية فقط. بعد الدكتور محمد، جاء الدكتور مجد، اختصاصي الأمراض العصبية والنفسية. ثم الدكتور الآخر، اختصاصي النساء والولادة. ثم محمد ملا صالح، خريج الكيمياء من الرقة، الذي علمه التركيبات الدوائية المتقدمة.

وقبل أن يدخل أيوب عامه الثالث في السجن، كان قد تعلم الطب على أيدي أساتذة لم يكونوا ليوجدوا في أي كلية طب تقليدية. كانوا أساتذة السجون، الذين درسوا في مدرسة الألم لسنوات، وحملوا شهاداتهم من جامعة الجحيم.

لكن الدرس الأهم لم يكن في كيفية تشخيص المرض أو وصف الدواء. كان الدرس الأهم في الإنسانية، في الرغبة في تخفيف الألم رغم كل شيء، في القدرة على أن تكون إنساناً حتى في المكان الذي أرادوا فيه أن تجرد من إنسانيتك.

"يا أخي، اعتبرها من دافع إنساني،" كان الدكتور محمد يقول له عندما يعاتبه أنه سيقتل الناس بجهله. "إذا ما اشتغلت، مين حيعالجهم؟ الدكتور السجان اللي بيدعي إنه طبيب؟ اللي بفحص المرضى برجله؟ اللي بيعطيهم حبتين سيتامول وبيقولهم: هاي حبتين ستموت بعد قليل - مش سيتامول، ستموت؟"

كان يشير إلى ستموت - قاتل - وليس سيتامول الذي هو مسكن للألم.

ضحك أيوب على التورية السوداء. لكنها كانت ضحكة فيها بكاء كثير. كم من الناس ماتوا لأن طبيب السجن كان قاتلاً أكثر منه معالجاً؟

الفصل السادس: أيام الكوليرا

في ٢٠١٨، ضربت الكوليرا السجن كالسيل الجارف. لم يكن لدى النظام أي استعداد لمواجهة الوباء داخل السجون، لأنهم في الحقيقة لم يكونوا يريدون مواجهته. كانوا يريدون أن يموت المساجين، لكن ليس بهذا المعدل السريع الذي قد يلفت انتباه العالم.

"خافوا على حالهم،" قال أيوب ساخراً. "كطاقم سجن خافوا على حالهم إنه هالمرض ينتقل إلهم. فقرروا يعملوا جناح فوق بالطابق الثالث، عشان يخلصوا من موضوع الكوليرا".

صار الطابق الثالث مكاناً للموت أكثر منه للحياة. كان المرضى يُلقون هناك كالأحجار، بدون علاج، بدون أمل. وهنا رأى مسؤولو السجن أن الحل هو جلب ذلك "الطبيب" الذي اكتشفوه حديثاً، ذلك الذي كان قد عالج عدة حالات بنجاح خلال السنة الماضية.

"مين بيعرف يفتح وريد؟" سألوا. "مين عنده خبرة بالتمريض وأخذ أدوية؟"

وجدوا أيوب.

ومعه اثنان من المساجين الآخرين: حسن سطوف الشيخ من حماة، الذي كان طالب تمريض في السنة الأولى قبل اعتقاله، وماهر هيثم القالش من عربين، الذي لم يكن له أي علاقة بالطب لكنه كان سريع التعلم.

معاً، شكلوا فريقاً صغيراً، يكافح الموت يوماً بيوم، وكل أسلحتهم هي معرفة محدودة، وأدوية ناقصة، وأمل لا ينضب.

"كان مجال شغلنا كل شيء،" يقول أيوب. "مد السيروم، تنظيف الجروح، تغيير الملابس المتسخة، خدمة المريض بكل شيء. نحاول قد ما نقدر نخدمه خلال إقامته عندنا".

كان الحالات الشديدة تبقى في غرفة العلاج تحت المراقبة المستمرة. السيرومات تعلق على الحائط، والإبر تدخل في الأوردة الجافة المنهارة بسبب الجفاف. أيوب كان يعاني من ضعف في نظره، كما يعاني معظم سجناء صيدنايا بسبب سوء التغذية والإضاءة المعدومة لسنوات. لكنه كان يعتمد على حاسة اللمس، يضع يده على ذراع المريض، يبحث عن الوريد تحت الجلد، يدخل الإبرة برفق، ويكون أحياناً أكثر دقة من الأطباء الحقيقيين.

لكن لم يكن كل المرضى ينجون.

"في ناس والله العظيم مرق عليا،" يقول أيوب بصوت خافت. "شاب اسمه بلال بحبوح من الرستن، أجاه انصباب بالرئة. طلبت من السجان يعطيني إبرة لأعمل له تفجير صدر، يفرغ السائل اللي عم يخنقه. ما رضوا".

وقف أيوب ينظر إلى بلال وهو يختنق، عيناه واسعتان تطلبانه الخلاص، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً. حاول إقناع السجان، حاول التوسل، حاول أن يشرح له أن الرجل سيموت إذا لم يتدخلوا. لكن لا فائدة.

"إذا حولته على المشفى،" قال له السجان ببرود، "ما رح يوصل حي. السياره في الطريق طويل، والفحص بالأمن بياخذ وقت".

كان يقصد أنهم سيقتلونه في الطريق قبل أن يصل إلى المشفى. كان ذلك معروفاً: كثير من المرضى يخرجون من صيدنايا على نقالات الموت قبل أن يصلوا إلى مشفى تشرين.

"مات الزلمة وهو قاعد قدامي،" قال أيوب والدموع تملأ عينيه. "تخيل إنه أنا أنظر إليه، وهو ينظر إلي، وكل ما نستطيع هو أن نتبادل النظرات. يدَه تتمدد إلي، وأنا لا أستطيع أن أمسكها".

سكت للحظة. ثم أضاف بصوت بالكاد مسموع: "هذا اسمه بلال بحبوح، من الرستن. رحمه الله عليه وعلى كل واحد استشهد معنا بهذا المكان".

الفصل السابع: جراحات بلا مخدر

لكن أخطر حالات التي مرت على أيوب كانت تلك التي تطلبت تدخلاً جراحياً. وفي غياب أي أدوات معقمة، أو مخدرات، أو حتى ضوء كافٍ، كان أيوب مجبراً على أن يفعل المستحيل.

جاءوا به إليه ليلاً. كانت رائحة اللحم المتعفن تسبق صاحبه قبل أن يدخل الغرفة. شاب في الثلاثين، اسمه بشار الجاموس، من موقوفي الفئة (أ) الذين قضوا سنوات في زنازين انعدمت فيها التهوية.

"كان عنده تموت بالقدم،" يشرح أيوب بتفاصيل طبية، كأنه لا يزال في غرفة العمليات. "العظم انكسر، فصل بشكل كامل عن قدمه. القدم صارت متعلقة بالعضلات فقط، والغرغرينا أكلت كل الأنسجة".

كانت الرائحة لا تُطاق. حتى الحراس كانوا يبتعدون. لكن أيوب لم يستطع. كان أمامه رجل حي، لكن جزءاً منه قد مات بالفعل. وإذا لم يُفعل شيء، سيموت الباقي قريباً.

"والله صدقاً، لافّين رجله بكيس خبز. كيسان ثلاثة من ريحة الجرح، لأن الريحة كانت بتخلي كل المهجع يشتكي".

فحص أيوب القدم بعناية. كان الجرح عميقاً، والالتهاب منتشراً، واللون أسود في بعض الأماكن، أصفر في أخرى، وأخضر في ثالثة. الغرغرينا كانت قد أكلت ما أكلت، وكان الحل الوحيد هو البتر.

قال للسجان: "سيدي، خالصة، لازم نقطعها".

رد السجان: "طب قصها وكبّها".

لم يكن أيوب مصدقاً ما يسمعه. كيف يبتر رجلاً بدون مخدر، بدون أدوات جراحية، بدون أي شيء؟

"بس يا سيدي، خلّينا نبعته على المشفى، يبردوا له العظم، وينظفوا الجرح شوي، ويشتغلوا عليه بشكل صحيح".

"ما عندنا. اللي قدامك ها هي الشفرة. واللي معك شفرة وحامل. اشتغل ولا راح تندم".

كانت شفرة حلاقة عادية، حادة لكنها غير معقمة. وبعض الضمادات القذرة. وإبرة وخيط ليسا مناسبين لمثل هذه العملية.

لكنه كان مضطراً. الرجل كان بين يديه، يعاني، وكل دقيقة تمر كانت تعني أن العدوى تنتشر أكثر، وأن فرصه في النجاة تقل.

طلب من حسن وماهر أن يمسكا الرجل بقوة. ثم بدأ.

"قطعنا العضلات بالشفرة، قدر الإمكان. ما كنا نريد نقطع شرايين زيادة، بس نزيل الأنسجة الميتة فقط".

كان الرجل يصرخ. لا تخدير، لا مسكن، فقط الألم الخالص. لكنه كان يعلم أنه إذا لم يفعلوا، فسيأكل التموت ساقه كلها، ثم جسده، ثم سيموت ببطء أسوأ.

بعد ساعات من العمل الشاق، تمكنوا من تنظيف الجرح، وإيقاف النزيف، وربط الضمادات. ثم حولوا بشار إلى مشفى تشرين، حيث أتم الأطباء هناك ما بدأه أيوب، ورفعوا البتر إلى ما تحت الركبة.

لكن القصة لم تنته هناك. بعد أسابيع، عاد بشار إلى أيوب. الجرح لم يلتئم جيداً، والعدوى عادت، ورائحة التعفن غطت المهجع ثانية.

"ظل عندي هذا الشب ثمانية أشهر،" يقول أيوب. "ثمانية أشهر وأنا أعالج جرحه، وأغير الضمادات، وأعطيه مضادات حيوية. حتى سكر الجرح بشكل كامل".

كان ذلك واحداً من أصعب الاختبارات التي مر بها أيوب. لكنه كان أيضاً واحداً من أكثر اللحظات إشباعاً عندما رأى بشار يمشي أخيراً على رجله الصناعية، ويبتسم له شاكراً.

الفصل الثامن: تحديات جديدة

لم تكن كل قصص أيوب عن الجراحات الكبرى والعمليات المصيرية. ففي كثير من الأحيان، كانت التحديات اليومية الصغيرة هي ما يختبر قدراته وإنسانيته في آن واحد.

في أحد الأيام، جاءه شاب اسمه علاء عبد الكريم الخياط من مخيم درعا. كان شاباً فلسطينياً، يعيش في مخيم درعا مثل آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين ابتلعتهم الثورة السورية. كان يعاني من خراجات في كيس الصفن، مؤلمة ومنتفخة، وحرارته مرتفعة، وهو بالكاد يستطيع المشي.

"تخيل،" يقول أيوب وكأنه لا يزال يرى المشهد أمام عينيه. "الشاب حاطينه على البلاط، وحاطين تحته أكياس نايلون تبع خبز، عشان ما يوسخ الأرض. لأنه إذا توسخت الأرض بالدم والقيح، احنا بنضطر ناكل عليها، ونقعد عليها، وكل شيء عليها".

لا تعقيم، لا ملقط، لا مشرط. فقط شفرة حلاقة، وضمادات قذرة، وإرادة حديدية. أيوب ورفيقاه أمسكوا بالشاب، وفتحوا الخراجات واحداً تلو الآخر، يفرغون القيح والدم، وينظفون الجروح بأفضل ما يمكنهم.

"الله يسامحني إذا أخطأت،" كان أيوب يردد في نفسه. "الله يثبت يدي".

استمرت العملية ساعات. وبعدها، ظلوا يعالجون الجروح لأسابيع، حتى التئمت تماماً.

هذا المشهد - رجل مصاب على بلاط بارد، تحت تحته أكياس نايلون، وفوقه طبيب بلا شهادة يستخدم شفرة حلاقة - هو صورة مختصرة لما كان يحدث في صيدنايا. لم يكن الأمر طبياً، لم يكن إنسانياً، لم يكن شيئاً من هذا القبيل. كان محض عناء، محض شهادة على أن الإنسان يمكنه أن يفعل المستحيل إذا اضطر، وأن الكرامة يمكن أن توجد حتى في أحط الظروف.

الفصل التاسع: الدروس الخفية

لكن لم تكن كل دروس أيوب في الطب وحده. كان هناك درس آخر، ربما أهم من كل ما تعلمه عن الجسم البشري والأمراض والعلاجات. كان درساً في الإنسانية، في الصمود، في أن الروح البشرية يمكن أن تنمو وتزدهر حتى في أحلك الظروف.

في سجن صيدنايا، حفظ أيوب القرآن كاملاً. كان ذلك أحد أعظم إنجازاته، كما يقول. "هذا شيء برفع رأسي فيه، وين ما رحت وين ما جيت".

كثير من المساجين كانوا يأتون إليه، ليس فقط للعلاج، بل ليتعلموا القرآن أيضاً. كانوا يسألونه عن الآيات، عن السور، عن معاني الكلمات. وكان يشرح لهم ما يعرفه، ويتعلم معهم ما لا يعرفه.

لكن هذا الأمر كان له ثمن. عندما علم ضابط الأمن أن أيوب يعطي الناس دروساً في القرآن، غضب. اعتبره نشاطاً غير مرغوب فيه، محاولة لتنظيم المساجين دينياً، الأمر الذي قد يكون مؤشراً على التمرد.

"لغوا الغرفة لفترة معينة،" يروي أيوب بحسرة. "صاروا أي حالة تجيهم، يجوا ياخذوني من المهجع لعند المريض بدال ما يكون عنا غرفة ثابتة للعلاج".

لكن لم يستطيعوا إيقافه تماماً. كانوا بحاجته، وكانوا يعرفون ذلك. لذا كانوا يتسامحون مع مخالفات طفيفة، طالما أنه يواصل عمله في إنقاذ أرواح رفاقه.

ومع ذلك، كان أيوب يدرك أن أي لحظة قد تكون الأخيرة. كان يعيش مع خوف دائم من أن يكتشفوا أمره، وأن يقتلوه بتهمة ممارسة الطب دون ترخيص، أو بتهمة "مساعدة العدو" إذا اعتبروا أن المرضى من الفئة (أ) الذين يجب أن يموتوا لا أن يعيشوا.

"عملت حساب إني في يوم من الأيام يكشفوا أمري، بصراحة، وإني يقتلوني،" يقول بصراحة متناهية.

لكنه لم يتوقف. استمر في العلاج والتعليم والدعم لأن، كما يقول، "أمامي خياران: إما أتركه ليموت تحت أيدي هول الجزارين، وإما أدخل أساعد بالقدر الذي أستطيع".

وهكذا، في تلك الظلمة الحالكة، وجد أيوب معنى جديداً للحياة: ليس في المال أو المتعة أو الشهرة، بل في مساعدة الآخرين، في أن يكون وجوده ذا قيمة حتى ولو كان داخل أسوأ سجن في العالم.

الفصل العاشر: فراس

من بين كل الرجال الذين التقاهم أيوب في السجن، كان فراس الدريبي مختلفاً. لم يكن مجرد مريض عادي، ولا رفيق سجن عادي. كان شخصاً استثنائياً من نوعه، يحتاج إلى رعاية خاصة، وإلى صبر لا حدود له، وإلى حب لا يشترط شيئاً.

"فراس مريض نفسي،" يشرح أيوب برقة في صوته. "عنده حالة عصبية قوية. يعني سايكو، زي ما بتقولوا. بس هو من النوع اللي ما ممكن يقعد بعيد عني".

عاش أيوب مع فراس في نفس المهجع لسنوات. وكان يساعده كل يوم، يدبر أموره، يهدئه عندما تنهار أعصابه، يذكره بتناول أدويته عندما ينساها.

"كان له حالات بيجي عليه،" يروي أيوب. "ممكن فجأة ينفجر، يصير يصرخ، يضرب راسه بالحيطان. كنا نحاول نمسكه، نهديه، نرجعه لوضعه الطبيعي".

كان الأمر صعباً على الجميع، لكنه كان أصعب على فراس نفسه. عندما تزول النوبة، كان يبكي، يعتذر، يشعر بالخجل. كان يعلم أنه قد أزعج رفاقه، لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه.

"حولناه على المشفى،" يقول أيوب. "بعد ما كنا داقينا راسنا بالحيط عشان نقتنع إدارة السجن إنه بحاجة علاج متخصص. وطلعوا له وصفة، أدوية اسمها سبارتكس، وكان يجي الدواء يوم، وممكن لا يجي يوم تاني".

لم يكن النظام مهتماً حقاً بعلاج فراس. كانوا يريدون فقط تحييده، جعله أقل إزعاجاً لهم. لكن أيوب كان مهتماً. كان يعرف أن فراس ليس مجنوناً، لكنه مريض يحتاج إلى رعاية، إلى شخص يفهمه، إلى صديق يسانده.

وعند ليلة التحرير، عندما فتحت أبواب السجن أخيراً، كان فراس أول من بحث عن أيوب.

"وقت طلعنا على الباب الرئيسي، لقيت واحد ماسكني من إيدي،" يضحك أيوب من الذكرى. "طلع فراس. كان خايف إني أتركه وأروح".

انطلقت دموع فراس وهو يمسك بأيوب. قال بصوت يقطر ألماً: "لا تتركني، والله لا تتركني".

أخذ أيوب فراس معه إلى خارج السجن، وإلى بيته المؤقت في الشاور، وإلى جامع السلام حيث صلى شكراً لله على نجاته. وفي النهاية، ساعده في العودة إلى أهله الذين كانوا يبحثون عنه منذ سنوات.

"حتى أهله ما كانوا يعرفوا إنه حي،" يقول أيوب. "نشرنا صورته على وسائل التواصل، وبعد ساعتين تقريباً، وصلوا أهله. كان منظر بكاء الفرح يجعل القلب ينفطر".

لكن حتى عندما جاء أهله، تمسك فراس بأيوب. قال: "بدي خلي معك".

كان أيوب يعلم أن فراس يحتاج إلى العلاج، إلى المتابعة، إلى الدعم النفسي. لكنه كان يعلم أيضاً أنه - أيوب - يجب أن يعود إلى حياته، أن يبحث عن عائلته التي لم يرها منذ تسع سنوات.

"بطلوع الروح،" يقول أيوب مبتسماً، "خلّيت فراس يروح مع أهله".
منذ ذلك اليوم، بقي فراس على تواصل مع أيوب كل فترة. يتصل به، يسأل عنه، يطمئنه. يقول له: "أنا بخير، الحمد لله".
"فراس أخي، وغالي على قلبي،" يقول أيوب بصدق. "وهو من الشباب المحترمين كثير. مرضه فقط هو اللي كان يعذبه".

الفصل الحادي عشر: ليلة التحرير

جاءت ليلة التحرير فجأة، كالعادة في مثل هذه الأحداث العظيمة. لم يكن أحد يتوقعها، على الأقل ليس بهذه السرعة. لكن بينما كان المساجين يعيشون يومهم الاعتيادي من الجوع والخوف والألم، كانت رياح التغيير تهب في دمشق، وكان القدر يستعد ليقلب الموازين.
كان أيوب منهكاً في تلك الليلة، كما هو الحال كل ليلة. صلى العشاء، ثم وضع رأسه على البلاط البارد، وحاول أن يغفو. كان يعاني من الأرق المزمن، كما يعاني كل سجناء صيدنايا. النوم كان رفاهية لا يستطيع تحملها إلا القليلون.
"صليت العشاء وحطيت راسي ونمت،" يروي. "تقريباً الساعه اثنتين ونص، فقت عشان أصلي قيام الليل. صليت، ورديت رجعت عم أقرأ شوي".
ذلك كان عادته: يصلي قيام الليل في كل ليلة، ثم يقرأ القرآن حتى الفجر. كانت تلك ساعاته المقدسة، الوحيدة التي كان يشعر فيها بالسلام الداخلي، بالاتصال بشيء أكبر من هذا السجن الرهيب.
لكن في تلك الليلة، كان هناك شيء مختلف. فجأة، سمع صوتاً غريباً. صوت بعيد، خافت، لكنه كان هناك.
قام أحد المساجين، أبو حسن عبد الله حيدر خيزران، من فراشه. كان ينام قرب الشبك الحديدي، ولذلك كان بإمكانه سماع ما يحدث في الخارج أفضل من غيره.

أتى إلى أيوب وقال له: "أبو كرم، في صوت تكبير برّا".

ضحك أيوب. "يا أبا حسن، حط رأسك ونام. شو صوت تكبير؟ ذبحونا هدول، ما عندهم تكبير".

أصر الرجل: "والله العظيم في صوت تكبير، "الله أكبر"."

بدأت الأصوات تتعالى، والطرق على الصاجات الحديدية. صار جناح وراءهم يدق على الجدران، يردد التكبيرات. بدأ الخوف يختلط بالأمل في قلوب المساجين.

ماذا يحدث في الخارج؟ هل هي خدعة من إدارة السجن لاختبارهم؟ هل دخلت قوات المعارضة إلى دمشق؟ هل سقط النظام أخيراً؟

قرر أيوب أن يتحرك بحذر. قال لرفاقه: "خلينا نلزم الهدوء، نشوف شو حيصير معنا. على ضوء هالكلام، بنتصرف".

لكن مع كل دقيقة، كانت الأصوات تتعالى. تكبيرات، وهتافات، ودق أبواب، وإطلاق نار في الهواء، وكل ما يشير إلى أن شيئاً كبيراً يحدث في الخارج.

وبعد ساعات من الترقب والحيرة والأمل والخوف، انفتح باب المهجع فجأة. وقف رجل ملتحٍ، دقنته طويلة، وعيناه تدمعان. نظر إلى المساجين وقال بصوت يرتجف:

"نحن إخوتكم. نحن جيش الحر. بكرا بتصير العالم كلها بتعانق بعضها وتبكي".

لحظة صمت. ثم انهار الجميع في البكاء. تلامس الأيادي، تعانقت الأجساد، وتناثرت الدموع على البلاط البارد.

بدأ المساجين يخرجون من المهجع، بعضهم على أقدامهم، والبعض الآخر يحمله رفاقه. أيوب كان واحداً من هؤلاء الذين خرجوا على أقدامهم، لكنه كان بالكاد يستطيع المشي. ماذا تبقى من قوته بعد كل تلك السنوات؟

"وصلت لمرحلة إني خلص ساكت هيك،" يقول. "من باب المهجع لباب صيدنايا لبرّا، ونحن ماسكين إيدين بعض، وعم نكبر. يقول لي واحد: شو ما بتتفرج على السجن! قلت له: والله ما بدي أشوفه. ما بدي أشوفه بعد تسع سنين".

خرجوا أخيراً إلى الحرية. الهواء النقي ضرب وجوههم كالصفعة اللطيفة. السماء المليئة بالنجوم بدت لهم كأجمل لوحة في العالم. الأصوات، الروائح، الأحاسيس... كل شيء كان جديداً، مختلفاً، ثميناً.

في الخارج، كان الناس في انتظارهم. أهالي، متطوعون، جنود التحرير. كانوا يوزعون الثياب الجديدة، والخبز الطازج، والتمر، والطعام الساخن. كانوا يبكون وهم يرون بأعينهم ما حل بالمساجين: أجساد نحيلة، عيون غائرة، هالات سوداء تحت العيون، علامات التعذيب على البشرة...

"عالم حاملة ربطات الخبز، عارفة إن الناس جوا جوعانة. عالم حاملة تمر، عالم حاملة راس عجوة هيك، عالم حاملة أكل".

لكن الغريب أن أيوب لم يستطع أن يأكل. ليس لأنه لم يكن جائعاً. كان جائعاً جداً. لكن الفرحة كانت أكبر من جوعه، أكبر من تعبه، أكبر من كل شيء.

"من فرحتك جوعان، جوعان كلياتنا جوعانين، بس من الفرحة ما عاد فيك تأكل".

الفصل الثاني عشر: العودة إلى الحياة

خرج أيوب من السجن ليجد عالماً مختلفاً تماماً. المدينة التي تركها قبل تسع سنوات لم تعد كما كانت. والده أكبر سناً، وزوجته أنهكتها سنوات الانتظار، وابنه وابنته كبرا ولم يعدا طفلين صغيرين.

لكن أيوب قرر ألا يبكي على الماضي، بل أن يواجه المستقبل كما واجه كل التحديات في السجن: بصلابة، وإيمان، ورغبة في المساعدة.

ذهب إلى الساحة الأموية، حيث تجمع آلاف السوريين للاحتفال بسقوط النظام. وقف على منصة صغيرة، وأمسك بالميكروفون، وتحدث إلى الجمهور.

قال: "يا شباب، أنا بدي أعترف على أمر كثير مهم. إخواننا اللي كانوا معنا بسجن صيدنايا، وأنا عارف إنه الأمر عم يتصور، كان بإمكاني أطلع وأضل بالعتمة، مثل أي إنسان، وأقعد خلص. أنا مالي طبيب. أنا ما درست الطب. أنا درست أدب فرنسي"!

صمت الجمهور. كانت المفاجأة كبيرة. هذا الرجل الذي عالج مئات المرضى، الذي أجرى عمليات جراحية، الذي أنقذ أرواحاً كثيرة... لم يكن طبيباً؟

"أنا ما درست الطب، وما عندي شهادة،" تابع أيوب. "لكن الظروف هي اللي فرضت عليّ هالشيء. وأنا بعتذر من كل الناس اللي ظنت إني طبيب، وأنا ما كنت طبيباً حقيقياً".

لكن الناس لم يتهموه بالكذب. بالعكس، صفقوا له بحرارة. لأنهم فهموا ما كان يعنيه: أنه كان طبيباً بالروح وليس بالشهادة، وأنه أنقذ أرواحاً كثيرة كان سيموت أصحابها لولا تدخله.

بعد خروجه، بدأت تصل أيوب قصص وتواصل من أشخاص كثيرين عالجهم في السجن. كانوا يرسلون إليه صوراً لهم ولعائلاتهم، مبتسمين، شاكرين، مع عبارات: "هذا الدكتور اللي كان يدير بالنا عليه".

"أنا ضحكتهم هي عندي بالدنيا وما فيها،" يقول أيوب بفخر. "ما عم أدور اليوم على مردود مادي. عم أدور على مهنة حبيتها".

نعم، لقد أحب الطب. ليس لأنه كان يحب دراسة الأمراض والأدوية، بل لأنه أحب فعل الخير، أحب مساعدة الآخرين، أحب أن يكون سبباً في تخفيف الألم.

"لما تشتغل للمريض، ويقولك الله يسلم إيديك، أو كتر خيرك، أو يدعيلك دعوة... جوا السجن كانت هي الدعوة تعجبني. كانوا يقولولي: الله يردك لأولادك. وفعلاً، رب العالمين ردني لأولادي".

الفصل الثالث عشر: طموح جديد

اليوم، بعد كل تلك السنوات من المعاناة والكفاح، يحلم أيوب بشيء جديد: أن يدرس الطب بشكل رسمي.

"أكيد، أكيد، "يقول عندما يسأله المحاور. "إذا صار لي هذا الأمر، أكيد ما راح أقصر فيه".

لكنه يعترف بأن الأمر ليس سهلاً. هو الآن في التاسعة والثلاثين من عمره، وعليه مسؤوليات عائلية، وقد يكون قبوله في كلية الطب تحدياً كبيراً. خاصة وأن الكثيرين يعترضون على فكرة أن "طبيباً بدون شهادة" يدّعي أنه يستطيع دراسة الطب.

"الشجرة المثمرة هي التي تلقى بالحجارة،" يرد على منتقديه بحكمة. "وإذا صار لي هذا الأمر، لن أتوانى عنه. رغم عمري اليوم، ٣٩ سنة، ما بيوقف عن هذا الأمر".

لقد سبق أن أثبت أيوب قدرته على التعلم السريع، وعلى تطبيق المعرفة النظرية في ظروف عملية قاسية. تخيل ماذا يمكن أن يفعل لو حصل على التعليم الرسمي، والموارد المناسبة، والدعم الذي يستحقه؟

لكن أيوب لا يتحدث فقط عن طموحه الشخصي. بل يستغل كل فرصة للتحدث عن معاناة الآخرين، عن آلاف المساجين الذين خرجوا من السجون وهم بحاجة إلى دعم، إلى مساعدة، إلى إعادة تأهيل.

"في ناس ما عندها بيوت تقعد فيها،" يقول. "في ناس بحاجة أطراف صناعية، في ناس بحاجة دعم معنوي، في ناس بحاجة دعم نفسي. في كثير ناس بحاجة لمين يدعمها".

ويوجه رسالة إلى كل من يريد مساعدة السجناء السابقين: "إذا بدك تساعد سجين صيدنايا، حاول توصل له المساعدة بشكل مباشر. لأن اللي بعطي ألف ليرة، ال ٥٠٠ منها بتوصل للسجين و ال ٥٠٠ بتروح في الطريق. فالأفضل أن توصلوا المساعدة بنفسكم".

ويشكر كل من ساهم في تحرير سوريا من النظام المجرم، وخاصة القيادة العامة للثورة، وعلى رأسها الشيخ أحمد الشرع (أبو محمد الجولاني)، ويدعو دول العالم إلى رفع العقوبات عن سوريا، ليعيش الشعب السوري بحرية وكرامة.

الخاتمة: طبيب من وحي الظروف

عندما بدأ أيوب الصفراوي رحلته، كان تاجر خضرة، وشريك في مركز أسنان، ومحباً للأدب الفرنسي. لم يكن يحلم بأن يصبح طبيباً، ولم يكن يطمح إلى إنقاذ الأرواح.

لكن الظروف القاسية، والسجن المظلم، والنظام الذي أراد قتله ببطء، حوّلوه إلى شيء آخر. إلى طبيب بلا شهادة، إلى معالج بلا أدوات، إلى أمل في زمن اليأس.

هل هو طبيب حقيقي؟ الطب الشرعي يقول لا، لأنه لم يدرس في كلية الطب، ولم يحصل على شهادة معترف بها. لكن الأرواح التي أنقذها، والمرضى الذين عالجهم، والكثيرون الذين ما زالوا على قيد الحياة بسببه... كلهم يقولون نعم، هو طبيب حقيقي، في كل معنى الكلمة.

تعلم الطب في قاع زنزانة، على يد أساتذة كانوا هم أيضاً مساجين، وبأدوات صنعها بنفسه من حديد النوافذ. عالج الكوليرا والسل، وأجرى عمليات جراحية بدون مخدر، وفتح خراجات على بلاط بارد، وبتر أطرافاً بشفرة حلاقة.

وفوق كل ذلك، ظل إنساناً. ظل يحفظ قلبه نابضاً بالحب والرحمة والأمل. ظل يساعد الآخرين حتى عندما كان هو نفسه على وشك الموت جوعاً. ظل يعطي حتى عندما لم يبق لديه ما يعطيه.

هذه ليست قصة طبيب فقط. هذه قصة إنسان رفض أن يخضع للظلم، ورفض أن يفقد إنسانيته، ورفض أن يموت وهو لم يفعل شيئاً ذا قيمة في حياته.

أيوب الصفراوي، خريج الأدب الفرنسي، تاجر الخضرة السابق، طبيب السجن الحالي... هو وجه من وجوه سوريا الجديدة. سوريا التي عانت وتعذبت لكنها لم تستسلم. سوريا التي ظلت تؤمن بالحرية والكرامة مهما طال الزمن.

"قال الله في محكم التنزيل: إن تنصروا الله ينصركم،" يختم أيوب حديثه. "فنحن يكون عملنا خالص لله رب العالمين. ما من إنسان يبيت نية إلا أظهرها الله له. اللي يصدق رب العالمين بالطلب، الله يصدقه بالإجابة".

لعل هذه هي الرسالة الختامية لهذه القصة: أن الخير ينتصر في النهاية، وأن الظلم مهما طال فلا بد أن يزول، وأن الإنسان يمكنه أن يصنع المعجزات إذا آمن بنفسه وبقضيته وبالله.

أيوب الصفراوي، طبيب سجن صيدنايا، هو واحد من أولئك الذين جعلوا المستحيل ممكناً. وهو أيضاً واحد من أولئك الذين يستحقون الاحترام والإعجاب، ليس فقط على ما فعلوه، بل على من هم عليه.

طبيب بلا شهادة، لكن بقلب كبير، وروح عظيمة، وحياة حافلة بالعطاء رغم كل شيء.

تحية له، وتحيات لجميع ضحايا صيدنايا، الناجين منهم والشهداء.

أرواحهم لن تُنسى، وقصصهم ستُروى لأجيال قادمة، كتذكار بأن الإنسانية لا تموت مهما حاول الظالمون قتلها.

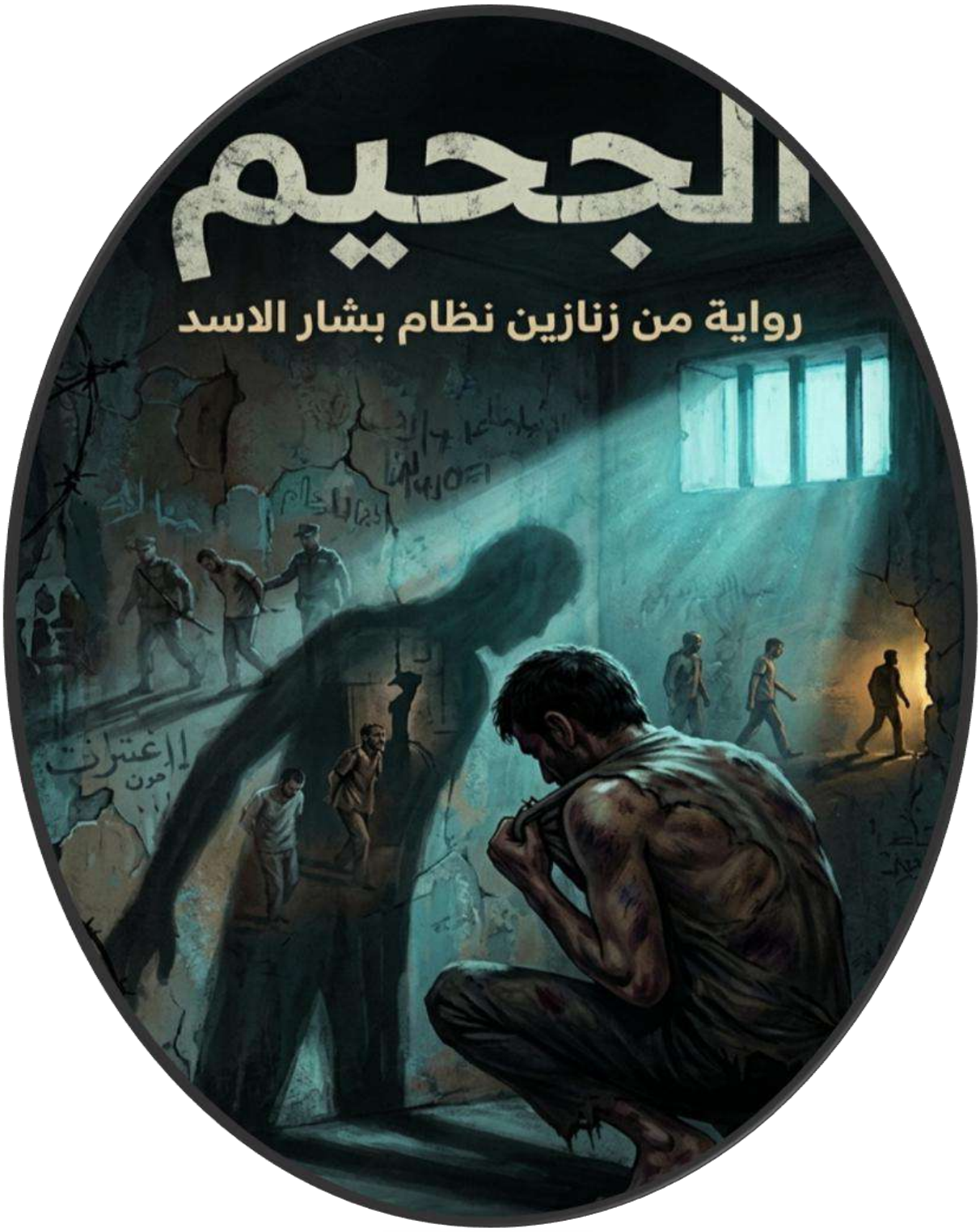
الجحيم
رواية من زنازين نظام بشار الاسد

هـذه قصّـة رامي حسـان السـيّد، الشـابّ الـذي دخـل السجن وعمره سبعة عشر عاماً، وخرج وعمره واحد وعشرون، بعد أن عاش تجارب لا تُنسى. لقد عرّفنا كيف كانت سجون وأفرع النظام السوري تعمل، وكيف كان السجّان والمحقّقون يتعاملون مع الناس. وكيف كان الجوع، والمرض، والتعذيب، والإذلال هي الأدوات التي يستخدمونها لتحقيق أهدافهم.

لكنّ هذه القصّة لا تتحدّث عن الرعب فقط، بل تتحدّث أيضاً عن الصمود، والأمل، والإرادة. رامي لم يستسلم، ولم يفقد الأمل يوماً. كان يعرف أنّه لو استسلم، لكان مصيره الموت. كان يعرف أنّه لو فقد الأمل، لما استطاع أن يواصل الحياة. لذلك صمد، وتحمّل، وخرج من الجحيم حيّاً.

لقد سقط نظام البعث أخيراً، وسقط بشار الأسد، وسقط كلّ ظالم. لكنّ جراح السوريّين لن تندمل بسهولة. سنظلّ نتذكّر ما حلّ بنا، وسنظلّ نروي القصص لأجيالنا القادمة، ليعرفوا كم كان آباؤهم وأجدادهم أقوياء، وكم عانوا ليعيشوا في حرّية وكرامة.

الفصل الأول: البداية

في صباح يوم مشمس من أيام تمّوز عام ٢٠١٤، كان الشابّ رامي حسان الحمصيّ- في السابعة عشرة من عمره يعبر حيّ كازو في حماه برفقة والده. كان الشابّ يُعَدّ من عائلة محترمة تعمل في منشور الحجر في منطقة الشيح، حيث لبيت أجدادهم منذ قرون، وكان والده الشيخ حسان السيّد معروفاً بالصدق والأمانة بين تجّار الحجر. كان رامي طويل القامة، أسمر البشرة، بشعر أسود مجعد وعينين بنيتين كانتا لا تزالان تحتفظان ببريق الصبا. كان قد تخرّج لتوّه من المدرسة الثانوية، وكان يحلم بأن يدرس الأدب الإنجليزي في الجامعة، ولكنّ الأقدار كانت تخطّط له طريقاً آخر لم يكن يتوقّعه.

لم يكن ذلك اليوم مختلفاً عن غيره من الأيّام، فقد خرج رامي مع والده لشراء بعض المواد لبيتهم الصغير في حيّ الشيح. كان الشابّ ينظر إلى السماء الصافية ويتمنّى لو أنه يستطيع أن يطير مثل تلك الطيور التي كانت تحلّق في الأفق بعيداً عن الأرض التي بدأت تشتعل فيها نيران لا تُطْفأ. كان الجوّ حاراً، ورائحة غبار الصيف تملأ الأرجاء، والشارع مزدحم بالسيارات القديمة والمارّة الذين كانوا يسيرون بخطى سريعة خوفاً من الملاحقات الأمنيّة.

فجأة، بدأ الترنّح في الشارع، وتراءت لهم دوريّة عسكريّة عند حاجز كازو. ذلك الحاجز المعروف في حماه، والذي كان يقف كحارس للخوف، يقطع الطريق بين العابرين وحريّتهم. سيارات عسكريّة قديمة، مدافع رشاشة على الأسطح، وجنود بتعبيرات قاسية يفحصون الهويّات ويوقّفون من يثير شكوكهم. كان الهواء هناك يختلف عن باقي حماه، كان يخنقك قبل أن تصل إليه، يلمس جلدك كأنه شفرة حادّة تبحث عن مكان تغتال فيه الحياة.

"هويّاتكم!" صرخ أحد الجنود بصوت أجشّ، كأنه يبصق الكلمات قبل أن ينطق بها. كان جنديّاً في الأربعين من عمره، وجهه متعب من الحرب التي لا تنتهي، وعيناه حمراوان من السهر والأرق، لكنّ تعبيره كان قاسياً كالحجارة.

تقدّم والده بخطى ثابتة، رغم الخوف الذي كان يخالج صدره، ومدّ يده بالهويّة. قال الرجل بأدبه المعتاد: "تفضّل يا سيّد الضابط. أنا حسان السيّد، وهذا ابني رامي. نحن من الشيح، نعمل في منشور الحجر".

لكن الضابط لم يهتم كثيراً بالكلمات، بل كان يحدّق في رامي بعينين لا تبرحانه. ثم أدار ظهره، وذهب ليُجري اتّصالاً هاتفيّاً قصيراً. عاد بعد خمس دقائق، وكانت ملامحه قد تغيّرت. قال بصوت واطئ: "رامي بن حسان السيّد؟ تفضّل معنا".

أحسّ رامي برعدة تسري في عموده الفقريّ. نظر إلى والده الذي كان وجهه قد اصفرّ فجأة. حاول الأب أن يتدخّل، رفع صوته خاضعاً: "يا سيّد الضابط، ابني ما عمل شيئاً. هو طالب، يدرس"...

قاطعه الجنديّ بحركة خشنَة من يده: "اسكت يا حاجّ. إذا ما بدّك ناخذك أنت كمان." ثم أشار إلى أربعة جنود آخرين، فأحاطوا برامي كأنه لصّ خطير. لفّوه بكنزة كانت محمّاة كأنها تريد إخفاء هويّته عن المارة الذين بدؤوا يتجمهرون من بعيد. وضعوه في سيّارة ستايشن قديمة، في صندوقها الخلفيّ، حيث لا يصل الضوء إلا قليلاً، وحيث رائحة البنزين والغبار تعبقان في الهواء.

قبل أن يُقفل الباب، سمع رامي والده يقول بصوت مبحوح: "يا ابني... إن شاء الله خير... راح أجيبك." لكن رامي كان يعرف ما يعرفه كلّ شابّ في سوريا تلك الأيّام: إذا أخذتك الدورية إلى المجهول، فلن تعود إلا إذا شاءت الأقدار أن تعود.

انطلقت السيّارة بهم إلى فرع الأمن العسكريّ في حماه. كان الطريق طويلاً مليئاً بالحفر والمطبات، لكن رامي لم يشعر بذلك، فخوفه كان أكبر من أن يشعر بالطريق. أغمض عينيه وحاول أن يركز في ذكريات بيته، في ضحكات أمّه، في عناق أخته الصغيرة. لكن تلك الصور كانت تتلاشى سريعاً كأنها سراب في صحراء.

عند الفرع، استقبلهم ضابط بدين في مقتبل العمر، كان جالساً خلف مكتب خشبيّ كبير عليه أوراق كثيرة وصور لأشخاص لا يعرفهم رامي. قام الضابط، خطا بضع خطوات نحو

رامي وقال: "أهلاً، هات أغراضك." انتزع حقيبته الصغيرة التي كان يحملها، ونظر فيها، وجد ٣٧٠٠٠ ليرة سورية. ابتسم ابتسامة باردة، ثم قال: "شو بتشتغل؟ مين أبوك؟"

قال رامي: "عندنا منشور حجر في الشيح. أبي حسان السيّد".

نظر الضابط إليه مليّاً، ثم قال متسائلاً: "في ابن عمّك فاتح مَغْسَل عندكم؟"

كان رامي يعرف أنّه يقصد أحد أقربائه الذين يملكون مغسلة في المنطقة. أجاب: "نعم، يا سيّد الضابط".

ابتسم الضابط ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسنانه الصفراء. ثم همس في أذن رامي: "شو بيطلع من خاطرك؟"

أخرج رامي ما تبقّى من نقوده، ٧٠٠٠ ليرة، وأعطاها للضابط دون أن ينبس ببنت شفة. كان يعرف أنّه يشتري وقتاً، وربما يشتري حياته. أخذ الضابط النقود واختفى خلف الباب، وعاد بعد دقائق، وقال: "خلاص، نقلتك من المنفردة على الجماعية".

تنفّس رامي الصعداء. فالمنفردة في السجن تعني الظلام والوحدة والصمت الذي يقتل، بينما الجماعية تعني أناساً آخرين يمكنك التحدث معهم، مشاركتهم آلامك وآمالك. لكنّه لم يكن يعلم بعد كم هي قاسية تلك الجماعية.

الفصل الثاني: المهجع

نقلوه إلى زنزانة جماعية لا تتجاوز مساحتها متراً في متر ونصف، كانت تسمّى "مهجع المفردة" رغم أنها كانت جماعية. المفارقة لم تكن غائبة على رامي. كانت تلك الغرفة الصغيرة تضمّ ثلاثة عشر رجلاً، يجلسون متلاصقين كأنهم قطع شطرنج على رقعة ضيّقة. الجدران كانت رطبة، تسيل منها عرقٌ بارد كأنها تبكي على حال ساكنيها. الأرض من البلاط الخشن الذي يؤلم إذا جلست عليه طويلاً. والحمام كان ملحقاً بالغرفة، فتنبعث منه روائح كريهة لا تطاق.

وقف رامي عند الباب، ينظر إلى المشهد أمامه. ثلاثة عشر رجلاً بأعمار مختلفة، بعضهم في العشرين، وبعضهم تجاوز الخمسين. كلّهم كانوا نحيلين، عيونهم غائرة، وهالات سوداء تحيط بأعينهم كأنهم لم يناموا منذ سنوات. بعضهم كان جالساً القرفصاء، وآخرون مستلقون على الأرض الخشنة، وواحد كان يتأمل الجدار بصمت.

رفع أحدهم رأسه، كان رجلاً في الأربعين، ذا لحية خفيفة وعينين زرقاوين لامعتين. قال بحذر: "السلام عليكم، من وين أنت؟"

"من الشيح،" قال رامي بصوت خافت. "اسمي رامي".

تنفّس الرجل الصعداء: "أهلاً وسهلاً، أنا أبو خالد من الرستن. تفضل، عندنا مكان في الزاوية." وأشار بيده إلى زاوية مظلمة حيث كان يمكن لشخص واحد أن يجلس دون أن يلمس جاره.

اقترب رامي بخطى ثقيلة، وهو يحاول ألا يظهر الخوف الذي كان يلتهم قلبه. لكن عينيه كانتا تفضحانه، فقد كانتا تبحثان عن شيء ما في تلك الحجرة الموحشة، شيء يذكّره بالحياة.

كانت الزنزانة تطلّ على باحة التعذيب. نافذة صغيرة عالية، لا يمكن الوصول إليها إلا إذا رفعك أحدهم، كانت تسمح برؤية جزء من تلك الباحة التي كانت تتردّد فيها صرخات المعذبين على مدار الساعة. كان السجناء يسمعون كلّ شيء، لكنهم لا يستطيعون رؤية شيء. وكانوا يعرفون أنهم إذا حاولوا النظر، فسيهلكون. فالحرّاس كانوا يترصّدونهم.

قال أبو خالد برفق: "لا تحاول تطلّ من الشبّاك يا ولدي. إذا شافوك، راح يقتلوك. وإذا اضطرّوا، راح يقتلوا المهجع كله عشان يعرفوا مين كان يتفرّج".

ارتجف رامي. كان يعرف أنّه ليس في فندق، لكنّه لم يكن يتوقّع أن تكون الأمور بهذه القسوة. جلس في زاويته وحاول أن يغفو، لكنّ الصرخات التي كانت تصل من الباحة كانت تمنعه. كان يسمع أصوات الضرب، أصوات الرجال وهم يبكون، أصوات النساء كذلك، فالنساء لم يسلمن من هذا الجحيم. كان هناك قسم للنساء، يبعن أصواتاً تخرق القلب.

كانت تلك هي حماه عام ٢٠١٤، وكان السجن هو مدرسة القسوة التي لم يتخرج منها أحد حياً.

في اليوم التالي، بدأت طقوس السجن. في الصباح الباكر، أيقظهم السجّان بعصا حديدية كان يدق بها على باب الزنزانة. كان رجلاً في الثلاثين، قصير القامة لكن متين البنية، كان الجميع يخافون منه ويكرهونه. صاح: "محمد نور السيد؟!" كان قد نسي اسمه الجديد، فأشار إلى رامي: "أنت معنا بالشرط".

لم يفهم رامي ما تعنيه كلمة "بالشرط" لكنّه لم يسأل. خلع ثيابه كما أمره السجّان، وبقي يرتدي سرواله الداخلي فقط. ثم ساقوه إلى غرفة التحقيق. هناك، عرّفوه على محقّق قالوا إنّه "المحقق الأول". كان رجلاً في الخمسين، وجهه منحوت كالصخر، وعيناه تخفيان شراً عظيماً.

قال المحقق: "أنت متّهم بخطف طفل من حيّ كازو، وطلب فدية ٨٠ مليون ليرة. تعترف؟"

دهش رامي. لم يسمع بهذا الاتهام في حياته. قال واللهجة تنمّ عن الصدق: "والله يا سيّد المحقق، ما بعرف عن شو بتحكي. أنا أول مرّة بسمع بهالجرْم. قتل بعرفه، تشليح بعرفه، سرقة بعرفها... بس هالجرْم ما بعرفه".

لكن المحقق لم يصدّقه. ابتسم ابتسامة باردة، ثم أشار إلى مساعديه. أخذوه إلى "الدولاب"، تلك الآلة التي اخترعها الشيطان لتعذيب البشر. كان الدولاب يتألف من إطار حديديّ تضغط فيه على جسد المعتقل حتى تلتوي عظامه. وضعوا رجلي رامي ورأسه كما يريدون، وبدأوا يديرون الدولاب. صارت يداه تحت ظهره وهو رافع رجليه نحو الأعلى، والوزن كلّه على كتفيه ورقبته. كان الكلبش الحديديّ يضغط على معصميه حتى أوشك العظم أن يخرج من مكانه.

صاح رامي من الألم: "بس يا سيدي بس! والله ما بعرف شيء والله ما عملت شيء"!

لكن المحقق كان قد بدأ لتوّه. قال: "لا، أنت تعرف. أنت مع الخاطفين. أنت تاجر مخدّرات وأسلحة وتخطّف".

لمدة ثلاثة أيام متواصلة، استمرّ التحقيق. من الساعة السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة ليلاً، كان رامي يُعذّب. الدولاب، ثم "الشبح" حيث ترتفع يداه إلى الخلف ويضغطون على كتفيه حتى يشعر بأنها ستخلع من مكانها، ثم الضرب المبرّح على كلّ جزء من جسده. كان المحقق يتناوب مع مساعدَين اثنين، يصفعونه بالعصي، ويرفسونه، ويسبّونه بأبشع الألفاظ. وفي الليل، كانوا يتركوه لساعات قليلة ينام فيها على الأرض الباردة، لينهض في الصباح لاستكمال المأساة.

قال رامي في أحد الأيام وهو يكاد يبكي: "خلّص، أنا مستعدّ أضلّ عندكم، خلّصوني من هالعذاب. شو طلباتك؟ بدك مصاري؟ خذ ما بدّك، بس خلّص هالضرب".

ضحك المحقق ضحكة مجنونة: "لا، ما بدّي مصاري. بدّي اعترافك. بدّي أسمائهم".

ظلّ رامي متمسّكاً ببراءته، رغم الألم الذي كان ينهش جسده. كان يعرف أنّه إذا اعترف، فسينتقل إلى مرحلة أخرى من الجحيم، وربما يُقتل. كان يعرف قصصاً عن سجناء اعترفوا بما لم يفعلوا ثم أُعدموا فوراً. وكان يعرف قصصاً عن آخرين رفضوا الاعتراف، فظلّوا سنوات في السجن ثم أُفرج عنهم لعدم كفاية الأدلّة.

ولكن في اليوم الرابع، تغيّر كلّ شيء.

جاءت امرأة مسنّة تزور الفرع. كانت أمّ الطفل الذي زعموا أنّه خُطف. بعد أن رأت رامي، نظرت إليه مليّاً، ثم قالت للمحقّق: "هذا الولد ليس هو الخاطف. أنا متأكّدة. وهذا هو ابن فلان؟" سألتها السجّانة، فأجابت: "نعم، هذا هو. من بيت السيّد. هم عندهم منشور حجر في الشيح. هذا مستحيل يخطف".

أصرّت المرأة على شهادتها، قائلة: "أنا أسقط حقي عنه. لا أريد أيّ شيء منه. أرجوكم أطلقوا سراحه".

غضب المحقق، لكنّه لم يستطع فعل شيء. أُمر بإطلاق سراح رامي مؤقتاً حتى تتوضّح الأمور. بعد يومين، عاد إلى زنزانته، وقد تخلّص من تهمة الخطف. لكنّه لم يخرج من السجن. فالضابط المسؤول قرّر أنّه سيظلّ محتجزاً لاتهامات أخرى.

في اليوم التالي، استدعوه مرّة أخرى. هذه المرّة، كان المحقق مختلفاً. سأله: "أنت أحمد السيّد، أخو رامي؟"

قال رامي: "لا، أنا رامي. أمّا أحمد فهو أخي، وقد استشهد في معركة حلب عام ٢٠١٣".

غضب المحقق ثانية: "أحمد استشهد؟" ضحك ضحكة هستيرية. "أحمد قاتل! هو قتل عساكر، وضباط، وسرق دبابات، وفجّر حواجز. أنت مثل أخيك"!

بدأ رامي يشعر بأنّ هناك مؤامرة تحاك ضده. حاول أن يشرح للمحقّق: "يا سيدي، أحمد استشهد في المعركة. نحن عائلة محترمة. أخي كان في الجيش ثم انشقّ، لكنّه لم يفعل كلّ هذه الأمور التي تقولها".

لكن المحقق لم يكن يريد سماع الحقيقة. ظلّ يعذّب رامي خمسة أيام أخرى، وهو يحاول إقناعه بالاعتراف بأنّه هو أحمد نفسه. وفي أحد الأيام، قال المحقق بصوت هادئ مخيف: "لو اعترفت أنّك أحمد، سأخفّف عنك العقاب. سأرسلك إلى الشام، ومن هناك إلى أهلك، وستعيش حياتك كأن شيئاً لم يكن".

عرف رامي أنّه إذا اعترف بأنّه أحمد، فسيُعدم فوراً. قتل المطلوبين كان يتمّ في الحال، بدون محاكمة، بدون تحقيق، بدون أيّ شيء. وكان الضابط سيحصل على مكافأة كبيرة لقاء قتل "إرهابي خطير". رفض رامي الاعتراف، رغم أنّه كان يعلم أنّه قد يموت في اليوم التالي.

ولم يمت، بل استمرّ العذاب.

الفصل الثالث: صراع البقاء

بعد أسبوعين على اعتقاله، في إحدى الليالي التي كان فيها رامي غارقاً في أحلامه المبتورة عن بيته وأهله، فتح باب زنزانته مساعد السجّان وقال: "جهّز حالك، راح تشوف القاضي في الصبح".

شعر رامي بأمل غريب يخالج قلبه. القاضي يعني محاكمة، والمحاكمة تعني فرصة للدفاع عن نفسه وعن براءته. ظنّ أنّه سيخرج من هذا الجحيم قريباً. لكنّه كان ساذجاً.

في الصباح، أخبروه بأنّ المحكمة ستنظر في قضيته، لكنّ الإفراج عنه ليس وشيكاً. ثم فوجئ بأنّه نُقل من حماه إلى حمص، ومن هناك إلى فرع فلسطين في دمشق. كانت حمص في طريقها إلى هناك محطة وسيطة، حيث سجن رامي في "الشرطة العسكرية" خمسة أيام، عومل خلالها بقسوة بالغة. جُرّد من ملابسه، وضُرب ضرباً مبرّحاً على الدرج وفُتشت أغراضه، ونُقل في "براد لحم" كأنّه قطيع من البهائم.

البراد كان شاحنة كبيرة معدّة لنقل اللحوم، وُضع فيها مئة معتقل في ظلام دامس، بدون تهوية، بدون مقاعد، على أرض حديديّة حارقة صيفاً وباردة قارساً شتاءً. قال رامي: "تخيّل، نحن في حرارة حزيران، والبراد كان يحترق من الحرّ. كان الجوّ بداخله لا يُطاق، وكنا نختنق من قلّة الهواء. كان بعض الشباب يعانون من الربو، فكانوا يكادون يموتون قبل أن نصل. عندما نزلنا، تنفّسنا الصعداء كأننا خرجنا من القبر".

لم يكن فرع فلسطين كما توقّع رامي. كان ذلك الفرع وحشاً من نوع خاص. ثلاثة أبنية، وفي وسطها "التشميسة"، وهي ساحة ضيّقة لا تصلها الشمس، اسم على غير مسمّى. كان السجناء يوضعون فيها وهم عرايا، وجوههم إلى الحائط، وأيديهم وراء ظهورهم، وهم يسمعون أصوات العذاب من كلّ جهة. وكان الحرّاس يضربونهم ضرباً مبرّحاً، وهم يسبّونهم بأبشع الألفاظ: "يا أولاد الكلب، يا إرهابيين، قتلة، مجرمين".

تعجّب رامي من تلك اللحظة: "كان عندهم منظومة كاملة للتجويع والتعذيب والإذلال. السجّان كان يتعمّد أن يضربني على وجهي، على كتفي، على ركبتي، على أيّ مكان يؤلم. ولم يكن هناك احترام لأحد، لا كبير ولا صغير. كانوا يفعلون بنا ما يحلو لهم".

في فرع فلسطين، أعطى رامي رقماً بدلاً من اسم: ١٣/٧. كان هذا رقمه السريّ. الرقم الأوّل يعني المهجع الذي يسكنه (المجموعة)، والثاني هو رقمه الشخصي. طُلب منه أن لا ينسى هذا الرقم أبداً، لأنّ نسيانه يعادل الموت. كان هناك سجناء نسوا أرقامهم بسبب الرعب وكثرة الضرب، فأُعدموا فوراً.

كان المهجع في فرع فلسطين لا يتجاوز عرضه ثلاثة أمتار بطول خمسة، ويضمّ مئة وأربعة وعشرين سجيناً! يتلاصقون كالسردين في علبة. الجوّ حارّ ورطب، والرطوبة تسبّب أمراضاً عديدة، والسلّ هو أكثرها فتكاً. كان سجناء فرع فلسطين يموتون يومياً واحداً أو اثنين أو ثلاثة، بسبب المرض، أو الجوع، أو التعذيب.

لم يكن هناك أكل كافٍ. كان الإفطار يتألف من زيتونتين صغيرتين، والغداء نصف ملعقة رز نيء غير مطبوخ جيداً، والعشاء ربع بطاطا مسلوقة وشقفة بندورة. والخبز كان يُعطى كلّ ثلاثة أيام أو أربعة، وكان قديماً متعفّناً في كثير من الأحيان. قال رامي: "كنت أحلم بأن أمسك رغيف خبز كامل يوماً ما، وأكله بشهيّة. لكنّ ذلك كان حلماً بعيداً. كنا نعيش على الحسرة والألم".

كان الموت هناك رفيقاً يوميّاً. كان رامي يرى بعينيه رفاقه وهم يموتون واحداً تلو الآخر. كان أحدهم يبدأ بالسعال، ثم ترتفع حرارته، ثم يغمى عليه، ثم يموت. ولم يكن هناك طبيب حقيقيّ لعلاجه. الطبيب المعيّن كان سجاناً قاسياً، كان يفحص المرضى برجله لا بيده، ويعطيهم حبتين سيتامول ويقول: "هاي حبتين ستموت بعد قليل - مش سيتامول، ستموت." وكان بعض المرضى يموتون بالفعل بعد ساعات من تلقّي هذه "العلاجات."

في إحدى الليالي، كان رامي نائماً على بلاطة باردة مع زملائه، عندما أيقظه صوت صراخ من الخارج. كان من ساحة التعذيب. سمع صوت رجل يعذّب بالكهرباء: "أنا خائن! أنا إرهابي! أنا قاتل! أرجوكم كفّوا عن تعذيبي!" ثم توقف الصوت فجأة. عرف رامي أنّ الرجل قد مات. قال رامي: "صرت أتمنّى الموت. كان الموت أرحم من هذه الحياة. لكنّ شيئاً ما في داخلي كان يصرّ على البقاء، كان يريد أن يرى النور مرّة أخرى".

الفصل الرابع: لقاء مع الشيطان

بعد سبعة أشهر في فرع فلسطين، استدعاه المحققون مرّة أخرى. هذه المرّة، كان التحقيق أكثر عنفاً. وضعوه على "الكرسي الكهربائي"، وهو كرسي حديديّ مثبّت في الأرض، يُربط عليه السجين ويُصعق بالكهرباء. كان الكرسي يسبّب آلاماً لا تُحتمل، ويؤدّي إلى تشنّج العضلات، وفقدان الوعي، وأحياناً الموت الفوريّ.

قال رامي: "لم أشعر بشيء مثل هذه الآلام من قبل. كانت الصدمة الكهربائية تدخل من أصابع يدي، وتخرج من أصابع رجلي، وكأنّ جسدي كلّه يشتعل ناراً. كان قلبي يكاد ينفجر من سرعة دقّاته. وكانت عروقي تنتفض، وعضلاتي تتشنّج، والدم يسيل من أنفي ومن أذنيّ. صرخت، لكن لم يسمع أحد. كنت أتمنّى الموت".

كان المحقق يكرّر سؤاله كلّ مرّة يتوقّف فيها التيّار: "بدك تعترف؟ بدك تعترف بحقّك؟"

كان رامي يصرخ: "والله ما بعرف شيء! والله أنا مظلوم! اتركني يا سيدي مشان الله"!

ولمّا كان المحقق يصرّ على موقفه، بدأ رامي بالضجر والإحباط. في المرّة الثالثة التي صُعق فيها، شعر بأنّ روحه تفارق جسده. قال: "شعرت بأنّني أخرج من جسدي، وأصعد نحو السماء. رأيت يديّ ورجليّ تموت ببطء. شعرت براحة غريبة، كأنّني طائر يطير بعيداً عن قفصه. كانت السماء زرقاء صافية، وعندما وصلت إلى الباب السادس أو السابع، سمعت صوتاً يقول: لم يحن وقتك بعد. ثمّ سمعت صوت سقوط الماء على وجهي".

أفاق رامي ليجد نفسه على الكرسي نفسه، وقد غطّى دمه ملابسه. حوله، كان ثلاثة أو أربعة من السجناء ينظرون إليه بشفقة. كان أحدهم يفرك جسده بخرقة مبلّلة، محاولاً إيقاظه. قال رامي: "حسّيت بأنّ روحي عادت إلى جسدي رغماً عنّي. كنت مكسوراً، عاجزاً عن الحركة، وكتفي الأيمن كان قد كُسر من شدّة التعذيب".

نُقل إلى زنزانة جماعية أخرى، حيث لقي الشيخ أحمد الطيّباني، رجلاً مسنّاً من قريته، عرفه منذ الصغر. قال له الشيخ: "يا ولدي، صبراً. هذه الدنيا فانية، والله لا يضيع أجر المحسنين. ماذا اعترفت؟"

قال رامي: "لم أعترف بشيء، يا عمّي. لكنّهم كسروا كتفي".

دمعت عينا الشيخ، وهو ينظر إلى كتف رامي المخلوع. قال: "لا تخف. سأحاول أن أردّه إلى مكانه".

وبمساعدة الشيخ والبعض الآخر، استلقى رامي على بطنه، ووضعوا منشفة على كتفه، ثم ضغطوا عليه بقوّة. كان الألم لا يحتمل، لكنّهم نجحوا في ردّ الكتف إلى مكانه، ولو مؤقّتاً. ظلّ رامي مغمى عليه سبعة أيام، لا يأكل ولا يشرب، يعيش على قطرة الماء التي يسكبها الشيخ بين شفتيه. في اليوم الثامن، استعاد وعيه شيئاً فشيئاً. كان ضعيفاً، شاحباً، لا يستطيع الحراك، لكنّه كان حيّاً.

الفصل الخامس: فرع ٢٤٧

بعد عام تقريباً في فرع فلسطين، نُقل رامي إلى "فرع ٢٤٧"، وهو سجن تحت الأرض. كان هذا السجن مخصّصاً لإيداع المساجين قبل إرسالهم إلى صيدنايا. كان أشدّ قسوة من فرع فلسطين، إن جاز التعبير. فأرضه من البلاط الخشن، والمساحة لا تتجاوز خمسة وعشرين متراً مربّعاً، يزحم فيها ثمانون سجيناً. والجدران تخلو من أيّ نوافذ، تنقطع فيها الكهرباء أحياناً، فتضربهم ظلمة دامسة ورطوبة عالية تؤدّي إلى أمراض كثيرة.

قال رامي: "كنّا ننام على الأرض كالموتى. نصطفّ في ستّة صفوف، كلّ صفّ يضمّ خمسة عشر رجلاً. ننام على بطوننا أو ظهورنا، لا نملك حريّة الحركة. إذا أراد أحدنا أن يتقلّب في نومه، كان عليه أن يستأذن جاره. كانت الليالي طويلة ومؤلمة. كنا نسمع أصوات موت رفاقنا وهم يصرخون من الألم".

في هذا السجن، زادت سرعة الموت. كان السجناء يموتون يومياً، ليس فقط من التعذيب، بل من الجوع والسلّ والرطوبة. كان رامي يشاهد بعينيه رفاقه وهم يمرضون ويموتون، وهو لا يستطيع فعل شيء. كان أحدهم، شابّ من خطاب عمره ستّة عشر عاماً، اسمه محمّد. كان أشقر، أبيض البشرة، عيونه زرقاء. كان رامي يدير باله عليه، ويعطيه بعضاً من طعامه إذا كان لا يأكل. قال رامي: "توفّي محمّد بعد شهرين. كان جسده نحيلاً، وجهه شاحباً، وعيناه مدمّعتين. قبّلته بين عينَيه وقلت له: الله يرحمك يا صاحبي. ثمّ حملوه ودفنوه في مكان مجهول".

كانت أعداد السجناء تتناقص سريعاً. من ثمانين سجيناً، صاروا خمسة وستّين بعد شهر، ثمّ أربعين بعد شهرين، ثمّ خمسة وعشرين بعد أربعة أشهر. أكثر من خمسين سجيناً ماتوا في أربعة أشهر فقط. كان رامي يعيش في حالة من الرعب واليأس، لكنّه كان مصرّاً على الحياة.

قال رامي: "كنت أقول في نفسي: لا بدّ أن أخرج من هنا حيّاً. لا بدّ أن أرجع إلى أهلي وأرى وجه أمّي مرّة أخرى. كانت هذه الأفكار هي ما يبقيني على قيد الحياة".

الفصل السادس: الإفراج المشروط

بعد ثمانية أشهر في فرع ٢٤٧، فوجئ رامي بأنّ اسمه نودي عليه في الصباح الباكر. كان يظنّ أنّه سينقل إلى سجن آخر، لكنّ مساعد السجّان قال له: "اخلع ملابسك، خذ أغراضك، أنت خارج".

لم يصدّق رامي ما يسمعه. كان يعتقد أنّه سيموت في هذا السجن، ولم يكن يتوقّع أن يخرج يوماً ما. اتّصل به المساعد وقال: "لديك وساطة كبيرة أخرجتك من هنا. واسطتك كانت قويّة جدّاً".

كان رامي يعرف قصّة الوساطات. فالعديد من السجناء كانوا يُفرج عنهم بوساطات ماليّة أو سياسيّة. وكانت المبالغ تتراوح بين ٢٠,٠٠٠ و١٠٠,٠٠٠ دولار، تُدفع لمسؤولين كبار. قال رامي: "لم تكن واسطتي إلا الله، وحده. أنا لا أملك مالاً ولا جاهاً. ولكنّهم أخرجوني على أيّة حال. ربّما لأنّهم تأكّدوا من براءتي، أو ربّما لأنّهم تعبوا منّي".

نُقل رامي إلى محكمة عسكريّة، حيث حوكم بتهم "السلب بالعنف، وارتكاب أعمال إرهابية، وتمويل الإرهاب". التهم كانت ملفّقة بالكامل، لكنّ القاضي رضا موسى - ذاك الذي ارتكب الفظائع بحقّ آلاف السوريين - حكم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ وغرامة ماليّة قدرها ٢٣٥ مليون ليرة سورية. كان هذا هو حكم جميع المعتقلين تقريباً: إعدام، أو سجن مؤبّد.

ولكنّه بعد ستّة أشهر من المحاكمات والمرافعات، وبعد أن دفعت عائلته ٢٥,٠٠٠ دولار لمحامٍ فاسد، أُفرج عن رامي بموجب عفو عام. كان ذلك في عام ٢٠١٨. كان قد أمضى أربع سنوات في السجون والأفرع الأمنيّة، منذ أن كان عمره سبعة عشر عاماً، وحتّى أصبح في الحادية والعشرين.

قال رامي: "عندما خرجت من السجن، كانت الشمس تؤلم عينَيّ. لم أكن قد رأيت الشمس منذ سنين. كنت خائفاً، مرتبكاً، لا أعرف كيف أتصرّف في هذا العالم الجديد. كنت أظنّ أنّ كلّ الناس ستوقفني وتعتقلني. كنت أعتقد أنّ الدنيا بأكملها هي سجن كبير".

لكنّه صمد، وبدأ يعالج جروحه. كتفه كان قد كسر وبقي مخلوعاً لمدّة طويلة، وأصبحت حركته محدودة بشكل دائم. ظهره أصيب بتمزّق في الأربطة، ورقبته بقيت تؤلمه لسنوات. وكان يعاني من أمراض عديدة بسبب سوء التغذية والرطوبة: السلّ، والتهاب المفاصل، والكسور المتكرّرة.

ومع ذلك، رفض أن يموت في الداخل. صمد، وتحمّل، وخرج حيّاً.

الفصل السابع: ما بعد السجن

عاش رامي حياة طبيعيّة بعد خروجه من السجن، بقدر ما يمكن أن تكون حياته طبيعيّة. عاد إلى أهله في الشيح، حيث عانوا الأمرّين من الفقر والجوع والمرض. لكنّهم لم يفقدوا الأمل.

في عام ٢٠٢٤، وبعد سنوات من النضال والمعاناة، سقط نظام البعث. عندها، شعر رامي بأنّه قد انتصر أخيراً. قال: "بشار الأسد راح، سقط حكمه الفاسد. رأيت الفرحة في عيون الناس، ورأيت السوريّين يضحكون من جديد. كان ذلك أجمل يوم في حياتي، حتّى أجمل من يوم خروجي من السجن. لأنّ خروجي من السجن كان يعني أنا فقط، أمّا سقوط النظام فكان يعني السوريّين جميعاً".

لكن رامي لا يزال يعاني من آثار التعذيب حتّى الآن. كتفه مخلوع، وظهره مجروح، ورقبته تؤلمه. يقول: "كسروني، وشوّهوني، لكنّهم لم يكسروا روحَي. بقيت صامداً، مثل شجر الزيتون في جبلنا".

ورامي يناشد كلّ من يستطيع المساعدة: "ساعدوا السجناء السابقين، وخصوصاً سجناء صيدنايا. كثيرون منهم بلا مأوى، بلا علاج، بلا حياة كريمة. كثيرون فقدوا أطرافهم، وعقولهم، وعائلاتهم. هم بحاجة إلينا الآن أكثر من أيّ وقت مضى".

ويناشد رامي دول العالم برفع العقوبات عن سوريا، قائلاً: "نحن شعب طيب، شعب مسالم. أردنا الحرّية فقط. والآن بعد أن تحرّرنا، نحتاج إلى مساعدتكم لإعادة بناء بلدنا. رفعوا العقوبات، فحاجتنا إليها شديدة. تعبنا، وأهلنا تعبوا".

ويختم رامي حديثه بالقول: "هذه قصّتي. قصّة شابّ سوري خرج من الجحيم حيّاً. وكثيرون غيري خرجوا أيضاً، وكثيرون آخرون لم يخرجوا. رحم الله الشهداء، وأدام الله النصر على الظالمين. ودمتم جميعاً بخير".

رحم الله الشهداء، وشفى الله الجرحى، وأعاد الله بناء سوريا على أسس العدل والحرّية، لتكون واحة سلام للجميع.

والله من وراء القصد.

تمّت الرواية

دمشق، في عيد الحرّية

كانون الثاني ٢٠٢٥

حكاية امرءة حلبية

في زنازين دمشق

حكاية امرءة حلبية

في زنازين دمشق

الفصل الأول: امرأة عادية في زمن غير عادي

في صباح يومٍ من أيام خريف عام ثلاثة عشر بعد الألفين، كانت **نورا الحموي** تجلس على حافة سريرها في شقتها المتواضعة بحي صلاح الدين بحلب، تنظر إلى فلذات كبدها الأربعة وهم نيام. كانت الشمس تتسلل من وراء الستائر القديمة، تنساب خيوطها الذهبية على وجوههم الصغيرة فتجعل منهم لوحة لا تضاهيها لوحات العظماء.

سارة، وليلى، ويوسف، وريما .أربعة أسماء كانت القصيدة الوحيدة التي حفظتها نورا عن ظهر قلب، والوشم الوحيد الذي كانت ستخطه على جلدها لو أتيح لها أن تختار وشماً يبقى إلى الأبد.

كانت نورا امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها، وجهها كالقمر في ليلة اكتماله، مستدير، ناصع البياض قليلاً، وعيناها بنيتان عميقتان تخبئان بحاراً من الألم لم تبح بهما لأحد قط. شعرها الأسود كان ينسدل على كتفيها كشلال هادئ، وأصابعها النحيلة الطويلة كانت تعرف كيف تحيل الخيوط البسيطة إلى لوحات فنية ناطقة. كانت تخيط الثياب لأطفالها بيديها، وتطرز المناشف بألوان الزهور، وتصنع من بقايا القماش دمى صغيرة تسلي بها صغارها في ليالي الشتاء الطويلة.

زوجها **سامر زيادة**، رجل في الأربعين، هادئ الطباع كغدير لا تحركه الرياح، طويل القامة يخيل للناظر إليه أنه فارس من عصور سابقة، أصلع قليلاً في مقدمة رأسه كأن الزمن بدأ يخط آثاره عليه، يرتدي نظارات طبية بإطار سميك من عاج السلحفاة. كان يعمل في مصلحة السكك الحديدية منذ تخرجه من الجامعة، موظفاً حكومياً مجتهداً لا يتأخر عن

عمله يوماً واحداً، يحصل على راتب متواضع لا يكاد يسد رمق أسرته الصغيرة، لكنه كان يديره بحكمة المقتدر وتدبير الخبير.

كانوا يسكنون في شقة متواضعة في الطابق الأرضي من بناية قديمة، تطل نافذتها الصغيرة مباشرة على الشارع الضيق الذي كان يربط حيهم بقلب المدينة الكبير. كانت حياتهم عادية جداً، رتيبة إلى درجة الملل أحياناً. الاستيقاظ في الصباح الباكر، فطور سريع، ذهاب الأطفال إلى مدارسهم، سامر إلى عمله، ونورا إلى أعمال البيت. ثم العودة في المساء، العشاء العائلي، النوم، ثم نكرر.

كانت هموم نورا صغيرة، عادية، حقيقية: كيف ستؤمن للأطفال ملابس المدرسة هذا العام، كيف ستطبخ لهم طعاماً صحياً بالموارد المتاحة، كيف ستربيهم ليكونوا بشراً صالحين في هذا العالم المعقد. كانت أسئلة بسيطة، إجاباتها بسيطة، كانت الحياة بسيطة.

ثم جاء عام ألفين وأحد عشر.

في ذلك العام، لم يعد شيء بسيطاً.

الفصل الثاني: شرارة الثورة

كانت نورا تتابع الأخبار القادمة من درعا بعينين مذعورتين. شاهدت على شاشة التلفزيون الصغير الذي بالكاد يلتقط الإشارة صوراً لمظاهرات هتفت بحقوقها الإنسانية، ثم صوراً لدماء سالة على أسفلت ساخن. كانت تشعر بالرعب مما ترى، لكنها كانت تشعر أيضاً بشيء آخر: شيء يشبه التعاطف، شيء يشبه الغضب، شيء يشبه الأمل.

ثم انتقلت الشرارة كالنار في الهشيم إلى حلب، مدينتها الحبيبة، تلك المدينة التي ظنت أنها بمنأى عن العاصفة. كانت مخطئة، فالرياح لا تسأل أين تمر.

قالت نورا فيما بعد، حين أتيح لها أن تتحدث: "يوم الثالث عشر من نيسان عام ألفين وأحد عشر، كان يوماً مشمساً كأن السماء تبتسم لنا خدعة. خرجت من بيتي في الصباح الباكر لزيارة صديقتي **ميسون** في عيادتها. ميسون طبيبة أسنان، وكانت عيادتها قريبة من

جامعة حلب، وكنا نلتقي كثيراً في تلك الفترة الحرجة، لنتحدث عما يحدث في مدينتنا المحاصرة بالصمت".

في طريق العودة إلى البيت، قررت نورا وميسون أن تسيرا معاً. كانتا تسكنان في حي واحد، وكان الطريق مألوفاً لهما كبصمات أصابعهما. كان الجو حاراً ذلك اليوم، ورائحة زهر الليمون تملأ الأزقة والشوارع، وطيور الحمام تحلق فوق أسطح المنازل كأنها تراقب ما سيحدث.

وفجأة، سمعتا هتافات.

هتافات كانت قد أصبحت مألوفة في ذلك الوقت من العام، لكنها ظلت تثير الرعب في قلبهما كلما سمعتاها. خرجت الهتافات من حي صلاح الدين القريب، المكان الذي كان يحمل اسم القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، رمز المقاومة والتحرر. وكانت المفارقة أن أهله اليوم كانوا يهتفون من أجل تحرر آخر.

قالت نورا: "ما خططنا لننضم إلى أي مظاهرة. كنا فقط نسير في طريقنا كأي يوم عادي. لكن فجأة، وجدنا أنفسنا محاطين بالحشود من كل جهة. كان الناس يخرجون من البيوت والمحلات والأزقة، كأن الأرض انفجرت بهم. كانوا يحملون أعلاماً وأوراقاً وهتافات. ثواراً، أو هكذا بدوا. كانوا غاضبين، لكنهم لم يكونوا مسلحين، لا بسكاكين ولا عصي. ولا حتى حجارة. كانوا فقط يريدون أن يُسمع صوتهم. وفجأة وجدت نفسي. أنا وميسون وسطهم، نصرخ معهم، دون أن نخطط لذلك. كأننا كنا ننتظر هذه الفرصة طويلاً دون أن ندري".

كانت تلك أول مظاهرات حلب، وكانت الأقسى. استمرت ساعتين من الهتاف والمواجهات مع قوات الأمن، ثم سمع الرصاص يطلق في الهواء أولاً، ثم وسط الحشود ثانياً. رأت نورا بعينيها كيف سقط رجل إلى جانبها، رجل في الأربعين من عمره، كان يهتف بأعلى صوته. رأت كيف تدحرج دمه على الأسفلت الساخن، وتلون باللون القرمزي الذي لا ينسى. سمعت صراخ نساء تبكي، ورجال يصرخون بأسماء أطفالهم. وغرقت كل هذه الأصوات في بحر من الصراخ والفوضى.

تمكنت ميسون من الفرار إلى منزلها، وفعلت نورا المثل، لكن وجهها كان شاحباً عليها كأنها رأت الموت بعينيها.

سألها زوجها سامر عندما رآها: "ما بك يا نورا؟ وجهك أصفر كالعجين".

حكت له كل ما حدث.

كان رد فعله عنيفاً، لم يعتد عليه: "لا تخرجي إلى مظاهرات مرة أخرى. أنت حامل، وعلينا أن نفكر في سلامة الجنين فوق كل شيء. سمعتِ؟ فوق كل شيء".

وافقت نورا. وافقت بلسانها، لكن قلبها ظل يرفض. كان قلبها يصرخ: كيف يمكن أن أسكت وأنا أرى الظلم يعلن حربه على الناس؟ وكيف يمكن أن أتفرج وأنا أستطيع أن أفعل شيئاً؟

لكنها أبقت صرخة قلبها مكتومة.

الفصل الثالث: جمعة الله أكبر

في جمعة "الله أكبر"، التاسع والعشرين من تموز عام ألفين وأحد عشر، كانت حلب تشتعل كالجمر تحت الرماد. الآلاف خرجوا إلى الشوارع، والسماء امتلأت بهتاف واحد: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر". هتاف كان يملأ القلوب رهبة وأملاً في آنٍ معاً، كان يذكرهم بأن الله أكبر من كل طاغية، وأن النصر قادم لا محالة.

كانت نورا في بيتها وحدها في ذلك الصباح. زوجها كان في العمل، والأطفال في مدرستهم الصيفية. كانت تجلس أمام النافذة المطلة على الشارع، تراقب سيل البشر المتدفق أمام منزلها. كانت تراهم يمرون ويمرون، رجال ونساء وأطفال، عطاشى، تعلو وجوههم غبرة الطريق وتعب البُعد. كانت تراهم يتسولون الماء من المارة، ونظرت إلى البيوت المجاورة، فرأت أن كل الأبواب والنوافذ كانت مغلقة بإحكام.

قالت نورا: "كنت أرى الناس يتهاوون من العطش، وأرى الأطفال الصغار يبكون، وأسمع رضيعاً يصرخ في حضن أمه. والجميع يمر أمام بيتي ولا أحد يجرؤ على فتح باب بيته لهم.

كانوا يخافون، وكانوا على حق. لكنني لم أستطع أن أتحمل. في قرارة نفسي، في أعماق روحي، شعرت بشيء يجبرني على فعل شيء. لا بد أن أساعد".

لم تستطع نورا التحكم بنفسها. شقتها في الطابق الأرضي، ونافذتها تطل على الشارع مباشرة، وكانت تعلم أن كل من يمر يراها. لكنها وجدت حلاً: دبرت خرطوم الماء من حنفيّة المطبخ، وفتحت النافذة قليلاً، وأبقى باب الشقة الخارجي مغلقاً بإحكام. ثم تظاهرت بأنها تغسل النافذة، بينما كانت في الحقيقة تبلل المحتجين الذين يمرون تحتها بالماء البارد.

كان الماء يبلل رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم. البعض ابتسم، والبعض نظر إليها دون أن يرى وجهها خلف الستارة، وآخرون هتفوا لها: "الله ينصرك يا ست الكل". لم تكن تفعل كثيراً، قطرة ماء في محيط من العطش، لكنه كان شيئاً.

قالت نورا: "لا أستطيع أن أصف ما شعرت به في تلك اللحظة. أهم شيء عندي أنني شاركت، أنني قلت لهذا النظام الظالم: ها أنا ذا، لا أوافق على ما تفعله. لا أستطيع تفسير ذلك منطقياً، لكنني شعرت بأنني أفعل شيئاً صحيحاً، شيئاً إنسانياً، شيئاً سأظل أفخر به ولو دفعني الثمن".

لكن ابنها الأصغر، يوسف، ذاك الطفل ذو الأعوام الخمسة، كان يراقبها من خلف الستارة. طفل صغير، عيون واسعة، رأى والدته تبلل الناس بالماء من النافذة. عندما عاد والده إلى البيت في المساء، أسر إليه: "بابا، ماما بلّلت الناس اللي كانوا خارج البيت بالميّ".

لم يصدق واضطر أن يصدق.

ثارت الدنيا في البيت تلك الليلة. صرخ سامر في وجه نورا بصوت لم تسمعه من قبل: "أنت حامل! في الشهر السابع! إذا كنت لا تخافين على نفسك، اخافي على الجنين! على الأقل الجنين"!

حاولت نورا أن تشرح، أن تدافع، أن تقول إنها لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي أمام الظلم. لكن كل كلماتها كانت تصطدم بجدار من الخوف عليه وعلى مستقبل أسرته.

في النهاية، لم ترد نورا. كانت تعلم أنها قد أخطأت في حق زوجها الذي كان يخاف عليها. لكنها كانت تعلم بعمق أنها لو عاد بها الزمن لفعلت الأمر نفسه. وهذا الصراع بين الطاعة والضمير، بين الأمان والتضحية، كان سيبقى معها لسنوات، يلتهم قلبها من الداخل.

الفصل الرابع: نزوح ونار

في عام ألفين واثني عشر، بدأت طائرات النظام تقصف حلب بلا هوادة. كانت الغارات الجوية تأتي في الليل والنهار، لا تفرق بين عسكري ومدني، بين بيت ومستشفى، بين مدرسة ومسجد. رأت نورا بأمِّ عينيها كيف كانت الصواريخ تدمر الأبنية التي عاشت لأجيال، وكيف كان الناس يصرخون تحت الأنقاض، وكيف كان الأطفال يتيمون في ثوانٍ.

قالت نورا: "في أحد الأيام، أيقظتني صديقتي ميسون في السادسة صباحاً. كانت تتصل بي من هاتفها: 'نورا، غادري المنطقة حالاً. هناك إخلاء قسري.' لم أكن مصدقة ما أسمع. لكن عندما فتحت النافذة ونظرت إلى الشارع، رأيت الناس يهربون بأعدادهم. عائلات كاملة تحمل أطفالها على الأكتاف، ونساء تجر أمتعتهن على عربات خشبية صنعوها بأنفسهم، ورجال يساعدون عجزة ومرضى. كان منظراً يدمي القلب".

ذرفت دموعها وقالت: "كانت هذه أول مرة أرى فيها حلب هكذا. مدينتي الهادئة، مدينتي الجميلة، مدينتي التي تفوح منها رائحة التاريخ والبطولة، أصبحت جحيماً. صارت طائرات تحلق فوقها كالنسور، وصارت نار ورصاص".

انتقلوا إلى حي السكري القريب، حيث تقاسموا غرفة صغيرة مع عائلة أخرى من جيرانهم. ثم اضطرتهم الظروف إلى الانتقال مرة أخرى إلى باب المقام، تلك المنطقة العريقة التي كانت يوماً ما تستقبل الحجاج القادمين من كل مكان. الآن، كانت تستقبل نازحين هاربين من الموت.

كانت نورا حاملاً في شهرها الثامن. كانت تعاني من آلام الظهر التي لا توصف، وغثيان الصباح الذي استمر طوال اليوم، وإرهاق لا تحتمله امرأة حامل حتى في أفضل الظروف.

كانت تمشي بخطى وئيدة، تتكئ على الجدران في كل خطوة، وكانت عيناها تدمعان من الألم. لكنها كانت تتشبث بالأمل كغريق يتشبث بقطعة خشب.

في أحد الأيام، اتصلت بها ميسون: "نورا، وجدت غرفة شاغرة في مدرسة في حي الحمدانية. يمكنك أن تنتقلي إليها. ليست فندقاً، لكنها أفضل من الشارع".

كانت الغرفة صغيرة، أربعة أمتار في أربعة، بلا أثاث ولا تدفئة ولا ماء في كثير من الأحيان. الجدران مطلية باللون الأبيض الذي تحول إلى أصفر بفعل الرطوبة والزمن. لكنها كانت ملاذاً آمناً في بحر من الفوضى العارمة.

هناك، في تلك الغرفة الباردة، أنجبت نورا طفلتها الرابعة، ريما، بدون طبيب ولا تخدير ولا أي شيء. كانت القابلة امرأة مسنّة من الجيران، تطوعت لمساعدتها. أتت معها بماء دافئ وقماش نظيف. وضعت يدها على بطن نورا وقالت: "ادفعي، يا ابنتي، ادفعي بقوة".

بعد ساعات من الألم الذي لم يكن يضاهيه إلا ألم التعذيب الذي ستختبره لاحقاً، خرجت ريما إلى الحياة، تصرخ باكية كأنها تعرف ما ينتظرها في هذا العالم. حملتها نورا إلى صدرها، وبكت من الفرحة والألم معاً.

بعد الولادة، أصبحت الأمور أسوأ. انقطعت الكهرباء عن حلب بالكامل تقريباً، والماء توقف عن التدفق في الأنابيب. كانت نورا تجمع مياه الأمطار في القدور والأواني، تغسل بها ثياب أطفالها وتطبخ بها طعامهم. كانت تشتري قوارير الغاز من السوق السوداء بأسعار خيالية تفوق ما كانوا يكسبونه في الشهر كله. وفي بعض الأيام، كانت تطبخ على الحطب الذي تجلبه من البساتين المجاورة، وكان الأطفال يبكون من الجوع ورائحة الدخان تملأ الغرفة.

قالت نورا: "زوجي كان يدير محطة بنزين في منطقة بغداد في شرق حلب. استطاع أن يؤمن لنا غرفة صغيرة في المحطة ذاتها. كانت أربعة جدران وسقف، لا أكثر، لكنها كانت جنة مقارنة بالمدرسة. كان فيها سرير حديدي صدئ، وفرن صغير يعمل على الكاز، ومصباح

يعمل بالبطارية. أمضينا فيها عشرين يوماً كنا نظنها بداية لعودة الأمور إلى طبيعتها. لكنّها كانت في الحقيقة آخر أيام السلام قبل العاصفة".

كانت الغرفة قريبة من خطوط المواجهة، وكان دوي القصف لا يتوقف ليلاً ولا نهاراً. كانت نورا تحتضن أطفالها وتتمتم بدعاء الخوف أو الأمل: "يا رب، احفظهم لي، هم كل ما أملك".

وبينما كانت نورا تحلم بالعودة إلى حياتها الطبيعية، كان القدر يعد لها فاجعة لم تكن تتخيلها بأبشع كوابيسها.

الفصل الخامس: الاقتحام

في صباح يوم العشرين من تشرين الأول عام ألفين وثلاثة عشر، كان الوقت حوالي السادسة صباحاً. كانت نورا قد تناولت السحور قبل أن يطلع الفجر، ذلك أنها كانت تصوم رمضان مع جيرانها رغم صعوبة الظروف، وصلّت الفجر بخشوع امرأة تطلب النجاة. ثم عادت إلى السرير، وضعت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها.

لم تنم طويلاً.

فجأة، سمعت دقاً عنيفاً على الباب. لم يكن دق زائر عادي، بل كان دقاً بروح العنف، ابن الحرام يحاول أن يهدم الباب بكل قوته. هرعت نحو الباب قبل أن يستيقظ الأطفال، لكنها لم تصل إليه قبل أن يطير من مكانه.

اقتحم الجنود الغرفة. أربعة أو خمسة من عناصر "شعبة المخابرات الجوية"، يرتدون الزي العسكري الأخضر، ويحملون أسلحة رشاشة من طراز كلاشنيكوف، ووجوههم مغطاة بأقنعة سوداء لا تكشف إلا عن أعينهم الجائعة للانتقام.

صرخت نورا: "لماذا تهاجمون بيتي؟ لماذا؟ ماذا فعلنا؟"

لكنهم لم يردوا. لم ينطقوا ولو بكلمة واحدة. رأوا ابنتها الصغيرة ريما، تلك الطفلة التي لم تكمل عامها الأول بعد، نائمة على سريرها الصغير قرب النافذة. أمسك بها أحدهم من ذراعها الصغيرة وألقى بها على الأرض كأنها قطعة قماش بالية.

سمعت نورا الطفلة تبكي، بكاءً عالياً، متقطعاً، بكاءً يخرق القلب. لكنها لم تستطع أن ترى ما حل بابنتها، لأن الجنود كانوا يجرونها خارج البيت، والأيدي الخشنة تمسك بذراعيها من كل جانب.

قالت نورا: "ركبت السيارة معهم، وأنا لا أفهم ما يحدث. كان قلبي يدق كالطبول، وعقلي يحاول أن يلتقط أي تفسير منطقي. لماذا؟ ماذا فعلت؟ متى؟ أين؟ كنت خائفة على أطفالي أكثر من خوفي على نفسي. كانوا وحدهم هناك، ريما تبكي على الأرض، وسارة وليلى ويوسف نيام. أيقظهم أحد؟ هل رآهم أحد؟ هل تأكد أحد من سلامتهم؟ غصت بالأسئلة التي لا إجابة لها".

أخذوها إلى فرع المخابرات الجوية في حلب. ذلك المكان الذي كان معروفاً في المدينة بأخبار الرعب التي تخرج منه. كان مبنى ضخماً، جدرانه رمادية كئيبة، ونوافذه كلها مغلقة بقضبان حديدية، ورائحة ما لا يوصف تعبق في أرجائه. رائحة الخوف، رائحة الموت، رائحة اليأس.

ربطوا عينيها بقطعة قماش سوداء سميكة، وقادوها إلى الطابق السفلي، تنزل درجات كثيرة حتى شعرت أنها تصل إلى قلب الأرض. كانت الرطوبة تزداد كلما نزلت، وكان الهواء يصبح أثقل، أشد كرباً.

عندما خلعوا الغطاء عن وجهها، فتحت عينيها ببطء. وجدت نفسها في قبو مظلم، تسقط من سقفه قطرات الماء الباردة على بلاطه المتسخ. كانت رائحة الصرف الصحي والدم والأمونيا تملأ المكان. وقف أمامها سجان بملامح قاسية، وعينان باردتان كالجليد، لا ترحم.

قال لها بصوتٍ جافٍ لا يتوقع طاعة: "ادخلي إلى الحمّامات".

عرفت نورا ما يعنيه ذلك. في تلك الأفراع، كان "التفتيش" يعني شيئاً واحداً فقط: تجريد المعتقل من ملابسه بالكامل، مهما كان عمره أو جنسه أو معتقده، بمنأى عن أي اعتبارات دينية أو أخلاقية أو إنسانية. كانت هذه هي طريقتهم في إذلال الناس، في تحطيم كبريائهم، في إظهار سلطتهم المطلقة عليهم.

رفضت نورا في البداية. تمسكت بثيابها، وقالت: "لا، لا، لا يمكن. أنا امرأة مسلمة، عندي كرامة. لا يمكنكم فعلي هذا. لا يمكنكم"...

لكنهم لم يسمعوا لها. لم يعطوها خياراً. جردوها من ثيابها، وفتشوها بأيدٍ خشنة، وهم يضحكون، وهم يومئون لبعضهم البعض، وهم يشيرون إلى جسدها كأنه شيء معروض للبيع في سوق نخاسة.

كانت تبكي بصمت، لا تبكي من الألم الجسدي فقط، بل من الألم المعنوي العظيم. كانت تبكي على كرامتها التي تساقطت كأوراق الخريف. كانت تستغفر الله في سرها وتتذكر أطفالها، وأسمائهم: سارة، ليلى، يوسف، ريما. وعدتهم في قلبها أنها ستعود إليهم قوية، مهما حدث.

قالت نورا فيما بعد: "لا يمكن لأحد أن يتخيل كيف يكون أن تجرد من ملابسك أمام رجال غرباء، وهم يضحكون عليك، يصفقون، يسخرون من عورتك. تشعر بأنك عارية ليس فقط من الثياب بل من الكرامة، من الإنسانية، من حقك أن تكون إنساناً يحترم. هذا هو الإذلال بعينه. هذه هي طريقتهم في تحطيم روحك قبل أن يبدأوا في تحطيم جسدك".

استغرقت عملية التفتيش خمس عشرة دقيقة، شعرت فيها كأنها دهور. كانت كل ثانية تمر كأنها سنة كاملة من العذاب.

ثم استدعوها للتحقيق.

الفصل السادس: أيام في الفرع

لكنها لم تكن تحقيقاً بالمعنى الذي تعرفه نورا. لم يوجهوا إليها أي سؤال ذي معنى. لم يسألونها عن اسمها، أو عنوانها، أو عملها، أو سبب اعتقالها. بدلاً من ذلك، ألقوا بها على الأرض الباردة وبدأوا يضربونها.

كانوا يضربونها على وجهها، على رأسها، على بطنها، على صدرها، على ظهرها. أي مكان تصل إليه أيديهم أو عصيهم أو أرجلهم. كانت تصرخ، تستغيث، تتوسل. لكن صرخاتها كانت تغرق في جدران الفرع السميكة التي لا تسمع أحداً ولا ترحم أحداً.

قالت نورا: "لم يكن هناك تحقيق. لا أسئلة، لا أجوبة. فقط ضرب. ثم علقوني على حبل من سقف الغرفة، يدان مغلولتان خلف ظهري، ورجلاي تلامسان الأرض بالكاد. بقيت معلقة هكذا لمدة ساعتين تقريباً. كنت أرى الأرض من بعيد، وأسمع دقات قلبي في أذني، وأشعر بالدم يتجمع في رأسي. ثم فقدت الوعي".

عندما أفاقت، كانت مستلقية على الأرض الباردة، وكأن جسدها ليس جسدها بل كيس من الخيش المبلل. رأت الدماء تسيل من أنفها وشفتها المقطوعة، ورائحة الحديد تفوح في الهواء.

سمعت صوت السجان يقول لزميله بدم بارد: "رشوا عليها الماء. لعلها تفوق. ما زال فيها حياة، ويجب أن تستمر حتى ينتهي التحقيق".

رشوا عليها سطل ماء بارد. استفاقت مرتعشة، ترتجف كالعصفور في الشتاء. ثم بدأوا يرفسونها على بطنها، رفساً عنيفاً، متعمداً، كأنهم يريدون أن يجهضوا شيئاً ليس موجوداً. كانت قد أنجبت قبل عام، لكن بطنها كان لا يزال ضعيفاً حساساً. خافت على رحمها، على أحشائها.

قالت نورا: "كان الألم لا يوصف. لا توجد كلمات في القاموس تصف كيف يكون أن ترفسك أقدام عسكرية على بطنك بعد الولادة بعام. كل رفسة كانت كالصاعقة، تنطلق من بطني إلى كل خلية في جسدي".

بعد ذلك، أخذوها إلى زنزانة صغيرة، زنزانة لا يزيد عرضها عن مترين في مترين، سقفها منخفض، وحوائطها رطبة، وأرضها من البلاط الخشن الذي يؤلم إذا جلست عليه زماناً. كانت الزنزانة مكتظة بنساء أخريات، بعضهن يقفن، وبعضهن يجلسن على الأرض في زواياهن، وأخريات كن نائمات على البلاط بدون فرش أو أغطية.

كان الجو حاراً في تلك الزنزانة، لكن الحرارة لم تكن هي القاتلة. القاتلة كانت الرطوبة العالية التي تسبب أمراض الصدر، والتي كانت تنبت الفطريات على الجدران، والتي كانت تجعل النوم مستحيلاً.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، في الساعة الخامسة تماماً، استدعوها ثانية للتحقيق. هذه المرة، كانت هناك أسئلة بالفعل. وقف أمامها محقق في الأربعين من عمره، وجهه كالصخر، وعينان تخفيان ما لا يمكن تخيله من القسوة.

سألها: "شاركتِ في المظاهرات؟"

أنكرت نورا بثبات وهي تكاد لا تستطيع فتح فمها من شدة الضرب الذي تلقته: "لا، لم أشارك".

"لدينا أدلة!" صاح المحقق بقسوة، وضرب بقبضته على الطاولة.

لكنها تمسكت بإنكارها. قالت في قلبها: إذا اعترفت، ضاع كل شيء. هم يريدون اعترافاً، وأنا لن أعطيهم إياه.

ظلت نورا في فرع المخابرات الجوية ثمانية أيام. كل يوم كانوا يستدعونها للتحقيق، يضربونها، يهددونها، يذلونها. ثم يعيدونها إلى زنزانتها حيث تخبر النساء بعضهن عن الأيام الأفضل، عن أطفالهن، عن أحلامهن المبعثرة.

في اليوم الثامن، نقلوها إلى "فرع الأمن الجنائي."

هناك، استدعاها القاضي في اليوم التالي مباشرة. كان قاضياً مسناً، يرتدي نظارة سميكة، ويجلس خلف منصة خشبية طويلة. نظر إليها من فوق نظارته، وقال بصوت جاف: "أنت متهمة بتمويل الإرهاب وإخفاء معلومات".

أنكرت مرة أخرى. "لم أفعل شيئاً يا سيادة القاضي. أنا امرأة بسيطة، ربة منزل، أم لأربعة أطفال".

لكن القاضي لم يسمع لها. اتهمها، وأمر بحبسها. لكنه في نفس الجلسة أفرج عنها بكفالة قدرها خمسة آلاف ليرة سورية. كان ذلك في الثالث عشر من كانون الأول عام ألفين وستة عشر.

بعد ثلاث سنوات قضتها بين جدران الأفرع والسجون، كانت أخيراً خارج تلك الجدران.

قالت نورا: "كانت المرة الأولى التي أخرج فيها إلى الهواء الطلق منذ ثلاث سنوات. خرجت حافية القدمين، بدون حذاء، بدون نعال، بدون أي شيء. كان الطريق من فرع الأمن الجنائي إلى الشارع مرصوفاً بالحصى. والزجاج المكسور. كنت أمشي. وأنا أشعر بأن كل حصاة تخترق قدمي، وكل جزء من الزجاج يقطع لحمي. لكنني لم أشعر بالألم. كنت أشعر فقط بالفرحة. كنت سعيدة جداً لأنني سأرى أطفالي أخيراً. سأرى سارة، وليلى، ويوسف، وريما. كانت هذه الفكرة وحدها تكفي لأنسى كل شيء مر بي".

وقفت عند باب الفرع، ونظرت إلى السماء المفتوحة. كانت السماء زرقاء صافية، والشمس تتوسطها كقرص من ذهب. كانت قد نسيت كيف تبدو السماء مفتوحة، كيف تبدو الشمس عندما تسطع بحرية. غمضت عينيها للحظات، وتنفست الصعداء.

كان الهواء هنا مختلفاً عن هواء الزنازين. كان أنقى، ألطف، أكثر حرية.

بدأت تسأل المارة في الشارع: "أين محطة القطار؟ أريد أن أعود إلى حلب. أريد أن أرى أطفالي".

لكنها لم تجد من يسمعها. كانت غريبة عن دمشق، لا تعرف شوارعها ولا أزقتها ولا محطاتها. كانت وحيدة، خائفة، متشردة، لكنها كانت عازمة. سارت في الشوارع لساعات، وعيناها تبحثان عن أمل، وعن مأوى، وعن أي شخص يعرف إلى أين تتجه.

أخيراً، وصلت إلى بيت صغير في منطقة تشبه حيث كانت تسكن. بدا البيت مألوفاً وإن لم تره من قبل. طرقت الباب. انتظرت. لا رد. طرقت مرة ومرة. سمعت أصوات أطفال من الداخل يبكون، ضحكاتهم، صراخهم. تمنت لو كانوا أطفالها.

عندما سئمت الانتظار، صاحت بأعلى صوتها: "أنا نورا الحموي، زوجة سامر زيادة! افتحوا لي الباب! أنا عائدة! أنا حرة"!

فتح الباب رجل في الظلام. لم تعرفه في البداية، وجهه غارق في الظلام. سألها بحذر: "من أنت؟"

قالت: "أنا نورا، زوجة سامر".

هز الرجل رأسه ببطء، كأنه يستحضر كلمات صعبة. قال بصوت مبحوح: "سامر... زوجك... اعتقلته المخابرات السياسية في اليوم الذي يلي اعتقالك".

شعرت نورا بأن الأرض تدور من تحتها. صرخت: "أين أطفالي؟ أين أولادي؟ سارة؟ ليلى؟ يوسف؟ ريما؟"

أجاب الرجل: "عمهم... عمهم أخذهم إلى بيته. هم بأمان، لا تخافي. هم بأمان".

سقطت نورا على الأرض، باكية، تضرب الأرض بيديها. لم يبق لها شيء. زوجها معتقل، وأطفالها بعيدون عنها، وهي وحيدة في هذه المدينة الباردة التي لا تعرفها. شعرت بأن الدنيا تخلت عنها، وأن السماء سقطت فوق رأسها.

لكن سرعان ما نهضت، مسحت دموعها، وقالت في نفسها بصوت تسمعه وحدها: "يجب أن أكون قوية. من أجل أطفالي. يجب أن أجد عملاً، وأن أؤمن لهم حياة كريمة".

بحثت عن عمل. عثرت على ورشة خياطة صغيرة في الزبداني. استأجرت غرفة قريبة منها. وبدأت روتيناً جديداً: تستيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً، تحضر أطفالها (بعد أن استعادتهم من عمهم) إلى المدرسة، ثم تذهب إلى عملها، وتعود في السابعة مساءً، مرهقة، منهكة، لكنها كانت تشعر بالسعادة لأنها قادرة على إطعام صغارها.

لكنها لم تكن تعلم أن الأقدار تحبك لها فصولاً أخرى من الألم.

الفصل السابع: الاعتقال الثاني

في يوم جمعة مشمس، كان يوم عطلتها الأسبوعية. استلمت نورا أجرها لتوها، وكانت تنوي شراء بعض الاحتياجات المنزلية: طعام للأطفال، حليب، دقيق، وألعاب صغيرة لريما. خرجت من بيتها صباحاً، والسماء صافية، والهواء منعش بنسيم الخريف الأول. نظرت إلى المرآة قبل الخروج فوجدت وجهها يبتسم. ابتسمت للحياة، رغم كل شيء رغم كل ألم مضى.

لكن عند حاجز "محافظة حلب"، أوقفتها دورية. خرج منها جندي يرتدي الزي العسكري، قفازاته سوداء، ووجهه كالحجر. طالب بهويتها، فأعطته إياها بيد مرتجفة قليلاً.

أخذ الجندي الهوية ودخل إلى غرفة الحاجز الصغيرة، وأغلق الباب خلفه. سمعت نورا صوت مكالمة هاتفية، جمل متقطعة، ثم انقطع الصوت. انتظرت دقائق كأنها الدهر. ثم عاد الجندي.

نظر إليها بشفقة مزيفة، أو ربما بلامبالاة، ثم قال: "ما علاقتك بسامر زيادة؟"

ارتجفت نورا من داخلها، لكنها أجابت بهدوء حاولت إخفاء الخوف فيه: "هو زوجي".

قال الرجل لمن معه: "خذوها إلى الفرع." ثم التفت إليها وأضاف ببرود محاولاً تهدئتها: "لا تخافي، يا ست. مجرد تحقيق بسيط. سؤال وجواب، ثم تعودين إلى بيتك وأولادك. لا تقلقي".

لكنها لم تعد.

نقلوها إلى "فرع الأمن العسكري" في حلب، ذلك الفرع الذي كان يسميه الناس بينهم "مسلخ حلب". عرفوا أنه الفرع ٢٩٠، وكان معروفاً بأنه من أشد أفرع المخابرات السورية قسوة ووحشية. كان مبنى ضخماً، يتألف من عدة طوابق، به ساحات واسعة كانت تستخدم للتعذيب العلني أحياناً، ليسمع الجميع صرخات المعذبين ويعتبروا.

دخلت نورا إلى ذلك المبنى، وشعرت بأن رائحة الموت تسبقها. كانت جدرانه تحكي قصصاً لا تحصى من الألم والإذلال. كانت رسوماً على الجدران كتبها السجناء السابقون بأظافرهم وأصابعهم المكسورة: تواريخ، أسماء، أدعية، وشتائم.

في صباح اليوم التالي، استدعوها للتحقيق. تركوها تنتظر خارج باب التحقيق لساعة كاملة، وهي تصغي إلى صراخ المساجين الآخرين الذين كانوا يعذبون في الداخل. كانت أصواتهم تخترق قلبها، وأجسادهم ترتجف حتى من بعيد.

كانت تقف في الردهة المظلمة، تتأمل الحائط، وتهمس لأطفالها في غيابهم: "سأعود إليكم. انتظروني، لا تيأسوا".

وفجأة، رأت نفس الجندي الذي أوقفها عند الحاجز. كان يمشي بجانب رجل آخر. تأملت الرجل الآخر فعرفته. كان زوج شقيقتها، أي أخو زوجها، يدعى **رياض عز الدين** .كان رجلاً في الأربعين، موظفاً حكومياً أيضاً، لكن عينيه كانتا تخفيان شيئاً مختلفاً. شيء ليس كعيني سامر.

دخل الاثنان إلى غرفة المحقق، وأغلقوا الباب. بقيا هناك لنحو ساعة. كانت نورا تتساءل في قلق: لماذا رياض هنا؟ ماذا يفعل في فرع الأمن العسكري؟ هل اعتقلوه أيضاً؟ أم أنه... لا، لا يمكن، هو قريب، زوج شقيقتي، كيف يمكن...

ثم استدعوها. دخلت الغرفة. وقف المحقق منتصباً، وكانت ملامحه متصلبة. قال: "أنت متهمة بتزويد الجيش السوري الحر بالمعلومات".

صُدمت نورا. قالت بصوت يكاد يختنق: "ما هذه التهمة؟ أنا لم أفعل شيئاً من هذا القبيل! أنا ربة منزل، أم لأطفال، أعمل في ورشة خياطة! كيف يمكنني أن أزود أي جيش بأي معلومات؟ يا سيدي، هذا ظلم كبير".

قال المحقق بثقة: "لدينا دليل. مكالمة هاتفية مسجلة بينك وبين زوجك سامر".

فوجئت نورا أكثر. "أي مكالمة؟ أنا وزوجي نتحدث كأي زوجين. ليس في مكالماتنا أي شيء".

قال المحقق: "المكالمة سجلها زوج شقيقتك، رياض عز الدين".

التفتت نورا إلى رياض. كان يقف في زاوية الغرفة، لا ينظر إليها، عيناه تتجهان نحو الأرض كأنه يخجل مما فعل. صرخت فيه بصوت مرتفع: "رياض! أنت؟ كيف يمكنك أن تفعل بي هذا؟ نحن عائلة واحدة! زوجتك هي أختي! كيف تشهد ضدي زوراً؟"

نظر رياض إليها للحظة، رأت في عينيه شيئاً: كان الخوف، أو الذنب، أو ربما القسوة. ثم التفت بعيداً.

كانت المكالمة المسجلة بين نورا وزوجها سامر، وقد سجلها رياض في هاتفه دون علمهما. في المكالمة، كانت نورا تتحدث مع سامر من "المناطق المحررة". كانت تقول له: "لقد تشاجرنا كثيراً، سامر. لكنني سأعود عندما تهدأ الأمور. انتظرني".

هذه الجملة البسيطة، وفقاً للمحققين، كانت تشير إلى "مهمة" قامت بها نورا في المناطق المحررة. كانت إشارة إلى أنها كانت تعمل مع المعارضة.

قال رياض للمحققين: "كانت نورا تزود الإرهابيين بالمعلومات. كانت تحرض زوجها على حمل السلاح. كانت تدبر الأمور معهم".

بكت نورا في داخل نفسها، لكنها لم تظهر البكاء. قالت بصوت ثابت: "كيف يمكن للقريب أن يفعل بي هذا؟ كيف أقسم بالله العظيم أن ما أقوله هو الحق، وأنتم تسمعون كذباً مفضوحاً؟ زوجي سامر موظف حكومي. لم يغب عن العمل يوماً واحداً في حياته. كيف يمكن أن يكون مسلحاً؟ وكيف يمكن أن أزوده بمعلومات وأنا لا أعرف شيئاً عن السياسة أو الحرب؟ المكالمة كانت عادية، كنت أتحدث مع زوجي عن خلافاتنا الزوجية! عن الغضب والمصالحة! هذا كل شيء"!

لكن كلماتها كانت كالماء يصب على الصخر. كان القرار قد اتخذ مسبقاً. كانوا في حاجة إلى ضحية جديدة، وكانت هي الفريسة المناسبة.

الفصل الثامن: التحقيق والتعذيب

في جلسة تحقيق لاحقة، أحسّت نورا بشيء غريب. كان المحقق قد أمرها أن تواجه الحائط هذه المرة، بدلاً من أن تواجهه. كان ذلك مخالفاً لكل ما سبق. دائماً كانوا يريدون رؤية وجهها للتأكد من أنها صادقة. لكن هذه المرة، أرادوا إدارة ظهرها لشيء ما.

قالت نورا: "دائماً كنت أعتمد على السمع في التحقيقات. كنت أستمع إلى تنفس المحقق، إلى خطواته، إلى نبرة صوته، لأعرف كيف سيكون السؤال التالي. كنت أتتبع صوته كالرجل الأعمى. لكن هذه المرة، شعرت بوجود شيء آخر في الغرفة. شخص آخر يتحرك بصمت، يتربص بي. دون أن يطلب مني أحد، ودون تفكير، أدرت رأسي ببطء".

لم تر شيئاً. الغرفة مظلمة، وعيناها معصوبتان جزئياً. لكنها شعرت بيد تصفعها على وجهها بقوة، صفعة كادت تخلع فكها. سمعت صوتاً قصيراً، خافتاً، لكنها لم تتعرف عليه. كانت صفعة جبانة، من شخص لا يريد أن يعرف.

في الأيام التالية، تكرر السيناريو نفسه. تحقيق، ضرب، تهديد. وكان السجان كل يوم يوقد ولاعة صغيرة ويقربها من أطراف أصابعها. كانت ترى أصابعها تتفحم، ورائحة لحمها المحترق تملأ الغرفة، وكانت تصرخ من الألم الذي لا يوصف.

قالت نورا: "حرق الأصابع كان الأسوأ. كان الألم لا يحتمل، كأن ناراً تدخل تحت أظافرك وتأكل عروقك. كنت أتمنى لو يضربوني بالعصي بدلاً من ذلك. العالم كلها تعرف أن حرق الأصابع هو أقسى أنواع التعذيب، لأنه يصل إلى الأعصاب مباشرة. لكنهم كانوا يستمتعون بذلك. كنت أرى في عيونهم فرحة شيطانية وهم يشاهدون دموعي".

استمر هذا التعذيب لمدة شهر كامل. مرت الأيام كالكابوس المتكرر، كل يوم يشبه الذي قبله: يقظة، تحقيق، ضرب، تهديد، عودة إلى الزنزانة. كانت تفقد الإحساس بالزمن. كانت تفقد الإحساس بالأمل.

في نهاية الشهر، استدعاها المحقق. قال لها بصوت هادئ مخيف، وكانت عيناه تتلألآن كعين الثعبان قبل أن يلسع: "سأرميك وراء الشمس، نورا. لا تتوقعي أقل من إعدامك".

ثم دفع إليها ورقة بيضاء وأجبرها على التوقيع عليها. لم تستطع نورا قراءة ما في الورقة، لكنها كانت تعلم أنها توقع على شيء سيئ.

قالت نورا: "في تلك اللحظة، عرفت أن نهايتي قد حانت. كنت متأكدة أن الورقة البيضاء هي حكم إعدامي. توقيعي على بياض يعني أنهم يستطيعون كتابة أي شيء يريدون. اعترافات مزورة، تهم ملفقة. كل شيء يريدونه".

لكنها لم تعرف بعد أن الأقدار احتفظت بأسوأ ما لديها للنهاية.

الفصل التاسع: فرع فلسطين

في صباح يوم ما، في الخامسة صباحاً، نادى السجان على اسمها، بالإضافة إلى ستين رجلاً وامرأة. كانوا جميعاً في باحة الفرع، والخوف يملأ قلوبهم. عندما رأت نورا الباص الكبير القديم الذي كان ينتظرهم، عرفت أنهم سيسافرون بعيداً. إلى دمشق.

قالت نورا: "كان الباص ضخماً، صدئاً، نوافذه مغلقة بألواح حديدية. وضعونا داخله كأننا قطعان مواشي. السفر استغرق ساعات طويلة، الطريق مليء بالحفر والمطبات. كنا نرتطم ببعضنا البعض في كل منعطف، نصرخ من الألم. لم أكن أعرف وجهتنا، لكنني كنت أعرف أنها لن تكون مكاناً جيداً، لأنه لا يوجد مكان جيد لمن يذهبون إلى المجهول".

عندما وصلوا، أنزلوهم من الباص بجفاء. وقفت نورا أمام مبنى ضخم، جدرانه رمادية عالية، وأسلاك شائكة تحيط به من كل جانب. فوق البوابة الرئيسية، قرأت عبارة مكتوبة بخط عربي جميل يحمل في أناقته شيئاً من السخرية:

"الداخل مولود، والخارج مولود. الداخل مفقود، والخارج مولود".

كانت هذه هي "فرع فلسطين."

فرع فلسطين، ذلك السجن الذي كان حديث الناس في كل مكان. تحدث عنه الأسرى كأنه الجحيم بعينه. يقع في منطقة فلسطين بدمشق، ومن هنا جاؤوا باسمه. كان مكاناً يحبس فيه الناس لشهور، ثم تنتظر دورها للتحقيق. وكان البعض لا يرون النور أبداً.

قالت نورا: "عندما قرأت هذه العبارة، عرفت أنني في مكان لا يمكن أن أخرج منه بسهولة. الداخل مفقود، أي أن من يدخل يضيع ولا يعود. والخارج مولود، أي أن من يخرج يولد من جديد، إذا خرج أصلاً. كم من الناس دخلوا فلم يخرجوا؟ كم من الأمهات والآباء والأبناء ضاعوا في هذا الفرع؟"

أخذوها إلى الطابق الثالث. كان هناك تسع غرف كبيرة، كل غرفة تضم اثنتين وثلاثين امرأة. كانت الغرفة مكتظة لدرجة الاختناق. الحر لا يطاق، والرطوبة تسيل من الجدران كالعرق، والروائح تفوح من كل زاوية.

في تلك الغرفة، تعرفت نورا على نساء من كل مكان: من دمشق، حمص، حماة، درعا، اللاذقية، دير الزور، الرقة. كل واحدة لهن قصة أليمة: اعتقال، تعذيب، فقدان أحباء، ألم لا ينتهي. تجلس النساء في حلقات في الليل، يحكين قصصهن، يبكين معاً، يحتضن بعضهن بعضاً.

لكن ما كان يزيد الألم سوءاً هو أن الموت كان يزورهم يومياً. كان الرجال يموتون بأعداد كبيرة في فرع فلسطين. والنساء كذلك، وإن كان fewer.

في أحد الأيام، قالت لها سجينة كبيرة في السن: "تعالي، يا ابنتي، سأريك شيئاً".

أخذتها إلى غرفة مجاورة. في زاوية الغرفة، كانت هناك بطانيات ملفوفة على الأرض. عندما فتحوا البطانية، رأت جثثاً متعفنة، وقد غطاها الدود. منظر لا يفارق العين.

قالت نورا: "رأيت جثثاً، بعضها لشبان في مقتبل العمر، وبعضها لشيوخ ونساء، وبعضها لأطفال صغار. كانت البطانيات التي ننام عليها هي نفسها التي كانت تستخدم لتغطية الموتى. وفي بعض الليالي، كنا نستيقظ ونجد الدود يزحف على بطانياتنا. كان الدود يأتي من الجثث الموجودة في الغرفة المجاورة. كنا ننام والموت يجاورنا".

كانت تلك حياتهم في فرع فلسطين: انتظار الموت مع القليل من الأمل.

الفصل العاشر: وشوم الذاكرة

في يوم من الأيام، سُمح للنساء بالاستحمام. كانت هذه مناسبة نادرة، فالمياه كانت تنقطع لأسابيع، وأحياناً لشهور. دخلت النسوة إلى الحمام، وهو غرفة صغيرة دافئة نسبياً، بالمقارنة مع برودة الزنزانة.

على أرضية الحمام، وجدت إحداهن دبوساً صغيراً صدئاً. التقطته امرأة تدعى **أمينة**، وكانت معروفة بينهن ببراعتها في الرسم. قالت وهي تمسك الدبوس كقلم: "أريد أن أرسم وشماً. من تريد الوشم، فلتأت".

اصطفت النساء أمام أمينة، كل واحدة تطلب وشماً مختلفاً: قلوب، زهور، أسماء أحباء، عبارات، تواريخ.

اقتربت نورا، وكانت عيناها تدمعان. قالت: "أريد وشماً".

اندهشت النساء. في تلك الظروف القاسية، من يفكر في الوشم؟ سألتها إحداهن: "تريدين وشماً؟ حقاً؟"

قالت نورا: "نعم".

"أي وشوم تريدين؟" سألت أمينة.

فكرت نورا قليلاً، ثم قالت: "حروف... ح. ن. م. س".

"لماذا هذه الحروف؟" سألتها امرأة أخرى.

ابتسمت نورا ابتسامة حزينة، وقالت بصوت خافت: "هذه الحروف هي بداية أسماء أطفالي... حسان، ناديا، مازن، سلمى".

ساد الصمت للحظة. ثم نظرت النساء إلى بعضهن البعض، ودمعت عيونهن. في تلك اللحظة القصيرة، تذكر الجميع لماذا كانوا يعيشون، ولماذا كانوا يكافحون، ولماذا لم يستسلموا بعد.

أمسكت أمينة الدبوس، وبدأت تشق جلد نورا بلطف، ترسم حرفاً حرفاً. كانت نورا تئن من الألم، لكنها لم تشعر به. كان ألم الوشم لا شيء بالمقارنة مع ألم التعذيب. كانت ترى

الحروف تظهر على جلدها كعلامات مضيئة، تجسد حبها لأطفالها، وتذكرها بأنها لا تزال أما، وأنها ستعود إليهم.

قالت نورا: "في بعض الأحيان، كنت أنظر إلى هذا الوشم وأتأمله. كنت أتذكر شكل وجوههم، ضحكاتهم، أصواتهم. كنت أخشى أن أنساهم. كانت الأيام تمضي، والأشهر تمر، وكنت أخاف من أن أنسى. تفاصيلهم. كنت أتساءل: هل كبروا؟ هل تغيروا؟ هل مازالوا يتذكرونني؟ وكان ذلك الألم - ألم النسيان - أشد من ألم الدبوس الذي يشق جلدي".

كان ذلك الوشم الصغير هو كل ما تبقى لها من حياتها السابقة، من هويتها، من حبها.

الفصل الحادي عشر: تحقيق وهمي

بعد ثلاثة أشهر في فرع فلسطين، استدعوها للتحقيق. كانت قلوب النساء تخفق بالأمل. لعلهن سيخرجن أخيراً. لكن ما حدث كان مخيباً للآمال. لم يكن تحقيقاً حقيقياً، بل إجراء شكلي فارغ. سألوها أسئلة عامة، عن اسمها وتاريخ ميلادها وعنوانها القديم. لم يسألوها عن التهم، ولم يذكروا قضيتها. ثم أجبروها على وضع بصماتها على بعض الأوراق، وأعادوها إلى زنزانتها.

بعد أيام، نقلوها إلى سجن عدرا القريب من دمشق. سجن عدرا كان معروفاً بقسوته أيضاً، وإن كان مختلفاً عن فرع فلسطين. كان أكبر حجماً، وأكثر تنظيماً، لكنه كان موحشاً بنفس القدر.

ظنت نورا أنها ستخرج أخيراً. لكنها كانت مخطئة.

في سجن عدرا، التقت بنساء كن قد أمضين ثلاثة أشهر ينتظرن دورهن للمثول أمام القاضي. لم يكن مسموحاً لهن بالخروج، ولا حتى بالسجن الرسمي. كن عالقات في منطقة رمادية: محتجزات لدى المحكمة، بلا تهم محددة، بلا موعد للمحاكمة، بلا صفة قانونية.

قالت نورا: "كانت أيامي في عدرا أسوأ من أيامي في فرع فلسطين. لأنني في فرع فلسطين كنت أعرف أنني سجينة. هنا، كنت لا شيء. كنت محتجزة بلا تهمة، ولم أكن أعرف متى سينتهي كل شيء".

بعد سبعة عشر يوماً، استدعاها القاضي. كان اسمها القاضي خلود الحموي. كانت خلود معروفة في أوساط السجناء بقسوتها، وبعدم إطلاق سراح أحد أبداً. كانت تجلس خلف منصتها، تلبس رداء القضاء الأسود، وعيناها تخفيان حقداً عظيماً على السجناء.

نظرت إلى نورا من فوق نظارتها، وقالت بصوت بارد كالثلج: "أمر بحبسك".

لم تسأل نورا عن التهمة. عرفت أنها لو سألت، فلن تجد جواباً عادلاً. كانت تعلم أن هذه القاضية تستمتع بمعاناة الناس. كانت تضحك في أحكامها، فرحة بشرها.

أعيدت نورا إلى عدرا، لكن هذه المرة إلى "الجناح الرابع"، الذي كان يعرف بين السجينات بـ"جناح الموتى". كان ذلك الجناح أشد قسوة. الجدران رطبة ومتعفنة، والأرض متسخة بالدماء والفضلات، والطعام قليل ومسموم أحياناً، والماء كان مقطوعاً لأيام وأيام. وكان المرض يفتك بالنساء واحدة تلو الأخرى: سل، كوليرا، التهاب كبدي، أمراض جلدية.

قالت نورا: "في جناح الموتى، شعرت بأن الموت قادم لا محالة. كنت أسمع النساء يبكين في الليل، يندبن أطفالهن وأزواجهن وأهلهن. كنت أبكي معهن، حتى جفت دموعي. لم يعد عندي دموع لأبكيها. كنت أتساءل: لماذا كل هذا؟ ماذا فعلنا لنستحق كل هذا العذاب؟"

بعد عام كامل في هذا الجناح، أفرج عنها بكفالة خمسة آلاف ليرة سورية. فرحت نورا كثيراً لدرجة أنها كادت تطير من الفرحة. حلمت أنها ستعود إلى أطفالها، وأنها ستراهم قريباً.

لكن قبل يوم من إطلاق سراحها، دخل عليها المقدم. نظر إليها بوجه لا يعبر عن أي شيء، ثم قال: "وصلت برقية من المخابرات السياسية. تأمر باعتقالك مرة أخرى".

انهارت نورا على الأرض باكية. كانت تعود إلى نقطة الصفر.

الفصل الثاني عشر: الفرع ٢١٥

أرسلت نورا إلى "فرع الأمن السياسي" في الفيحاء بدمشق، المعروف باسم "الفرع ٢١٥". كان ذلك الفرع من أقوى أفرع المخابرات وأكثرها دموية. كان مخصصاً لتعذيب وإذلال المعتقلين قبل إرسالهم إلى صيدنايا، أو إلى مثواهم الأخير.

كانت نورا تشعر بأنها تعيش كابوساً متكرراً. مرة أخرى، جردوها من ملابسها في "التفتيش"، مرة أخرى فتشوها بطريقة مهينة، مرة أخرى سحقوا كرامتها تحت أقدامهم. لكن هذه المرة، كان هناك شيء مختلف. لم يتركوه طويلاً في زنزانة الاستقبال.

بعد خمس عشرة دقيقة فقط، استدعوها للتحقيق.

قادها السجان إلى "المسلخ". كان ذلك القبو واقعاً تحت الأرض، بضعة طوابق تحت سطح الأرض. كان المكان مظلماً، رطباً، تفوح منه رائحة الدم والعفن. كانت هناك كراسي حديدية عليها أحزمة جلدية، وأسلاك كهربائية معلقة من السقف، وأدوات تعذيب مختلفة لا تعرف نورا أسماءها ولا وظائفها.

قال لها السجان: "امسكي هذه العصا." وأعطاها عصا خضراء اللون، طويلة، ثقيلة. عرفت نورا فيما بعد أن هذه العصا تسمى "الأخضر الإبراهيمي"، وكانت تستخدم كوسيلة للتعذيب والتهديد.

مشى معها السجان إلى غرفة التحقيق، حيث كان رئيس الفرع ينتظرها. كان رئيس الفرع رجلاً في الخمسين من عمره، أصلع الرأس بالكامل، وجهه متجعد كثمرة يابسة، وعيناه زرقاوان باردتان لا تعكسان أي إنسانية. وقف المحقق إلى جانبه، وكان يخاطبه بعبارة "سيدي"، مما جعل نورا تدرك أن هذا الرجل هو القمة في هرم السلطة هنا.

بدأ رئيس الفرع التحقيق بسؤال عن زوجها: "سامر زيادة. هل هو مسلح؟"

قالت نورا: "لا، سيدي، ليس مسلحاً. وهو موظف حكومي يعمل في مصلحة السكك الحديدية. لم يتغيب عن العمل يوماً واحداً".

لم يصدقها رئيس الفرع. ابتسم ابتسامة باردة، ثم بدأ يكرر عليها أسئلة فرع المخابرات الجوية السابقة: "لماذا اعتقلت؟ ماذا فعلت في المظاهرات؟ مع من كنت تتواصلين؟ من هم أصدقاؤك في الجيش الحر؟"

ظلت نورا تنكر، وتنكر، وتنكر. كانت تجيب بهدوء ورزانة، رغم الخوف الذي كان يملأ قلبها.

بعد ساعة من هذا المماطلة، أشار رئيس الفرع إلى مساعديه وأمرهم: "أبعدوها قليلاً. لدينا مفاجأة لها".

أخرجوا زوجها سامر من إحدى الغرف المجاورة.

لم تصدق نورا عينيها. كان سامر شاحباً، نحيلاً، عيناه غائرتان في محجريه، ولحيته طويلة غير مهذبة. بدا أكبر بعشر سنوات على الأقل من عمره الحقيقي، وكأن سنه قد تضاعف في فترة قصيرة. كان يرتدي ملابس ممزقة، وقد بدت على وجهه علامات التعب والمرض.

عندما رأته نورا، صرخت داخلياً: "سامر! ماذا فعلوا بك؟" لكنها تذكرت تحذير السجان: "اصمتي! لا تنطقي بكلمة واحدة"!

نظرت إلى زوجها بعينين تدمعان، وتمنت لو تستطيع أن تتحدث معه، لو تستطيع أن تسأله: "ماذا حدث لك؟ ماذا فعلوا بك؟ كيف وصلت إلى هنا؟ أين كنت كل هذه الأشهر؟"

لكنها صمتت.

بدأ التحقيق مع سامر. كان المحقق يوجه إليه أسئلة حادة، رفع صوته فيها كأنه يريد أن يصل صوته إلى كل زوايا الغرفة. سأله: "ماذا كانت وظيفتك؟"

قال سامر بصوت خافت، مرتجف: "كنت... كنت مسلحاً." عرفت نورا أنه يعترف تحت التعذيب. كان يعترف بشيء ليس فيه، لينجو بنفسه.

سأله المحقق: "وما هي مهمة زوجتك؟"

تنفس سامر بعمق، ثم قال: "كانت... كانت تحرضني على حمل السلاح. وكانت تزود الجيش الحر بالمعلومات".

صُدمت نورا. لم تصدق أذنيها. زوجها، شريك حياتها، والد أطفالها، يتهمها زوراً، ويقر بأنها إرهابية! لكنها عرفت أنه تحت التعذيب، الإنسان لا يملك نفسه.

استدعى رئيس الفرع نورا إلى الغرفة، وقال لها: "نورا، اسمعي. زوجك اعترف ضدك. هل توافقين على ما قاله؟"

في تلك اللحظة، أدار سامر رأسه ورأى زوجته للمرة الأولى منذ عام. رأى أنها موجودة في نفس الغرفة. كانت عيناه تدمعان، وشفتاه ترتجفان. تمنى لو أن الأرض تبتلعه.

أدرك أنه قد اتهمها ظلماً، وأنه تسبب في تعذيبها. بكى بصمت.

قالت نورا بثبات، وهي تنظر إلى المحققين مباشرة: "ما قاله عني غير صحيح. أنا امرأة بسيطة، لست إرهابية، ولا أحرض أحداً على أي شيء. زوجي موظف حكومي مجتهد. لم يغب عن العمل يوماً واحداً. ولم يكن مسلحاً. إنه يعترف تحت التعذيب فقط".

عندما شعر سامر بشجاعة زوجته، تغير موقفه فجأة. قال بصوت أقوى مما كان يتوقع: "لقد اعترفت تحت التعذيب. أنا وزوجتي لسنا مسلحين. لا علاقة لنا بالأسلحة أو المظاهرات. كل ما قلته كان كذباً تحت التعذيب. أرجوكم، لا تؤذوها".

غضب المحققون غضباً شديداً. بدأوا يضربون سامر مرة أخرى، ضرباً مبرحاً، ضرباً على رأسه وكتفيه وبطنه. ثم هددوه: "إذا لم تعترف، سنغتصب زوجتك أمام عينيك. سنفعل بها ما لا تتخيله".

كان هذا هو الذل الأكبر. أن يزج العدو بأقرب الناس إليك ويهددك بها. سمع سامر صراخ نورا وهم يعذبونها في الغرفة المجاورة. سمع صوت بكائها، صوت توسلاتها. انهار باكياً، صارخاً: "اتركوها... اتركوها... سأعترف بأي شيء تريدون".

قالت نورا بعد سنوات: "في تلك اللحظة، شعرت بأن ناراً تحيط بي من كل جهة. سمعه يصرخ، وسمعت ضرباتهم، وسمعت بكاءه. كنت أرغب في أن يطلق سراح زوجي، وفي

الوقت نفسه كنت أشعر بالخجل الشديد من النظر إليه. كيف يمكن لزوج أن يرى زوجته تعذب أمامه؟ كيف يمكن لرجل أن يرى امرأته تذل هكذا؟ ماذا كان يشعر؟ ربما كان يشعر بالألم، وربما كان يشعر بالعار، وربما كان يتمنى الموت. لا أستطيع أن أصف ذلك، مهما حاولت".

بعد يومين، استدعاها المحقق. كان وجهه بارداً كالمعتاد. قال بجفاء: "زوجك مات".

الفصل الثالث عشر: الموت أمام العينين

لم تصدق نورا ما سمعته. ظنت أن المحقق يمزح، أو أنه يعني أن سامر قد فقد وعيه فقط. الضرب كان شديداً، ربما فقط فقد وعيه. قالت: "لا، لا يمكن. هو فقط مغمى عليه. سيفيق بعد قليل".

لكن المحقق كرر: "لا، نورا. مات. قتلناه. خلصنا منه".

أحسّت نورا بأن الأرض تنهار من تحتها، والسماء تسقط فوق رأسها. سامر، زوجها الذي عاشرته خمسة عشر عاماً، والد أطفالها الأربعة، الذي لم يؤذِ أحداً في حياته، الذي كان همه الوحيد أن يؤمن لقمة العيش لأسرته، مات تحت التعذيب في زنازين الفرع ٢١٥.

قالت نورا بصوت مبحوح: "كيف؟ كيف مات؟"

قال المحقق ببرود: "مات تحت التعذيب. أو ربما مات من الذل. لا يهم. المهم أنه مات، وأنك لا زلتِ هنا".

بكت نورا بكاءً شديداً، لم تتوقف لساعات. كانت تبكي زوجها، وتبكي نفسها، وتبكي أطفالها الذين أصبحوا يتامى في هذه الدنيا القاسية.

قالت: "لا يمكنني أن أسامحهم على ما فعلوه بي. ضربوني، جردوني من ملابسي، عذبوني، هددوني، كل ذلك يمكنني أن أسامحهم عليه. يمكنني أن أغفر لهم إذا تابوا. لكن لا يمكنني أن أسامحهم على ما فعلوه بزوجي. قتلوه ظلماً. أذلوه أمامي، وجعلوه يتهمني زوراً، ثم قتلوه. هذا لا يغتفر أبداً. أبداً".

بعد أيام من موت زوجها، عادت نورا إلى سجن عدرا، هذه المرة بتهمة جديدة: "إخفاء معلومات". حكم عليها بالسجن لمدة غير محددة. لكن جسدها لم يعد يحتمل. بعد شهر تقريباً، أصيبت بشلل نصفي. فقدت الإحساس في الجزء السفلي من جسدها، واعوج فمها، وأصبحت لا تستطيع الحراك.

قالت نورا: "استيقظت يوماً فوجدتني لا أشعر برجليّ. حاولت أن أنهض، فسقطت على الأرض. حاولت أن أصرخ، فخرج صوتي مشوهاً. رأيت فمي في مرآة صغيرة كانت إحدى السجينات تمتلكها، فوجدته منحرفاً إلى اليسار. كنت مرعوبة".

ثم ارتفعت حرارتها فجأة، وفقدت الوعي.

كانت السجينات يدقن على الأبواب، يطلبن طبيباً. جاء الأطباء بعد ساعات، أعطوها سوائل ومضادات حيوية، وأخذوا عينة من دمها. اكتشفوا أن جرثومة غريبة قد دخلت إلى دمها ووصلت إلى رأسها، بسبب المياه الملوثة التي كانت تشربها في السجن. تلك المياه كانت تجمع من آبار غير نظيفة، وتوزع على السجناء بدون معالجة.

قالت نورا: "مرضت لمدة شهرين كاملين بين الغيبوبة والإفاقة. كنت أصحو قليلاً، أرى السقف الخرساني، أتساءل أين أنا. ثم أعود إلى غيبوبة. وفي كل مرة أفيق فيها، أتساءل: هل سأموت هذه المرة؟ لكنني كنت أتذكر أطفالي. كنت أتذكر وجوههم التي بدأت تبهت في ذاكرتي. كنت أقول في نفسي: لا، لن أموت. سأعيش من أجلهم. هم بحاجة إلي".

بعد شهرين، شفيت نورا تماماً. كانت معجزة، حسب الأطباء. لكن نورا عرفت أن شفاءها لم يكن معجزة طبية فقط، بل كانت إرادة الله، وإرادتها في البقاء من أجل أولادها.

الفصل الرابع عشر: الإفراج والسفر

بعد أن استعادت نورا قوتها شيئاً فشيئاً، بدأت تفكر في كيفية الخروج من هذا السجن الملعون. عادت إلى العمل في ورشة الخياطة التي كانت تديرها سجينات أخريات. كانت

تستخدم ما تبقى من مهاراتها في الخياطة والتطريز لتصنع تصاميم بسيطة، ثم تبيعها للسجينات مقابل سجائر أو قطع خبز أو بعض المال.

في أحد الأيام، تسربت أخبار إلى سجن عدرا عن أحكام إعدام صدرت بحق عدد من السجينات. قيل إن القاضي خلود الحموي أصدرت أحكاماً بالإعدام بحق عشر نساء، وكانت نورا إحداهن. شعرت نورا بالرعب يتسلل إلى قلبها.

عرفت أنها إذا لم تتصرف بسرعة، فإن مصيرها سيكون الإعدام. أعطت صديقتها المقربة توكيلاً لمحامٍ كان يعمل في مجال حقوق الإنسان، على أمل أن يتمكن من الدفاع عنها. دفعت رشوة سرية للقاضي - خمسمائة ألف ليرة سورية - للإفراج عنها بكفالة.

استغرقت العملية شهرين كاملين. في نهايتها، مثلت نورا أمام قاض جديد (ليس خلود الحموي). نظر إليها القاضي، ثم قال: "انتهى الأمر. أطلقوا سراحها".

قالت نورا: "عندما سمعت هذه الكلمات، لا أعرف كيف ركضت وخرجت من ذلك المكان. كنت أخشى أن يتراجعوا عن قرارهم في أي لحظة. كنت أرى الحراس وهم ينظرون إلي، وأتوقع أن يقول أحدهم: 'لقد أخطأنا، ارجعي.' لكنني وصلت إلى البوابة، وخرجت".

خرجت من السجن ووقفت في الشارع. كانت الفرحة والخوف يخالطان بعضهما. تنفست الهواء بعمق، ثم أدارت رأسها يمنة ويسرة. كانت تتساءل: إلى أين أذهب الآن؟ كيف أعود إلى حلب؟ لا أعرف دمشق جيداً. لم أزرها من قبل. أحتاج إلى هاتف لأتصل بأحدهم.

اتصلت بصديقتها ميسون، التي أتت وأخذتها إلى منزلها.

في تلك اللحظة، سمعت أذان المغرب يصدح من مسجد قريب. كانت مدة طويلة جداً منذ أن سمعت هذا الصوت. في السجن، كانوا يمنعون الأذان، أو يخفضون صوته. لكن هنا، في الخارج، كان الأذان يرتفع عالياً كما ينبغي.

وقفت نورا حيث هي، وأغمضت عينيها، وأنصتت. كانت الدموع تسيل على خديها.

قالت نورا: "شعرت بأنني طفلة مولودة حديثاً، تسمع الأذان لأول مرة في حياتها. كان صوتاً جميلاً، نقياً، يملأ قلبي بخشوع وراحة لم أشعر بها منذ سنوات. تذكرت كل ما حدث لي،

وكيف أن الله نجاني من كل هذا. كنت أشعر بأن الله كان معي في كل خطوة. أرسل لي القوة عندما كنت ضعيفة، وأرسل لي الأمل عندما كنت يائسة. شكرته من كل قلبي".

اتصلت بأطفالها، وأخبرتهم أنها ستأتي إليهم قريباً. عملت لبعض الوقت في ورشة خياطة في دمشق لتجمع ما يكفي من المال لتغطية تكاليف السفر إلى حلب. ثم توجهت إلى مدينة إدلب، حيث كانت المناطق المحررة، وأعادت شملها مع أطفالها هناك.

لكن الفرحة لم تكتمل. ابنتها الصغرى سلمى بقيت في حلب. لم يستطع ابنها الأكبر إحضارها معه، لأن الظروف كانت صعبة، والطرقات موصدة. كانت نورا تعاني من ألم الفراق كل يوم، وكانت تبكي كل ليلة وهي تتذكرها.

قالت نورا: "لا يمكنني أن أنسى. أي شيء. لا يمكنني أن أنسى. أطفالي، ولا يمكنني أن أنسى. زوجي، ولا يمكنني أن أنسى. ما حدث لي. يمكنني أن أتظاهر بأنني نسيت، فقط لأتمكن من الاستمرار. لكنني لا أنسى. أبداً. في أي تجمع اجتماعي، أجد نفسي. أتحدث تلقائياً عن السجون والأفرع، عن التعذيب، عن الإذلال. يمكنني أن أصمت عن ذلك، أن أكتمه في داخلي، ألا أذكره لأطفالي. لكنني لا أستطيع أن أتظاهر بأنني سامحتهم. لا أستطيع أن أسامحهم على ما فعلوه بي وبزوجي. هذا مستحيل".

الخاتمة: حريّة يا دنيا

في كانون الأول من عام ألفين وأربعة وعشرين، سقط نظام البعث. سقط بشار الأسد، وسقط معه كل من آواه وكل من سانده. سقطت المجازر، وسقطت السجون، وسقطت الأفرع، وسقطت آلة القمع التي حكمت سوريا لأكثر من خمسين عاماً.

في اليوم الذي أعلن فيه سقوط النظام، كانت نورا جالسة في منزلها الصغير في إدلب، تشاهد التلفزيون. رأت الناس يخرجون إلى الشوارع يهتفون ويرقصون ويزغردون. رأت تماثيل الأسد تتهدم، وصور الأسد تمزق. رأت أعلام المعارضة ترفرف في كل مكان.

صرخت من كل قلبها: "أوه... حريّة!" ثم انفجرت باكية.

التفت إلى صورة زوجها سامر المعلقة على الحائط، وقالت بصوت يقطر أسى: "كم تمنيت لو كنت هنا، سامر. كم تمنيت لو رأيت هذا اليوم. كم تمنيت لو عانقتك مرة أخرى. كنت تستحق أن تعيش لترى هذا. لكنهم قتلك، وماتت معك أحلام كثيرة".

لا تزال نورا تعاني من آثار التعذيب حتى اليوم. كتفها المكسور لم يلتئم بشكل صحيح، ورقبتها تؤلمها باستمرار، وعيناها لا تريان بوضوح كما كانتا تفعلان من قبل، وجسدها يحمل ندوباً لا تزول.

لكنها لم تفقد الأمل. تعمل الآن في ورشة خياطة صغيرة في إدلب، تكافح من أجل إعالة أطفالها الثلاثة (بعد أن فقدت ابنتها سلمى التي بقيت في حلب، وتقول إنها ستعود إليها يوماً ما). وتحلم بأن يعود السلام إلى سوريا، وأن يتمكن السوريون من بناء بلدهم من جديد، وأن تزور قبر زوجها وتضع بجانبه وردة بيضاء.

وهي تناشد العالم كله:

"كان زوجي سامر رجلاً بريئاً. موظف حكومي بسيط، يحب أسرته ويعمل من أجلها. قتلوه بذريعة أنه مسلح. هل هذه عدالة؟ أليس من حقي أن أغضب؟ أنا لا أطلب منكم الكثير. فقط اعرفوا الحقيقة. فقط اعرفوا كم عانى السوريون تحت نظام البعث. وارفعوا العقوبات عن سوريا، لنتمكن من إعادة بناء بلدنا المدمر".

وتختم قولها باكية: "أتمنى لو كان سامر حياً. أتمنى لو كان معي الآن. لكنه رحل. رحل، وأخذ جزءاً كبيراً من قلبي معه. لكنني ما زلت هنا. ما زلت أعيش من أجل أطفالي. ما زلت أؤمن أن الغد سيكون أفضل".

تمت الرواية

سوريا، بعد التحرير

كانون الثاني ٢٠٢٥

حُرِيَّة
حكاية نُهى، الطبيبة المسعفة المعتقلة
المقدم سليمان
لم يقتصر التعذيب
على الجسد...
عن ابنة عمك...
قنابل يدوية...

حرية ...

حكاية نهى الطبيبة المسعفة المعتقلة

البداية: صوت من تحت الأنقاض

في صباح يوم خريفي من عام ألفين واثني عشر، خرجت **نهى زيدان** من منزل عائلتها في حي الحميدية العريق بحماة، تحمل في قلبها أملاً لا تظهره على ملامحها. كانت السماء رمادية اللون، ورياح الشمال الباردة تعصف بأوراق الشجر المتساقط، وكأن الطبيعة نفسها تستعد لاستقبال كارثة.

كانت نهى في التاسعة والعشرين من عمرها، امرأة ذات وجه مستدير وعينين بنيتين تخبئان وراءهما صلابة لم تكتشفها بعد. شعرها الأسود كان مربوطاً بذيل حصان بسيط، وأصابعها النحيلة تظهر عليها آثار الكيماويات والمواد المطهرة التي اعتادت استخدامها في علاج الجرحى. كانت تعمل مسعفة ميدانية في مستشفى ميداني سري، تعالج الجرحى الذين سقطوا في احتجاجات ضد النظام السوري.

لم تكن نهى تطمح لأن تكون بطلة، ولم تكن تحلم بالشهرة أو المال. كانت فقط امرأة عادية، استيقظ ضميرها ذات يوم وقالت لها: "لا يمكنك أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام الموت". لكنها لم تكن تعلم أن هذا الضمير سيكلفها كل شيء.

كانت حماة، تلك المدينة التي يمر عبرها نهر العاصي كما يمر التاريخ عبر الزمن، تعيش ذكرى مأساوية لا تموت. مذبحة عام ألفين واثنين وثمانين، حين قتل النظام السوري عشرات الآلاف من أبنائها، كانت لا تزال حاضرة في كل بيت، تروى كحكاية رعب يهمس بها الآباء للأبناء قبل النوم. كانت نهى تسمع هذه القصص منذ كانت طفلة صغيرة: عن جدران البيوت التي تحولت إلى قبور جماعية، عن نساء اغتصبهن الجنود، عن رجال أعدموا في ساحات المدينة. وكان خالها، الذي نجا بأعجوبة، يكرر دائماً: "اصمتوا لا تذكروا هذه القصص، فالجدران تسمع."

لكن الأصوات التي خرجت من درعا في ربيع عام ألفين وأحد عشر.كانت أعلى من أي جدار، وأعلى من أي خوف.

الفصل الأول: أيام لا تنسى

تتذكر نهى جيداً اليوم الذي رأت فيه عبد الباسط الساروت يهتف "الله أكبر" على مئذنة مسجد في حمص، في تسجيل انتشر بسرعة كالنار في الهشيم. كان ذلك في أوائل عام ألفين وأحد عشر. شعرت بشيء يجيش في صدرها، شيء لم تختبره من قبل: مزيج من الخوف والغضب والأمل.

في حماة، بدأت المظاهرات تخرج تباعاً. بدأها المشايخ البارزون مثل عمر الفرا ومحمد نور شقفة، ثم التحق بهم الناس تباعاً. كانت نهى تقف عند نافذة منزلها في الطابق الثاني، تطل على الشارع، تشاهد الحشود تهتف: "الشعب يريد إسقاط النظام". كان قلبها ينبض بشدة، وأرادت أن تنزل وتصرخ معهم، لكن الخوف من العواقب كان يحبسها.

قالت لنفسها: "لستُ جبانة. لكنني لا أريد أن أترك أطفالي يتامى." لكن تلك الحجة بدأت تضعف مع كل يوم.

في جمعة "أطفال الحرية"، كانت نهى في قلب المظاهرة لأول مرة. كانت تسير في الشارع الممتد من ساحة العاصي إلى طريق حلب، وسط حشد غاضب يهتف بأعلى صوته. لكن تلك الجمعة تحولت إلى مذبحة. قناصة النظام كانوا يترصدون المظاهرة من فوق الأسطح. رأت بعينيها طفلاً في العاشرة من عمره يسقط أرضاً، رأت أمه تركض إليه صارخة، رأت الدماء تغطي وجه الطفل، رأت جنوداً يطلقون النار على من يحاول إسعافه.

تتذكر نهى: "كان هناك فوضى رهيبة. المستشفيات كانت ترفض استقبال الجرحى دون إذن أمني. كثيرون نزفوا حتى الموت على أبواب المشافي. في تلك الليلة، عزمت على فعل شيء. قلت: لن أقف مكتوفة الأيدي بعد الآن".

في حي الحميدية، أسسوا مستشفى ميدانياً صغيراً. كان عبارة عن غرفة في قبو أحد المنازل، فيها بعض الضمادات والأدوات البسيطة، وطبيب واحد تطوع لعلاج الجرحى. تذكر نهى أسماء رفاقها في ذلك الفريق: أبو الفداء، وأبو الشام، وابن عمها أبو الهادي. كانت مهمتها في البداية تقتصر على توفير الضمادات والأدوات، لكن سرعان ما تطورت.

أرسلها زعيم الفريق إلى مستشفى "دار الشفاء" في حماة، مقابل اتحاد العمال، لتتعلم مهارات التمريض الأساسية. هناك، عملت كمساعدة طبيب، ثم ساعدت الجراحين في العمليات. تعلمت كيف تخيط الجروح، كيف توقف النزيف، كيف تتعامل مع كسور العظام. الأطباء الذين عملوا معها كانوا يعلمون أنها تعالج جرحى المعارضة سراً، لكنهم لم يبلغوا عنها، بل شجعوها.

تقول نهى: "كانوا يعرفون أن ما نفعله هو واجب إنساني. النظام منع أي مستشفى من استقبال الجرحى دون إبلاغ المخابرات. هذا يعني أن كل جريح يذهب إلى المستشفى سيعتقل فوراً أو يختفي. لذلك اضطررنا إلى إنشاء هذا المستشفى الميداني. كنا نعالج الجرحى في أي مكان: في البيوت، في السيارات، أحياناً في الشوارع الخلفية".

كان شهر رمضان من ذلك العام هو الأقسى. قبل ساعتين من أذان المغرب، كان النظام يقصف أحياء حماة بشكل عشوائي. كانت حصيلة القتلى والجرحى ترتفع يومياً. في إحدى الليالي، قصفت الطائرات حي المشعر الأربعين، وهو أحد الأحياء الشرقية المعروفة بثوريتها ضد النظام، بشكل مكثف. قصفت بالبراميل المتفجرة والصواريخ، حتى تحول الحي بأكمله إلى ركام. نساء رُبطن إلى دبابات النظام في استعراضات مهينة، وجثث أحرقت، ومئات البيوت هدمت فوق رؤوس ساكنيها.

تقول نهى: "رأيت بأم عيني ما لا تستطيع رؤيته في أفلام الرعب. نساء مسنات يُجرَّن على الأرض، وأطفال يبكون وسط الغبار، وشبان تلتهمهم النيران. كنا نعمل ليل نهار، ننقل الجرحى إلى المستشفى الميداني، نعالجهم بأقل الإمكانيات. كنا ننام ساعة أو ساعتين في اليوم".

لم تكن نهى تخفي نفسها كثيراً. كانت تتجول بغطاء أسود يغطي وجهها، كي لا يعرفها أحد. لكن القدر كان يراقبها.

الفصل الثاني: خيانة من الداخل

في أحد الأيام، دخل زوجها السابق إلى المستشفى الميداني. كان هناك خلاف سابق بينهما، وكان هو يعلم أنها تعمل مع المعارضة. دخل وغضب كثيراً عندما شاهد ما تفعله. لم يقل شيئاً في ذلك اليوم، لكنه عاد إلى بيته وأبلغ أحد المتعاونين مع النظام بما رآه.

تتذكر نهى: "كان هناك رجل في فريقنا، ما زلت أتذكر اسمه حتى اليوم، كان متعاوناً مع المخابرات. هذا الرجل بلغ عن زوجي السابق بأنه يعلم بوجود المستشفى. حينها تم اعتقال زوجي السابق، وتحت التعذيب اعترف بأنني مشاركة في المستشفى الميداني".

لم تكن نهى تعلم بشيء. لكن فجأة، وصلها خبر من أحد الأصدقاء: "المخابرات تبحث عنك. لقد أصدرت مذكرة اعتقال بحقك من المؤسسة العامة لتربية الأبقار بحماة، حيث تعملين".

لم تتردد نهى طويلاً. استقالت من عملها، واختفت عن الأنظار. تركت أولادها الأربعة لدى شخص تثق به، والتحقت بالثوار في الجيش الحر. كانت هذه نقطة اللاعودة.

تقول: "عرفت أنني إذا بقيت في حماة، سأعتقل حتماً. وكنت أعرف أن الاعتقال يعني الموت أو التعذيب الأبدي. لذلك اخترت الاختفاء. لكنني كنت أشتاق لأولادي كثيراً. كنت أتذكر وجوههم كل ليلة، وأبكي حتى يجف دمعي. مرت أشهر طويلة لم أرَ فيها أطفالي".

في أحد الأيام، شعرت بشوق لا يطاق. على الرغم من تحذيرات رفاقها، قررت أن تذهب إلى بيت أسرتها في حي الحميدية لتطمئن على أولادها.

قالت لها زميلة: "لا تذهبي، نهى. قد يكون هناك كمين".

أجابت نهى: "لن يصلوا إلى بيت أسرتي. الحي هادئ اليوم، والمخابرات مشغولة في مكان آخر".

لكنها كانت مخطئة.

الفصل الثالث: الفجر الأسود

في صباح يوم خميس، الساعة السادسة والنصف صباحاً، وصلت نهى إلى منزل عائلتها. كانت السماء لا تزال مغبرة، والطيور لم تبدأ تغريدها بعد. طرقت الباب بهدوء، ففتحت والدتها. دخلت الغرفة حيث كان أطفالها نياماً. نظرت إليهم طويلاً، لمسات وجوههم الناعمة، قبلتهم واحداً واحداً. تنهدت وهمست: "كم اشتقت إليكم."

أكلت بعض الطعام الذي أعدته والدتها، وجلست لتستريح قليلاً. وفجأة، رن الهاتف الأرضي.

كانت أختها تتصل. قالت بصوت يرتجف: "أمي، المخابرات جاءت إلى منزلي وطلبت هويتي. إنهم يسألون عن نهى".

أجابت الأم: "اصبري يا ابنتي. لا تقولي لهم شيئاً".

لكن قبل أن تنهي الأم مكالمتها، رن هاتف نهى الجوال. كان صديقاً لها يخبرها: "منزلك محاصر يا نهى. لا تخرجي".

حاولت نهى أن تجمع أطفالها، لكن الوقت لم يعد كافياً.

سمعت دوي اقتحام الباب. لم يطرقوه، بل اقتلعوه من مفصلاته بعنف. اقتحم أكثر من عشرين عسكرياً المنزل، وهم يصرخون: "أين الإرهابية؟ أين الإرهابية؟"

كان مشهداً مرعباً. أحدهم أمسك بابنها معاذ ذي الأربع سنوات، وهزه بعنف وهو يسأل: "شو شغلة أمك؟ قول لنا، شو شغلة أمك؟'

كان الطفل يبكي ولا يفهم ما يجري. أخوها الأصغر، الذي كان عمره ثمانية عشر عاماً ومريضاً، جروه خارجاً. رأته نهى ودمه يسيل من وجهه.

أمر الضابط: "خذوها إلى المدرعة".

ركبت نهى المدرعة العسكرية، لتجد نفسها مع خمس فتيات صغيرات، كانت قد اعتقلن جميعاً في نفس اليوم.

تتذكر نهى: "سألتهم: إلى أين نقصد؟ فأجابت إحداهن: لا نعرف. رفسني جندي بقوة وقال: اسكتي. لن ترين النور مرة أخرى، يا إرهابية. في تلك اللحظة شعرت بالخوف الحقيقي لأول مرة".

الفصل الرابع: فرع أمن الدولة

بعد نصف ساعة من السير، وصلوا إلى مبنى ضخم يقع مقابل مديرية الزراعة بحماة. كان هذا هو "فرع أمن الدولة"، أحد أخطر مراكز التعذيب في سوريا.

عند دخولهم، صاح أحدهم بصوت عال: "إرهابيات فتحنا عليهن! إرهابيات دخلوا السجن"!

كانت نهى تصرخ: "أنا مو إرهابية، أنا مسعفة! أنا بس عم ساعد الجرحى"!

لكن أحد العساكر صفعها بقوة على وجهها: "اسكتي، يا كلبة. الإرهابيين إما قتلى أو معتقلون".

بدأ روتين التعذيب فوراً. أخذوها وأطفالها إلى غرفة مظلمة، وجردوها من ملابسها أمام الجميع. منعت لم تسمح لها بالاحتجاج.

تقول نهى: "أنا أفضّل الموت على الموقف اللي حطوني فيه. جردوني من ملابسي كاملة، وأنا واقفة قدام جنود. كان جزء من روحي يموت في كل ثانية. ثم ربطوا يدي إلى السقف، وتركوني معلقة. كنت أشاهد يدي وهي تنزف من الكبلات الحديدية".

لكن الأسوأ كان ما رأته بعد ذلك.

رأت في نفس الغرفة رجلاً من عائلة الشيخ خليل مربوطاً هو الآخر إلى السقف. كان هذا الرجل ينظر إليها بحزن وأسى. ثم فوجئت بأن المقدم سليمان، رئيس الفرع، دخل ومعه عصاه الخضراء.

كان المقدم سليمان رجلاً بديناً، وجهه منتفخ، وعينان صغيرتان تخفيان شراً لا يوصف. كان جالساً خلف مكتبه، يأكل الفستق الحلبي بشراهة. كان يقشر حبات الفستق ويرمي القشور على المعتقلين، وكأنهم لا يستحقون حتى أن ينظر إليهم.

تقول نهى: "لا يمكن أن أنسى ذلك المشهد أبداً. هو جالس مرتاح يضحك، ونحن نعاني أشد أنواع التعذيب. كان يقول للجنود: اضربوهم حتى يعترفوا. من شافنا قال هنيئاً؟ كانوا يضربوننا بعصي خضراء سميكة، يعرفونها باسم الأخضر الإبراهيمي، نسبة إلى المبعوث الأممي. كانت هذه العصا مصنوعة من البلاستيك القاسي، وتسبب ألماً لا يوصف".

لكن الرجل المربوط إلى السقف تقدم نحو الجنود وتوسل إليهم: "بالله عليكم، اضربوني أنا بدلاً عنها. هي امرأة، لا تحتمل. اضربوني أنا، من فضلكم".

لكن المقدم سليمان لم يأبه. قال ببرود: "لا، خليها تستمر. خليها تتحمل شوي. خلي الرجل يشوف المرأة وهي بتتعذب، حتى يتعلم الدرس".

ثم بدأوا يضربون نهى بالأخضر الإبراهيمي على كل جزء من جسدها. على وجهها، على ظهرها، على بطنها، على كتفيها، على ركبتيها. كان كل ضربة تترك جرحاً غائراً. فقدت أجزاء من أسنانها من شدة الضرب على الفك. وتعرضت كليتها اليسرى لضربة قوية أدت إلى توقفها عن العمل تماماً.

تقول نهى: "كنت أتمنى الموت في تلك اللحظات. لكن الموت لم يأت. كنت أصرخ، أستغيث، أبكي. لكن كلبشات الحديد كانت تمنعني من الحركة، والدم كان يتدفق مني كالنهر".

بعد ساعات من التعذيب، أخذوها إلى غرفة تحت الأرض. لم تكن غرفة، بل حفرة. عرضها متر في متر، فيها خمس نساء مكتظات. كان السقف منخفضاً، ولا يوجد فيها ضوء سوى لمبة حمراء باهتة معلقة من الأعلى.

تقول نهى: "كان المكان مخيفاً جداً. اللمبة الحمراء كانت تنير المكان بشكل غامض، وكأننا في قبر. كنت أتساءل: هل سأموت هنا؟ هل سأرى أولادي مرة أخرى؟ بكيت كثيراً".

الفصل الخامس: النساء الأخريات

كانت النساء في تلك الزنزانة الضيقة يأتين من مختلف الأعمار والفئات. تذكرت نهى أحداهن، امرأة عجوز تكنى أم سطيف، كانت تبلغ من العمر خمساً وخمسين عاماً. كانت هذه المرأة تضرب بنفس الوحشية التي تضرب بها الشابات. ذات يوم رأتها نهى بعد تعذيب، وكانت كدماتها زرقاء تغطي جسدها بالكامل.

وهناك كانت عائلة الكيلاني. أم وأبنتها. الأم كانت في الأربعين من عمرها، والابنة في السادسة عشرة فقط! لم ترتكب الفتاة أي جرم، سوى أنها كانت ابنة رجل مطلوب. فتاة صغيرة، بريئة، يحترق جسدها تحت العصي. لا تستطيع تصديق أن هذا يحدث لها.

تتذكر نهى: "كانت هناك شابة اسمها زهرة، كانت تسكن جنوب الملعب. كانت جميلة جداً، لكن عينيها كانتا تخبران بقصة حزن لا توصف. والمضحك المبكي كان أن النساء الأكثر جمالاً كن يساقين إلى غرفة المقدم سليمان ليلاً".

كان المقدم سليمان يختار أجمل المعتقلات ليرسلهن إلى غرفته في الطابق العلوي. كانت كل ليلة تأتي سيارة تقلهن إلى هناك. كانت أشبه بالبغايا، لكنهن لم يخترن ذلك. كانن ضحايا.

تضيف نهى: "في إحدى الليالي، وصلت القائمة بأسماء النساء اللواتي سينقلن إلى الطابق العلوي. أولاهن كانت من عائلة الكيلاني، ثم من عائلة الأمين، ثم من عائلة كرزون، ثم زهرة. ثم جاء دور شابة من عائلة السراج. بقيت أنا وأم سطيف فقط في الزنزانة. نظرت أم سطيف إليّ وقالت: يبدو أن دورك قد حان. قالتها وهي تبكي".

كانت نهى تخشى ما هو أسوأ من الضرب: الاغتصاب. كانت ترتعد في كل مرة تسمع فيها صراخ النساء القادم من الطابق العلوي. تعلم أن ما يحدث هناك لا يمكن وصفه بالكلمات.

تقول: "في إحدى الليالي، سمعت صوت امرأة تصرخ بأعلى صوتها: 'أرجوكم، أرجوكم، لا تفعلوا بي هذا. عندي بنات صغار، لا تقتلوا كرامتي.' لكن الصرخات سرعان ما تحولت إلى شهقات، ثم انقطع الصوت. عرفنا أنهم أخذوها. بكيت حتى جفت دموعي".

لم تكن القطط المتوحشة التي كانت تتجول في الفرع رحيمة بالجثث. كانت تأكل الجثث التي تترك في الأروقة. كانت المنظر مقززاً، لكنه أصبح جزءاً من الواقع.

تقول نهى: "والله العظيم، رأيت قططاً تأكل من جثة رجل ميت. رأيت بأم عيني. كان مشهداً لا ينسى. القطط كانت تأكل لحمه وهي تخرخر، والجنود يتفرجون ويضحكون".

الفصل السادس: البحث عن الحقيقة

لم يقتصر التعذيب على الناحية الجسدية، بل امتد إلى الناحية النفسية. في جلسة تحقيق، دخل عليها المقدم سليمان ومعه ملف ضخم. قال: "اعرف كل شيء عنك، يا نهى. نعرف أنك ذهبت إلى حلب. نعرف أنك ساعدت ابن عمك في تهريب سلاح. نعرف أنك أعددت قنابل يدوية. اعترفي وسنخفف عنك العذاب".

كانت نهى تنكر كل هذه التهم. كانت تقول: "ما بعرف عن شو بتحكي. أنا مسعفة فقط، لا أعرف أي شيء عن الأسلحة أو حلب".

لكن كلما أنكرت، يزداد الضرب. كانوا يضربونها بالأخضر الإبراهيمي فتترك آثاراً غائرة. في أحد الأيام، أحرق المقدم سليمان وجهها بكوب شاي الأعشاب الذي كان يشربه. صب الشاي المغلي على وجهها، وهي مربوطة اليدين. شعرت بجلدها يحترق. صرخت، لكن أحداً لم يسمعها.

بعد كل جلسة تعذيب، كانت تعاد إلى زنزانتها تحت الأرض. هناك، كان الهدوء النسبي يسمح لها بالتفكير. كانت تفكر في أولادها. كيف حالهم؟ هل علموا بما حدث لها؟ كانت تفكر في والدتها التي أنكرتها؟ كيف استطاعت الأم أن تقول لابنتها "اخرجي من هنا"؟

تذكرت في تلك الفترة حالة امرأة عجوز من عائلة الأمين، اعتقلت هي وزوجها معاً. كانا في الستين من العمر. اعتقلا ليس لأنهما فعلا شيئاً، بل لأن ابنهما كان قائد لواء في الجيش الحر. هذه كانت السياسة: اعتقال العائلة بأكملها، لا أحد يسلم.

كان منظر النساء المسنات وهن يتعرضن لنفس أنواع التعذيب التي يتعرض لها الشبان مؤلماً بشكل خاص. إحداهن كانت لا تستطيع المشي، فكانوا يجرونها على الأرض حتى تحطمت ركبتاها. لكنها لم تشكُ يوماً. كانت تردد: "الله معنا. الموت أشرف من العيش تحت ظلمهم".

الفصل السابع: خيانة الزوج

في أحد الأيام، أثناء التعذيب، حدث شيء غير متوقع. فجأة، أعلن الضابط: "زوجك هنا. لقد أحضرناه ليشهد عليك".

دخل الرجل. كان زوجها السابق ذاك الذي أبلغ عن المستشفى الميداني. دخل وهو ينظر إلى الأرض، لا يرفع عينيه إلى نهى. بدأت محاكمتهما معاً.

قال الضابط لزوجها: "قول الحقيقة، شو كانت زوجتك تعمل؟"

أجاب بصوت خافت: "كانت... كانت تساعد الجرحى. كانت في المستشفى الميداني".

قالت نهى: "كنت أنظر إليه وأستغرب. هذا الرجل كان يوماً ما حبيبي. أنجبنا معاً أطفالاً. كيف يمكنه أن يخونني بهذه الطريقة؟"

لكن المفاجأة الأكبر كانت أن الزوج، تحت تأثير التعذيب، قد اعترف بأنه هو من قاد المخابرات إلى المستشفى الميداني. اعترف بأنه هو من وشى بها وبزملائها. وقال للمقدم: "لقد كنت أعرف أنها تخون البلد. وأنا أشهد بذلك".

في تلك اللحظة، شعرت نهى بأن جداراً من الجليد قد أقيم بينها وبين كل ذكرياتها الجميلة معه. قالت في نفسها: هذا الرجل لم يعد شيئاً بالنسبة لي. لقد مات من قلبي.

لكن الضابط لم يكتفِ بذلك. بدأ يضرب زوجها وهو يصرخ: "أنت تكذب. أنت معهم. أنت إرهابي مثلك مثلها".

كان زوج يئن ويتوسل: "بالله عليكم، أنا بريء. لقد بلغت عنهم. أنا لست معهم".

لكن الضابط لم يصدقه. أصر على أنه هو الآخر يجب أن يعاقب. وفي النهاية، أفرج عن الزوج بعد أشهر، لكنه ظل يحمل آثار التعذيب طوال حياته.

أما نهى، فظلت في السجن شهراً كاملاً.

الفصل الثامن: صفقة تبادل

بعد شهر من التعذيب المستمر، تغير الوضع فجأة. في إحدى الليالي، ساد هدوء غير عادي. كان الوقت منتصف الليل تقريباً. فجأة، دخل أحد السجانون إلى الزنزانة وأخذ النساء واحدة تلو الأخرى.

قال لنهى: "استعدي. سنحررك".

لم تصدق. ظنت أنها أوهام أو خدعة. لكن الضابط كرر: "استعدي. هناك صفقة تبادل بيننا وبين الثوار. ستعودين إلى أهلك".

أعطوها رداءً أسود، وأمرتها بارتدائه. ثم اقتادوها إلى الخارج حيث سيارات التبادل. كانت فرحة غامرة، لكنها كانت تخاف أن يكون فخاً.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً، تم تسليم نهى مع رفيقاتها إلى ابن عمها، الذي كان قائداً في الجيش الحر.

صرخت نهى: "عمي، أنا حرة؟ حقاً؟"

بكى ابن عمها وهو يحتضنها، وقال: "نعم، أنت حرة. لقد ضحى رفاقك كثيراً لتحريرك. دماء كثيرة أريقت".

كانت المرة الأولى التي تخرج فيها نهى إلى الحرية منذ شهر كامل.

الفصل التاسع: العودة الصعبة

بمجرد أن حررت، كانت أول أمنية لنهى أن ترى أمها وأطفالها. سارت بقلب خافق إلى منزل العائلة في حي الحميدية. لكنها لم تكن تتوقع ما سيحدث.

طرقت الباب. فتحته الأم. نظرت إليها للحظة، وعيناها مذهولتان. ثم صرخت الأم بصوت مرتفع: "اخرجي من هنا! أنتِ ميتة! نهى ماتت من زمان"!

لم تصدق نهى ما سمعت. ظنت أن أمها تمزح. قالت لابن عمها: "إنها تمزح، أليس كذلك؟"

لكن ابن عمها أطرق رأسه، وقال: "لا يا نهى. أمك ترفض أن أراك. هي تظن أن النظام سيقتلك لو عرف أنك حية".

بكت نهى كثيراً. لكنها فهمت أن أمها لا ترفضها، بل تخشى عليها. عادت إلى حيث كان رفاقها. لكنها لم تستطع أن تتحمل فكرة أن أطفالها لا يعرفون أنها حية.

تقول: "كنت أتصور أن أمي ستفرح بي، وتبكي وتحتضنني. لكنها طردتني. كانت صدمة قاسية".

مرت أيام صعبة. لكن أبناء عمها وأقاربها الآخرين ساندوها. قالوا: "نحن عائلتك الآن. لا تقلقي. سنحميك".

بعد فترة، عادت نهى إلى العمل كمسعفة ميدانية. كان هناك الكثير من الجرحى الذين يحتاجون إليها، وكثير من الناس الذين يثقون بها. تقول: "لم أستطع أن أبقى جالسة. كنت أتذكر كل من ماتوا أمام عيني، وأشعر بالمسؤولية".

الفصل العاشر: زواج جديد وحياة جديدة

في أثناء عملها في المستشفى الميداني، تعرفت على رجل كان يعمل مرافقاً للجرحى. كانت تقصده هي وأطفالها، وكان يحبها كثيراً. كان يلح عليها بالزواج.

تقول نهى: "كان فخوراً بي كبطلة، وكأنني وسام شرف على صدره. كان يكرر: 'أريد أن أتزوج بامرأة قوية مثلك.' في البداية رفضت، لأنني لم أكن أريد أن أتزوج مرة أخرى بعد تجربتي المريرة. لكنه أصر. أرسل أصدقائي وأقاربي ليطلبوا يدي. أخيراً، قبلت".

تزوجها الرجل، وقبل بأطفالها الأربعة كأبنائه. كان لطيفاً معهم، ويعاملهم كأطفاله. ثم أنجبا طفلاً صغيراً، أصبح هو الآن كل حياتها.

تقول نهى بحب: "هذا الطفل المشاغب هو فرحة حياتي. أعاد لي الثقة بنفسي كأم، كامرأة. كنت أخشى أن العذاب الذي تعرضت له قد جعلني غير قادرة على الحب أو العطاء. لكن هذا الطفل أثبت لي العكس".

لم تترك نهى عملها الإنساني. استمرت في مساعدة الجرحى والمرضى حتى بعد الزواج. كان زوجها يشجعها ويساندها. وكان يردد: "أنت أقوى امرأة عرفتها في حياتي".

الفصل الحادي عشر: جراح لا تندمل

اليوم، بعد كل هذه السنوات، لا تزال نهى تعاني من آثار التعذيب. كليلتها اليسرى لا تعمل بشكل جيد، وأسنانها مكسورة، وظهرها مؤلم. كما أنها تعاني من "رهاب القطط" نتيجة ما رأته في السجن. كانت ترى القطط تأكل الجثث، فأصبحت تخاف منها لدرجة أنها لا تستطيع رؤية قطة دون أن ترتجف.

تقول: "لا زلت أتذكر كل يوم في السجن. لا زلت أتذكر صرخات النساء، وضحكات المقدم سليمان، وألم الكبلات. لكني تعلمت كيف أتعايش مع هذه الذكريات. أطفالي الجدد ساعدوني كثيراً".

أما عن أحلامها، فتقول: "أتمنى أن أعود إلى حماة يوماً ما. أفتقد نهر العاصي، أفتقد نواعيرها، أفتقد رائحة الفل والياسمين في شوارعها. أتمنى أن تطهّر سوريا من هذا النظام، وأن أعيش حرة في بلدي".

وحين سُئلت إذا كانت تشعر بالحقد على أولئك الذين عذبوها، قالت: "أنا لست شخصاً حقوداً. لكنني لا أستطيع أن أسامحهم. لا أستطيع أن أسامح الذين قتلوا أطفالاً، واغتصبوا نساء، وأحرقوا أجساداً. لكنني أترك العقاب لله".

الخاتمة: حريّة

في عام ٢٠٢٤، سقط نظام الأسد. سقط بشار الأسد، وسقطت معه آلة القمع.

تقول نهى: "عندما سمعت الخبر، بكيت كطفلة صغيرة. بكيت على كل الذين ماتوا قبل أن يروا هذا اليوم. بكيت على زملائي الذين استشهدوا، وعلى النساء اللواتي اغتصبن، وعلى الأطفال الذين أصبحوا يتامى. لكنني كنت سعيدة. سعيدة لأن الظلم انتهى أخيراً".

تنظر نهى إلى أولادها وتبتسم. ثم تهمس: "سأعود إلى حماة قريباً. سأزور نهر العاصي، وسأصلي في الجامع النوري. سأشم رائحة الأرض التي أحبها. وأخيراً، سأشعر بأنني حرة".

تمت الرواية

سوريا، ما بعد التحرير

كانون الثاني ٢٠٢٥

خارج الجدران

شهادة من رقم ١٨٥٨

"مازن حمادة"

الفصل الأول: ظل المقهى

لم يكن الاعتقال صاعقةً نزلت من السماء، بل كان باباً يُغلق ببطء، كما تغلق المقابر على من لا يعرفون أنهم قد ماتوا بعد. كان مساء حزيران من العام ٢٠١٣، والضوء في دمشق يتسلل عبر نوافذ المقهى كمن يحاول التماسك قبل الغروب. كنتُ أجلس على الطاولة الخشبية المعتادة، أنتظر دكتورةً قادمةً من درعا لتأخذ حليب الأطفال، حليباً بسيطاً لا يزن أكثر من رغبتنا في أن يظل الأحياء أحياءً. لم أكن أحمل سلاحاً، لا ورقة سرية، لا خريطةَ تهريب. كنتُ أحمل ذاكرةَ طفولةٍ في دير الزور، ورغبةً خجولةً في أن يظل الوطن مكاناً يُنطق فيه اسمهُ بلا خوف.

جاءوا كما يأتي الظل حين تغرب الشمس: صامتون، كثيرون، بملابس لا تشبه الملابس، بعيون لا تبحث عن عيون. لم يطرحوا سؤالاً، لم يطلبوا هويةً، لم يتركوا فرصةً للتردد. كانت أيديهم ثقيلة، وصمتهم أثقل. قالوا: «قوم». فلم أسأل، ولم أحتج، لأن السؤال في تلك اللحظة ليس حرية، بل وهمٌ يسقط قبل أن يلمس الأرض.

ركبنا في سيارةٍ لا نوافذ لها، أو لعل النوافذ كانت موجودةً لكن الضوء فيها لم يعد يدخل. جلس عمر وسالم، ابنا أخي، إلى جانبي، يرتجفان كعصفورين وقعا في مصيدةٍ لا يعرفان شكلها. لم يكن البكاء مسموحاً، لا في تلك السيارة، لا في تلك الشوارع، لا في تلك المدينة التي تعلمت أن الصمت هو اللغة الوحيدة التي لا تُكسر.

وصلنا إلى مطار المزة. لم نكن نعرف أننا ندخل إلى سجن، بل كنا نظن أننا نمرّ عبر بوابةٍ عابرة. لكن البوابات العسكرية لا تُفتح إلا لتُغلق إلى الأبد. أدخلونا إلى مبنىً يُسمى «الدراسات»، اسمٌ يبدو أكاديمياً، لكنه كان مجرد زنزانةٍ طولها خمسة أمتار، وعرضها خمسة، وجدرانها تمتص الصوت كما تمتص الإسفنجة الماء. ظللنا هناك اثنين وعشرين يوماً. لم نكن نعرف الوقت، لم نكن نعرف التاريخ، لم نكن نعرف إن كان النهار ليلاً أم الليل نهاراً. كان هناك فقط إيقاعُ الخطوات على الإسمنت، وصوتُ المفاتيح التي لا تفتح إلا لتُغلق، وأنفاسٌ تعدّ الدقائق كمن يعدّ قطرات دمٍ على حائطٍ بارد.

في تلك الزنزانة، تعلمتُ أن الإنسان لا يُسلب حريته دفعةً واحدة، بل يُسلب على دفعات: أولاً يُسلبُ اسمه، ثم يُسلبُ وقته، ثم يُسلبُ جسده، وأخيراً يُسلبُ أملهُ في أن يظل إنساناً. لكنني لم أكن أعرف، حينها، أن ما سيأتي هو مجرد مقدمة.

الفصل الثاني: زنزانة القياس

نُقلنا بعد ذلك إلى مهاجع الطيارين. لم تكن طائراتٍ، بل قاعاتَ تدريسٍ كانت تُستخدم يوماً لتعليم الملاحة الجوية، ثم تحولت إلى سجونٍ تُدرس فيها لغة الألم. سبوراتُ الكلس لا تزال معلقةً على الجدران، تحمل معادلاتٍ فيزيائيةً لم تعد تعني شيئاً أمام معادلةٍ أخرى: كم إنساناً يمكن أن يتسع له مترٌ ونصف؟

الإجابة كانت: اثنا عشر. أو عشرة. أو أحد عشر. حسب من يُجلبون كل يوم. والأبواب لا تتوقف عن الفتح، والأقدام لا تتوقف عن الدخول، والأجساد لا تتوقف عن التراص فوق بعضها كقوالب طوبٍ في فرنٍ لم يُشعل بعد.

الزنزانة الجديدة كانت أقسى: مترٌ وأربعون في مترٍ وأربعون. لا نافذة، لا تهوية، لا ضوء إلا لمبةٍ صفراءَ لا تنطفئ، كأنها تراقبنا حتى في أحلامنا إن وُجدت. كنا نجلس على الأرض، خمسةٌ على حائط، وخمسةٌ على الحائط المقابل، والباقي يقف. كل ساعتين، يتبادلون الأدوار. رقمي كان واحداً. كنتُ أقف، يجلس الذي كان واقفاً، ويقف الذي كان جالساً. إيقاعٌ ميكانيكي، لا يرحم، لا يتوقف، لا يسأل.

جاء المحقق في اليوم الثالث والعشرين. لم يُسلم، لم يُقدّم ماءً، لم يسأل عن الاسم إلا ليحذفه بعد ذلك. قال: «اسمك؟» أجبته. قال: «انتماؤك السياسي؟» قلت: «حزب الشعب الديمقراطي». قال: «كل هذا الحكي ما بدي إياه. بدك تعترف على سلاح، وعلى قتل جنود الجيش العربي السوري، وعلى ضرب حواجز». قلت له: «يا سيدي، أنا ما بحمل سلاح، وما خدمت عسكرياً أصلاً، خدمت بمركز طبي. كنا نطلع مظاهرات سلمية، نطالب بدولة مدنية، نطالب بدستور يحكم بالتساوي». نظر إليّ طويلاً، ثم قال: «معك خمس دقات. راح أروح، وإذا ما اعترفت، رح طلعك وتركني».

لم يكن تهديداً، كان وعياً مسبقاً بنهاية القصة. عاد بعد دقائق، وبلّش. لم يكن الضرب مجرد حركة يد، كان نظاماً كاملاً. أربعةٌ فوق صدري، كل واحدٍ كالبغل، يقفز، يهوي، يترك أثراً في العظم قبل أن يتركه في الجلد. انقلبتُ على ظهري، شحطوني، قلبوني، جابوا آلةً نحاسيةً نسميها «الكلاّبة»، حطّوها على العضو الذكري، وبلّشوا يشدّون. لم يكن الألم في البداية جسدياً، كان وجودياً. كان السؤال: هل أظلّ إنساناً أم أُنقذ جلدي؟

قال: «عترف «.قلت: «يعني شو؟ «قال: «بدي روسيه «.قلت: «ما شلت روسيه «.قال: «إذن خازوق«.

جاء الخازوق، قضيبٌ حديديٌ بارد، حاولوا إدخاله في المكان الذي لا يجب أن يُمسّ إلا بالرحمة أو بالعفة. لم يكن التعذيب عقاباً على فعل، كان طقساً لإثبات الهيمنة. الهيمنة لا تحتاج إلى ذنب، تحتاج فقط إلى جسدٍ لا يصرخ بما يكفي، أو يصرخ بما يكفي ليُكسر.

شنقوني من يديّ، كلبشاتٌ حديديةٌ من كل جانب، ارتفاعٌ أربعون سنتيمتراً عن الأرض. الوزن كله على المفاصل. الحديد يقطع اللحم، اللحم يذوب، العظم يصرخ، والصمت يبتلع كل شيء. ساعتان، ثلاث، ثم يأتي الاعتراف ليس ككلمة، بل كاستسلامٍ للواقع الذي لا يرحم.

قلت: «إيه، ضربت حواجز «.قال: «منين؟ «قلت: «ما بعرف «.قال: «بمبكشن؟ «قلت: «لا «.قال: «إذن روسيه «.قلت: «لا «.قال: «إذن صيد«.

لم أكن أعترف بجريمة، كنت أترجم الألم إلى لغةٍ يفهمها النظام. الاعتراف هنا ليس صدقاً، ليس كذباً، هو جسرٌ من لحمٍ وعظمٍ يُبنى فوق هاويةٍ لا تنتهي.

الفصل الثالث: هنغار الأشباح

كانت الليلة التي تسبق الضربة الأمريكية المرتقبة على النظام، بعد التهديد باستخدام الأسلحة الكيميائية، ليلةً لا تشبه الليالي. لم نكن نعرف ما يحدث خارج الجدران، لكننا كنا نشعر به في اهتزاز الأرض، في خطوات الجنود المتسارعة، في أصوات الأبواب التي تُغلق بعنفٍ غير مألوف.

فُتحت الأبواب فجأةً. صرخ صوتٌ حاد: «يلا ولاك! يلا ولاك! ضبّوا ضبّوا ضبّوا «!لم نكن نعرف إلى أين، لكننا عرفنا أن التأخير يعني الموت. جرّونا، دفعونا، حشرونا في ممراتٍ لا نهاية لها، أيادٍ على الأكتاف، أيادٍ على الرقاب، عيونٌ لا تنظر، خطواتٌ لا تتوقف.

وصلنا إلى مبنىً ضخمٍ، واضح أنه خاص بالطائرات. الأبواب الحديدية تُغلق خلفنا. رأينا الطائرة واقفةً بجانبنا، ضخمةً، صامتةً، كوحشٍ نائمٍ لا يعرف أنه أصبح درعاً بشرياً. سبعون شخصاً. أو سبعمئة. العدد لم يكن مهماً، المهم أن الأبواب أُغلقت، والمفاتيح دُفعت إلى الجيوب، والصمت أصبح قانوناً.

كانوا يستخدموننا كغلافٍ بشريٍ للطائرات. لو ضربت الضربة، سيعتقدون أن الهدف عسكري، وسيموت المعتقلون بدلاً من الطائرات. لم يكن هذا تكتيكاً عسكرياً، كان خيانةً إنسانيةً مُبرّرةً بأوراقٍ رسميةٍ وخطاباتٍ سياسيةٍ لا نراها.

ظلّينا هناك لياليَ وأياماً. لا طعام، لا ماء، لا تهوية، لا ضوء إلا شقوقٌ صغيرةٌ من الأعلى. الجثث كانت تبدأ بالظهور، لا من الضرب، بل من الاختناق، من الخوف، من اليأس الذي يتحول إلى سكتةٍ قلبيةٍ صامتة. كنا نرفعها بأيدينا المرتجفة، نضعها في الزاوية، ننتظر من يأتي ليأخذها. لم يكن أحد يأتي بسرعة. الجثث كانت تتراكم كأكياس قمامةٍ في زاويةٍ مهجورة، ونحن نجلس بينها، نتنفس هواءً يزنُ رائحة الموت قبل أن يزن رائحة الحياة.

عندما انتهت الأزمة، عندما اتفقوا على الملف الكيميائي، أعادونا إلى المدارج. لم نكن نعرف إن كنا نخرج من جهنم، أم ندخل إلى طبقةٍ أخرى منها.

الفصل الرابع: مهجع المئة وثمانين

المهجع الجديد كان أطول: أحد عشر متراً في ستة. يُسمى «مهجع الطوابير». كانوا يحشرون فيه مئة وثمانين شخصاً. مئة وثمانين جسداً في مساحةٍ لا تتسع لثلاثين. لا كراسي، لا أسرة، لا فرش، لا بطانيات إلا ما يُسرق أو ما يُتاجر به. كنا نجلس رتباً، عشرةٌ، ثم عشرةٌ فوقهم، ثم عشرةٌ فوقهم، حتى يصير السقف قريباً من الأنفاس، والهواء ثقيلاً كالحديد المصهور.

كان الموت يومياً. اثنان كل يوم. أو ثلاثة. لا نعرف العدد الدقيق، لأن الأرقام لم تعد تعني شيئاً حين تُحصى بالأرواح. كان كبار السنّ أول من يرحل، لم تكن قلوبهم تتحمل الضغط، لم تكن رئتاهما تتحملان الهواء الراكد، لم تكن أقدامهما تتحملان الوقوف الدائم، أو القعود الدائم، أو الرقود الدائم على أرضٍ باردةٍ تمتص الحرارة كما تمتص الإسفنجة الدم.

كان السجان يفتح طاقةً صغيرةً في الباب، يرشّ علينا ماءً بارداً أحياناً، لا ليرحمنا، بل ليرى كيف نتلوى، كيف نصرخ، كيف نختنق. الماء يختلط بالعرق، بالبول، بالبراز، بالدم الجاف، فيصير الطين الذي نعيش فيه. الرائحة لا تُوصف، لا تُنسى، لا تُغسل. تدخل إلى الرئة، تستقر في الذاكرة، تصبح جزءاً من الهوية.

إذا مرض أحد، يُدفع قرب الباب، يُترك تحت الطاقة ليشمّ هواءً بارداً. لا يدوم طويلاً. يموت. ندقّ على الطاقة: «يا سيدي، في واحد انتهى «.يردّ: «ادّ «.يعني: لا تدق، لا تخبر، دعه يموت بصمت .إذا دققت، يفتح، يرمي رصاصةً على السقف، الطلقة ترتدّ، تصيب من يقربها، أو تخترق الجسد، أو تسقط لتقتل من تحتها. لم يكن الضرب عقاباً، كان ترفيهاً. كان السجان يمشي، يطلق النار على السقف، يضحك، يراقب كيف تتكدس الأجساد فوق بعضها، كيف تصرخ، كيف تصمت، كيف تموت.

في تلك الأيام، تعلمتُ أن الجحيم ليس ناراً، إنه انتظارٌ لا ينتهي، إنه هواءٌ لا يُنقَل، إنه جسدٌ لا يُترك أن يبرد، إنه صوتٌ لا يُسمع، إنه عيونٌ لا تُغلق لأنها لا تجد مكاناً لتستريح فيه.

الفصل الخامس: رقم ١٨٥٨

جاءت اللحظة التي لم أكن أعرف أنها ستأتي، لكنها كانت حتميةً كالجاذبية. كنتُ أستفرغ دماً. لا، لم أكن أستفرغ، كنتُ أخرج ما تبقى من كرامتي مع كل قطرةٍ حمراء. فُتحت الطاقة، كان مدير السجن سهيل زمام، مقدمٌ من بانياس، وجهه باردٌ كالحجر، عيناه لا تنظران، يداه لا ترتجفان.

قال: «ليش ما وقفت؟ «قلت: «والله يا سيدي، ما بقدر. عم بولّ دمه «.قال: «سجّلوا اسمه«.

في اليوم التالي، الساعة العاشرة صباحاً، طُلبتُ للخارج. عيوني مُغطّاة. لم أكن أعرف إلى أين، لكنني كنت أعرف أن الطريق لا يؤدي إلى خلاص، بل إلى مرحلةٍ جديدةٍ من الفحص، من الوزن، من القياس.

قال الصوت: «تنسى. اسمك. اسمك مازن الحمادة. أنت رقمك ١٨٥٨. وقت تروح على المشفى، يسألونك شو اسمك، تقولهم ١٨٥٨«.

وصلنا إلى مشفى ٦٠١. لم يكن مشفى، كان مستودعَ جثثٍ تتنفس. الأبواب تُفتح، العصيّ تهوي، الشحاطة تصفع، لا ترحم، لا تسأل، لا تنظر. نزلنا تحت الأرض، جنزيرٌ على التخت، ثلاثةٌ معاً. السيروم لا يُدخل في الوريد بدقة، بل يُدفع بعشوائيةٍ مؤلمة، كمن يحاول سقي نباتٍ ميتٍ بماءٍ مغليّ.

في الليل، بعد ساعتين من منتصف الليل، أذهب إلى التواليت. لا، لا أذهب، أُجرّ. أفتح الباب الأول، جثتان على الأرض. أفتح الثاني، ثلاث. أفتح المغسلة، جثة طفلٍ عمره سبع عشرة سنة، أبيض، حلو، عيناه مفتوحتان على فراغٍ لا يفهمه إلا من رأى الموت من الداخل.

أفقد الوعي. لا، لا أفقد، أغيب. أعود لأجد السجان يضربني بمطرقةٍ بلاستيكيةٍ ثقيلةٍ على الرأس، على الكتف، على الضلوع. يقول: «ما قام يردّ عليّ «.أردّ، لكن الصوت لا يخرج، يخرج هواءً مسموماً، يخرج دماً، يخرج صمتاً أثقل من المطرقة.

في المشفى، كان هناك حارسٌ يُلقّب بـ«عزرائيل». لم يكن اسمه، كان لقباً يستحقه عن جدارة. يأتي الساعة الثانية عشرة ليلاً، سكران، طافي النور، يصرخ: «مين بده دواء؟ «يرفع شابٌ يده، من داريا، يقول: «لا ترفع إيدك، بدك تموت «.يقول الحارس: «إذا رفعت إيدك، بدك تموت «.يضربه ببوريةٍ حديديةٍ، بدبابيس، بملاقط، يقول: «حكمت المحكمة

الإلهية عليك بالموت «.يظلّ يضربه، يظلّ يضربه، حتى يُعاد إلى التواليت، حتى يُنقل على الصخرة، حتى يُدفن في زاويةٍ لا اسم لها.

لم أكن أعرف إن كان الحارس مجنوناً، أم كان النظام مجنوناً، أم كان الجنون هو القاعدة، والعقل هو الاستثناء الذي يُعاقَب عليه.

الفصل السادس: عزرائيل والنار

كان الطفل من داريا، عمره ست عشرة سنة. أو سبع عشرة. العمر لم يكن مهماً، المهم أن عينيه كانتا تحملان سؤالاً لم يُطرح بعد: لماذا؟

أُخرجنا لنُبصم على الضبط. بعد سنةٍ ونصف، نُقلنا إلى المحكمة. سألوه: «منين؟ «قال: «من داريا «.ضربوه بالعصيّ. على صدره، على بطنه، على وجهه. قلبه لا يتحمل. جاء السجاد، جابوا حامل الكهرباء، حرقوا وجهه من هنا إلى هنا، ذاب الجلد، ذاب اللحم، ذاب الأمل.

أُعيد إلى الجناح. لم يكن في الجناح دواء، لم يكن فيه مرهم، لم يكن فيه ماءٌ باردٌ يخفف الألم. كان هناك شوال بطاطا قديم، غسلناه، نرطبناه بالماء، وضعناه على حروقه. لم يكن علاجاً، كان طقسَ وداعٍ.

مات بعد يومين. أو ثلاثة. لا أعرف بالضبط. كنت أحسب الأيام بالجثث، لا بالتقويم. لم أكن أبكي، لم أكن أصرخ، كنت أجلس، أراقب، أتنفس، وأحاول أن أفهم لماذا يُحرق طفلٌ في زنزانةٍ لا تعرف إلا الظلام.

في تلك اللحظة، فهمتُ أن القسوة ليست فعل أفراد، هي نظامٌ كاملٌ، هو هيكلٌ يُبنى على الصمت، على الخوف، على تجريد الإنسان من إنسانيته خطوةً بخطوة، حتى يصير جسداً فقط، حتى يصير رقمًا فقط، حتى يصير ذكرى فقط.

الفصل السابع: محكمة الظل

جاء يومٌ ظننته يوم الخلاص، لكنه كان يوم تحويلٍ فقط. نُقلت إلى الشرطة العسكرية، ثم إلى سجن عدرا للإيداع، ثلاثة أشهر. محكمة الإرهاب، مبنى العدل، قضاةٌ يقرؤون أوراقاً جاهزة، أحكاماً مكتوبةً قبل أن تُرفع الدعوى، قبل أن يُنطق الاسم، قبل أن يُغلق الباب.

جاء محامٍ، أو رجلٌ يدّعي أنه محامٍ، قال: «بدك تطلع، بدك ٢٥ ألف دولار». لم يكن طلباً، كان معادلةً ماليةً بسيطةً: المال يحرر، الفقر يربط، العدالة سلعةٌ تُباع لمن يدفع، والظلم ضريبةٌ يدفعها من لا يملك.

دفعنا. أو بالأحرى، دُفع عنا. لم أكن أملك، لكن أهلي باعوا، استدانوا، تنازلوا عن أحلامٍ بسيطةٍ من أجل حلمٍ مستحيلٍ: أن يظلّ الابن حيّاً، أن يظلّ الأخ حاضراً، أن يظلّ الوطن مكاناً يُذكر فيه الاسم بلا خوف.

حُكمت بالإعدام مع وقف التنفيذ. أو بغرامةٍ ماليةٍ خياليةٍ. أو بسنواتٍ لا تنتهي. لم أكن أقرأ الحكم، كنت أقرأ وجه القاضي، أقرأ صمت الحراس، أقرأ ثقل الهواء، أقرأ حقيقةً بسيطةً: العدالة هنا ليست ميزاناً، هي مطرقةٌ تُسقط على من يقف، وتُرفع عن من يجلس.

الفصل الثامن: خارج الجدران

خرجت في الأول من حزيران ٢٠١٨. لم يكن خروجاً، كان سقوطاً من علوٍ لا يُحسب بالأمتار، بل بالذكريات. الشمس لم تعد نعمةً، كانت عقاباً. الضوء يحرق العينين، الهواء يخنق الصدر، الخطوات تثقل، كأن الجسد نسي كيف يمشي. دون جدرانٍ تضغط عليه من كل جانب.

نُقلت إلى فيحاء، خمسة عشر يوماً. ثم إلى القضاء المدني، إخلاء سبيل، لكن الشيك لا يزال موجوداً، الاسم لا يزال مسجلاً، الذاكرة لا تزال ترفض أن تُغلق.

لم أكن حراً، كنتُ مؤجلاً. كنتُ جسداً خرج من زنزانةٍ ليدخل إلى زنزانةٍ أكبر، تُسمى الحياة، تُسمى الذاكرة، تُسمى السؤال الذي لا جواب له: لماذا ننجو بينما يموت الآلاف؟ لماذا نتذكر بينما ينسى العالم؟ لماذا نظلّ نتنفس بينما تتوقف أنفاسهم؟

في دير الزور، حيث بدأت القصة، حيث انتهت، حيث لا تبدأ ولا تنتهي إلا في الذاكرة، جلستُ أراقب النخيل، أراقب الفرات، أراقب الأطفال الذين يلعبون بلا خوف، لأفهم أن النجاة ليست انتصاراً، هي مسؤولية. مسؤولية أن تظلّ تروي، أن تظلّ تشهد، أن تظلّ تذكر، حتى لا يصير الرقم ١٨٥٨ مجرد رقمٍ في أرشيفٍ مغلقٍ، بل يصبح صوتاً يتردد في أروقةٍ لا تزال تُبنى على الصمت.

لم أكن بطلاً، لم أكن ضحيةً بالمعنى الذي تُصوّر به الخطابات، كنتُ إنساناً دخلَ غرفةً لا نافذة لها، خرجَ منها بجلدٍ متشقّقٍ، وذاكرةٍ مثقوبةٍ، وقلبٍ لا يزال ينبض، رغم كل شيء، رغم كل شيء، رغم كل شيء.

وهذا، ربما، هو كل ما يحتاجه العالم كي يظلّ إنساناً.

صحفية
خلف قضبان طرطوس

صحفية خلف قضبان طرطوس

مقدمة: حين يختفي الضوء

في مساء أحد أيام تشرين الثاني الباردة من عام ألفين وأحد عشر، كانت دمشق تضج بأخبار لا تقال. في أزقة كفر سوسة، كانت الرياح تحمل معها صرخات خافتة، لا يسمعها إلا من يملك قلباً يصغي.

نور حديفة، الصحفية الشابة ذات السبعة عشر ربيعاً، لم تكن تعلم أنها ستصبح بطلة قصةٍ لن تُروى بالكامل إلا بعد سنوات. كانت تعيش في حي هادئ من أحياء دمشق، تؤمن أنها ستعيش حياةً عادية، بعيدة عن الزوابع التي هزت البلاد. لكن القدر كان له رأي آخر، وكالعادة، يفاجئنا القدر حين لا نكون مستعدين.

كانت نور في السابعة عشرة، فتاة ذات عينين واسعتين وشعر أسود طويل، تحلم بأن تصبح صحفية تكتب الحقيقة مهما كلفها الثمن. كانت تقرأ كثيراً، وتكتب أكثر، وتؤمن بأن كلمة الحقّ هي أقوى سلاح في وجه الطغيان.

لكن في تلك الليلة، لم تكن تكتب؛ كانت ترتجف خلف قضبان زنزانة في أمن الدولة بطرطوس، بعدما اقتيدت رفقة أخويها بشير ورشاد وابن خالتها عمر. كانت تتساءل: كيف وصلتُ إلى هنا؟ كيف تحوّل حلمي إلى كابوس؟

لم تكن نور تشبه بقية المعتقلين. هي الأخت المدللة في عائلتها، الصغيرة التي يعاملها الجميع بلطف. أبداً لم تكن مستعدة لهذا النوع من القسوة. لكنها كانت تمتلك شيئاً لا يمتلكه الكثيرون: غريزة المقاومة، ورفضاً فطرياً للاستسلام.

وفي تلك اللحظة، لم تكن تعلم أنها في بداية رحلةٍ ستمتد لشهور، سترى فيها من العجائب ما لم تره في أي من كتبها.

فصول قصتنا تبدأ هنا.

الفصل الأول: لحظة الاعتقال

في صباح السادس عشر من تشرين الثاني عام ألفين وأحد عشر، كان المنزل يفيض بالحياة. أخوها بشير ذو الخمسة وعشرين عاماً كان يقرأ الجريدة، وأخوها رشاد ذو التسعة عشر عاماً كان يعدّ فنجان قهوته. كانت الحياة طبيعية، إلى درجة مملة.

لكن فجأة، دوى طرق عنيف على الباب. قبل أن يفتح أحد، اقتحم الجنود المنزل. مدججين بالسلاح، وجوههم مغطاة بأقنعة سوداء، يصرخون ويأمرون الجميع بالثبات.

قالوا: "بشير ورشاد، أنتما مطلوبان. تحركا".

وقف بشير بثبات، رمقهم بعينين لم تعرف الخوف. أما رشاد، فكانت رجفته ظاهرة للعيان. لقد اعتُقل ثلاث مرات سابقة، وكان يعرف ما يعنيه أن تساق إلى المجهول مرة أخرى.

ولكن نور لم تستطع الوقوف مكتوفة الأيدي. رأت الجنود يقبضون على أخويها، وشعرت بغضبٍ يغلي في صدرها. صرخت بأعلى صوتها: "توقفوا! إخوتي ما عاملين شي! ليش عم تعتقلوهم؟ بعدوا عنهم"!

لم ينتبه لها الجنود. فاقتربت منهم، وحاولت أن تفصل بينهم وبين أخويها. لم تكن تعلم ما تفعل، لكن غريزة الحماية كانت أقوى من أي خوف.

هنا، تقدم أحد العساكر ليُمسك بذراعها ويُبعدها. لكن نور كانت ترفض أن تُقاد كخروف. دفعت يده، ثم صفعته بقوة على وجهه. لكمته بعنف، وقد شعرت للحظة بالرضى حينما احمرت عينه من الصفعة.

كانت تلك اللحظة مفصلية. في عالم استسلام، كانت نور تجسّد المقاومة. العساكر، الذين اعتادوا على أن المعتقلين يركعون فوراً ويستسلمون، تفاجأوا بفتاة صغيرة تردّ على عنفهم بعنف مماثل. شعر أحدهم بالإهانة، فانهال عليها بلكمات قوية على صدرها، أوجعتها كثيراً، وجعلتها تتراجع إلى الخلف وهي تلهث من الألم.

قال في نفسه: "هذه ليست فتاة عادية. هذه محتاجة لإعادة تأهيل عنيف".

لكن نور نظرت إليه بعينين تتحدّيان، لم تظهر فيها الهزيمة. ثم استسلمت أخيراً، وركبت السيارة العسكرية مع أخويها.

نظرت إلى رشاد، الذي كان يرمقها بعينين خائفتين، وقال همساً: "كلو تمام، إحنا راجعينا. القوي منا هو اللي بيصمد".

لم تكن تعلم كم سيكون الطريق طويلاً.

الفصل الثاني: الطريق إلى بانياس

في السيارة العسكرية، كان العساكر يواصلون ضربهم بقناني المياه والروسيات (الرشاشات). كلّما حاولت نور التحرك، كانوا يصفعونها. لكنها لم تبكِ. ظلّت ممسكة بثباتها، مكرّرة في سرها: "يا رب احمينا، يا رب احفظنا".

في طريقهم إلى فرع الأمن في بانياس، كانوا يمرون على معتقلين آخرين جرى نقلهم في سيارات عسكرية أخرى. كان المشهد مروعاً، كلهم مقيدي الأيدي، ومطأطئو الرؤوس، ومغطوا أعينهم.

في قلب نور، كان الوجع لا يوصف. لكنها حافظت على هدوئها.

ما إن وصلوا إلى فرع الأمن في بانياس، حتى بدأت طقوس الإذلال المعتادة. جردوهم من ملابسهم، وجاءوا بالكلابشات الحديدية ليقيدوهم. لكن قيود الكبار كانت كبيرة جداً على يدي نور الصغيرتين.

قال أحد الجنود بسخرية: "شو بدنا نعمل بهيدي؟ شفتوا هيدي بنت متل؟ بدها كلبشة خاصة بالأطفال".

ضحكوا ساخرين، وأحضروا قطعة من البلاستيك الخشن، الذي يُستخدم عادةً لربط أكياس الخبز، وربطوا يديها بها بقوة. كان البلاستيك يقطع في جلدها، والدم بدأ يتدفق من معصميها.

أخوها رشاد كان يصرخ للمرة المئة: "ما إلها دخل هي بالشي! حطوني أنا مكانها! أنا معترف بكل شي! اتركوها"!

لكن الجنود لم يأبهوا. أحدهم أمر رشاد بشتم نور على الملأ، ليُري المحققين أنه يبرأ منها. رفض رشاد بشدة.

فبدأ العسكر يضربونه بوحشية، كل ركلة تأتي على بطنه وظهره. كانوا يكررون: "إشتمها، يا خنزير، وريهم أنك رجال".

توسل إليهم رشاد: "بس أنا ما بقدر... يعني... هيدي أختي. بالله عليكم اتركوها. ما تعذبوها قدامي".

لكن نور، التي كانت تراه يتألم، صاحت فيه: "بشير! إشتمني. إشتمني خلص، ما بدك إياك تتضرب عشاني. أنا عادي، خليك بأمان".

فتذمر رشاد بحزن وعار، وقال: "أنتِ طرشا تبع... إنتِ رضا... إنتِ... آسف. آسف يا أختي".

لكنه لم يستطع إكمال الشتيمة، فقد اختنق بكلماته.

أما الجنود، فلم يكتفوا. جروا نور إلى زنزانتها، وأغلقوا عليها الباب.

وقفت نور هناك، وحيدة، يديها تنزفان، وصدرها يؤلمها، وأذناها تسمعان صرخات أخويها تتردد في الممر.

لكنها تماسكت، وقالت في سرها: "يا رب، أنت شايف كل شي. يا رب خلّي إيماني قوي".

ثم، رفعت رأسها عالياً، واستعدت للمرحلة القادمة.

الفصل الثالث: إخفاء الهاتف

في زنزانتها الصغيرة، كانت تفكر نور بعمق. كانت تعلم أن بحوزتها هاتف أخيها بشير، والذي يحتوي على تفاصيل كل شيء: تواصل مع الثوار، معلومات عن التنظيم، خطط

المظاهرات، أسماء رفاق السلاح. كان إذا اكتشفه الجنود، فسينتهي الأمر بمأساة كبرى. سيُعدم بشير بلا محاكمة.

لم تجد مكاناً تخبئه فيه. كانت ترتجف من شدة الخوف. لكن فكرة لمعت في رأسها: ذهبت إلى الحمام، ورفعت رأسها إلى الأعلى، فوجدت في الجدار حفرة صغيرة فوق الباب. رفعت الهاتف ووضعته هناك، محكمة الإغلاق.

قالت: "الحمد لله... الحمد لله على هذه الحفرة".

ثم عادت إلى زنزانتها. مرت خمس دقائق، ودخل عليها العساكر فجأة: "المنفردة... تحركي، بدنا نفتش المكان".

فتشوا الغرفة بأكملها: تحت السرير، في المطبخ الصغير، في الحمام. لكنهم لم ينتبهوا إلى الحفرة فوق الباب. لم يخطر لهم أن فتاة في السابعة عشرة يمكن أن تخبئ شيئاً بهذه المكر.

قرّرت نور في تلك اللحظة أن التظاهر بالطفولة قد يكون أنجع وسيلة للبقاء. لقد رأت أن العساكر يتعاملون معها كطفلة حين أتوا بكلابشة بلاستيكية. فقررت أن تستغل هذه الصورة، وأن تتعامل معهم ببراءة وسذاجة.

في التحقيقات، كانت تنادي عليهم "عمو" بدلاً من "سيدي". كانت تبكي بسهولة، وتتظاهر بالخوف، وتقول: "عمو، أنا ما بعرف عن شو بتحكو. أنا بنت. أنا بدي أطلع على أهلي".

كانت تمثل تلك البراءة التي لا تتوقعها من معتقلة. وكانت تنجح إلى حد كبير.

بعد ثمانية أيام في بانياس، نقلوا الجميع إلى الفرع الأمني بطرطوس، حيث بدأت المرحلة الأفظع.

الفصل الرابع: أصوات التعذيب

في طرطوس، وضعوا نور في زنزانة منفردة. كانت جدرانها عارية، وأرضها متسخة، ولا تخلو من الفئران والحشرات. كانت الزنزانة تطل على ممر طويل كانت تجري فيه التحقيقات.

طوال اليوم، تسمع نور أصوات التعذيب. كانت تستمع إلى أخويها وهما يصرخان من الألم، وتسمع صراخ بقية المعتقلين، وكلمات الاستغاثة والدعاء. كانت تسمع العساكر وهم يضحكون وهم يهددون. كانت تسمع صوت السياط وهي ترتطم بالجلد...

كان كل ذلك يكسرها من الداخل. قالت لنفسها: "لازم اتأقلم. لازم أعيش مع هذا الواقع المر".

في اليوم الأول، أحضروا لها قطعتين من الجبن، ونصف رغيف خبز. وضعوا الطعام على الأرض، لكن سرعان ما التف حوله الفئران وبدأت تقضم الجبن.

شعرت نور بالقرف والخوف. كانت تراقب الفئران من بعيد، ثم قالت في نفسها: "خلاص. ما بدي أكل. الموت جوعان أفضل من الأكل مع الفيران".

لكن بعد فراغ المعدة، وجوع لم تعرفه من قبل، وخوف من المجهول، قررت أن تتأقلم. نامت ورأت أحلاماً مفزعة. ظلت تتقلب ولا تستطيع أن تنام هانئة.

مرت الأيام. وذات ليلة، أيقظها صوت غريب. نظرت إلى زاوية الغرفة، فرأت فأراً يقترب من الجبن. ثم رأت فأراً آخر يقترب. ثم ثالث. ورابع. بدأت الفئران تزحف نحو الجبن، وتأكل منه وهي قريبة جداً من جسد نور.

صرخت: "آه! يا عالم! آه"!

فتح العسكري الباب، وقال لها بلهجة ساخرة: "لا تقلقي. الفيران اللي عندنا هاي أمهر من الجرس. بيفهموا. ما بيقربوا منك إذا إنتِ نايمة؟"

كانت تلك أولى نوبات الرعب التي ستتكرر. لقد أصبحت تخاف حتى من حفيف أقدام الفئران. لكنها تعايشت.

بعد أيام، بدأت الوجبات تتكرر بانتظام. كانوا يضعون الطعام، وتأتي الفئران، وتأكل. وكانت نور تنظر من بعيد، وتئن من الجوع، لكنها رفضت الأكل. ثم في لحظة يأس، قالت لنفسها: "لو ما أكلت، سأموت. وإذا مت، مين راح يشهد على كل الظلم؟ مين راح يحكي للناس القصة؟"

فأكلت. لم تعد تخاف من الفئران. صارت جزءاً من واقعها اليومي.

الفصل الخامس: التحقيق والضغط النفسي

كان المحققون في فرع أمن طرطوس يستخدمون أسلوباً مزدوجاً في الضغط. كانوا يحتجزون نور ويستدعون من وقت لآخر، ويواجهونها بأسئلة استفزازية عن إخوتها وعن نشاطهم.

وكانوا يستخدمونها كورقة ضغط على بشير. يتم استدعاؤها في منتصف الليل، ويُجَرُونها إلى قاعة التحقيق، ويأمرونها بالوقوف على الحائط، ثم يضربونها أمام أخيها.

في مرة من المرات، جاؤوا بها إلى غرفة التحقيق، ورفعوها من شعرها وجعلوها تعلق على الحائط. أخوها بشير كان مربوطاً على الكرسي، مقيد اليدين، وعيناه تدمعان.

قال له المحقق: "بتعترف ولا نعمل فيها اللي بدنا إياه؟"

قال بشير: "يا سيدي، اتركوا أختي. هي طفلة. ليش عم تعذبوها؟ أنا معترف بكل شي. أنا إرهابي، أنا قاتل، أنا مسؤول عن عمليات. خلص احكم عليا".

لكن المحقق رفض. قال: "لا. رح نخليك تشوف أختك ولو ما اعترفت".

وجاؤوا بعصى الكرباج وبدأوا يضربون نور على كتفها وظهرها. كانت تصرخ من الألم. وكان بشير يصرخ معها: "وقفوا! وقفوا! اعترفت اعترفت بأي شي بدكم إياه. أي شي".

خاف على نور أكثر مما خاف على نفسه. وراح يختلق قصصاً واعترافات لا أساس لها ليُبعد التعذيب عنها.

كان نور ترى ذلك وتتألم داخلياً، لكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً. كانت تعلم أنه لو تكلمت أو اعترضت، سيزداد التعذيب عليها.

قالت في نفسها: "هذا النظام لا يعرف رحمة. هذا النظام يريد أن يحطم أرواحنا".

لكنها صمدت.

الفصل السادس: تعاطف السجناء

بعد أسبوعين، بدأت العلاقات الإنسانية تنمو بين المعتقلين، رغم الجدران السميكة والكلابشات الحديدية. كانوا يتحدثون همساً بين الحين والآخر، ويشجعون بعضهم البعض على الصمود.

كان رشاد، الأخ الأوسط، ينام في الزنزانة المقابلة. كانا يتبادلان الكلمات عبر الجدار: "نور، شربتي مي؟" تسأل. وكانت تجيب: "إي، وأنت؟" "الحمد لله".

كان السجناء الآخرون يخاطبونها في الممرات وكأنها ابنتهم الصغرى. "نور، أنتِ صغيرة. أكيد رح يخلوكِ تطلعين. لا تخافي. رح تطلعين قبلنا كلنا." كانت تشعر بالامتنان لهذه الكلمات، رغم اليأس العميق.

في إحدى الليالي، كانت تبكي بصمت. سمع رشاد صوت بكائها، وهمس من خلف الجدار: "نور... نور، اسمعي. إحنا منحبك. إحنا كلنا هون عائلتك. لا تخافي. الله معنا".

لم ترد، لكنها توقفت عن البكاء. شعرت للحظة أن الأمل لا يزال موجوداً.

كان علاقة رشاد بنور مميزة. هما قريبان في السن، تربيا معاً، عاشا الطفولة والأحلام والطموحات. كان رشاد يخبرها عن أحلامه في الهجرة، في بناء مستقبل آمن. وكانت نور تصغي، وتتخيل أنها هي أيضاً ستسافر، ستدرس، ستكتب.

لكن حلم رشاد تحطم هناك في الزنزانة.

في مناسبة ما، جاؤوا برشاد بعد تعذيب وحشي. كان جسده متعباً، وعيناه زائغتان. قال لها وهو يبكي: "نور... سامحيني. سامحيني لو أنا سبب في اعتقالك. لو ما كنتُ... لو ما كنتُ"...

لم يفهم السبب. لكنها فهمت لاحقاً أن المحققين هم من أقنعوه بأنه مسؤول عما حدث. أرادوا أن يضربوه نفسياً قبل أن يضربوه جسدياً.

احتضنته بيديها المقيدتين، وقالت: "رشاد... لا تلوم حالك. النظام هو المجرم. انت بريء. وما قصّرت بحقي أبداً. أحبك".

بكى رشاد بكاءً مراً. كانت تلك آخر مرة تراه فيها على قيد الحياة.

الفصل السابع: كفر سوسة تحت الأرض

بعد شهر من الاعتقال في طرطوس، وبعد أن شهدوا أصنافاً شتى من العذاب، نقلوا المعتقلين إلى العاصمة دمشق. تحديداً، إلى ما يعرف بـ"كفر سوسة" – فرع الأمن ٢١٥.

لكن ما رأته نور هناك فاق كل تصور. لقد أنزلوهم إلى أقبية تحت الأرض، حيث الرطوبة العالية، والظلام الكثيف، ورائحة الجثث والدم والعفن. كانت هناك ممرات مظلمة، وغرف صغيرة مهترئة.

أثناء نزولهم إلى الطابق السفلي، شاهدت براميل ماء ضخمة تتصاعد منها حرارة عالية، كأنها غلايات. كانت المياه تُسخّن لتحرق بها الجلود. كانت تسمع الصراخ من كل مكان.

وعلى الأرض، وجدت أرزاً وبطاطا وخياراً، وكانت الصراصير والحشرات تمشي عليها. اختلط الطعام بالتراب وبدماء الجرحى. قشعر بدنيها.

في تلك الأثناء، سمعت صراخاً عنيفاً بالقرب منها. رفعت رأسها فرأت كومة من الجثث الملقاة في الممر. كانت ملفوفة ببطانيات وحيدة، وقد بدأت تتحلل. وكان الدود يزحف منها.

أغمي عليها للحظة من هول المشهد. عندما أفاقت، لم تستطع أن تتحمل الرائحة. تقيأت مراراً.

كان ذلك هو المكان الذي سيكون مقراً لها في الأسابيع التالية: أقبية "كفر سوسة" السفلى. كانت الزنزانات في الطوابق السفلى تضيق بالأحياء قبل الأموات. كل زنزانة لا تتجاوز مترين عرضاً، يضغطون فيها أربعة أو خمسة أشخاص. وكان يغلب عليهم الجوع والعطش والمرض.

كانت الكهرباء تنقطع فجأة، ويتوقف جهاز التهوية عن العمل. إذ ذاك، كان الهواء يصبح ثقيلاً، والرطوبة تغدو خانقة، ويصبح التنفس مستحيلاً تقريباً. كانوا يلهثون وهم يطلبون النجدة.

لكن الأدهى هو أن نور رأت نساءً محتجزات في الزنازين المجاورة، يتعرضن للاغتصاب والتعذيب أمام بعضهن. وكن يصرخن طلباً للنجدة، فيأتي العساكر ويضربونهن ويصعقونهن بالكهرباء.

قالت نور لأحد المحققين: "بالله عليك، أليس عندكم إنسانية؟"!

ضحك ساخراً، وأجاب: "الإنسانية ما بتقدم هون. هون اسمها كفر سوسة. وإذا مش عاجبك، هلا بنوديك لملحق الموتى".

هنا أيقنت نور أن الحياة لا تساوي الكثير، لكن الموت أيضاً لا يستحق أن تستعجله.

الفصل الثامن: لقاء نساء صامدات

بعد عدة أيام، نقلوا نور من الطوابق السفلى الرهيبة إلى الطابق السادس من كفر سوسة، حيث كان قسم النساء. وهناك التقت نساء سوريات أذهلنها صلابتهن.

كانت من بينهن **فاتن رجب فواز**، عالمة فيزياء كانت تعدّ الدكتوراه في الذرة، اعتُقلت بسبب انتمائها الفكري الثوري.

كانت فاتن تجسيداً للأمل. رغم أنها كانت تتعرض لأبشع أنواع التعذيب، وتعزل لأشهر طويلة في زنازين انفرادية، وتُصعق بالكهرباء وتُحرق أعضاؤها التناسلية، وقد حلقوا شعرها رأساً، وعذبوا كل جزء في جسدها، إلا أنها كانت تضحك وتبتسم، وتقول: "سوريا بعد سقوط النظام سنبنيها من جديد. السجون هذي كلها رح نحولها لحدائق، أماكن تربية أطفال، مراكز إبداع".

سألتها نور: "كيف تقدرين تبتسمين بعد كل هذا التعذيب؟"

ردت فاتن: "لأن الضحكة سلاحهم اللي ما بيعرفوا يتعاملوا معاه. هم بدهم يسمعوا صوت عويلنا، بدهم يتمتعوا بألمنا. فأنا أضحك عليهم. بضحك عشان أحافظ على كرامتي، وعشان أحكي للي بعدي أنه هؤلاء ما نجحوا في تحطيمي".

كانت قصص السجينات مع فاتن مأساوية لكنها ملهمة. كان من بينهن سيدة حمصية اعتقلت في الشهر السادس من حملها، فقاموا بتعليقها من يديها (الشبح) وهي حامل، وضربوها حتى أسقطوا جنينها.

وأخرى اعتقلت عزباء، فاغتصبها ضابط برتبة عالية، وحملت منه في الشهر الرابع من اعتقالها. وعندما علم الضابط بحملها، أمر بتعذيبها لإجهاض الجنين. وأجهضته بالفعل.

وثالثة، كانت تصغر نوراً بقليل، أخذوها وأولوها، ثم جلبوا أمامها مجموعة من الشباب المتدينين المعتقلين، وألزموهم بالنظر إليها وهم يكهربون جسدها. وكان ذلك كابوساً للمعتقلين جميعاً.

كل هذه القصص كانت ترن في أذن نور كالجرس. كانت تشعر بالغثيان، لكنها لم تستطع أن تأخذ عينيها بعيداً.

قالت فاتن لنور ذات مرة: "أنتِ جايي مصير تشهدي على قصصنا. هالظلم لازم يفضح. النظام بدو يخبينا، يدفننا أحياء. بس إنتِ لازم تعيشي، وتروي كل شي شفتيه".

تلك الكلمات وضعت على قلب نور مسؤولية عظيمة. شعرت أنها يجب أن تبقى قوية ليس من أجلها فقط، بل من أجل كل النساء اللواتي بجانبها.

الفصل التاسع: الإهانات اليومية

لم تكن التعذيب الجسدي هو وحده ما يعذب نور، بل الإهانات اليومية الصغيرة التي تتراكم كالصخور فوق صدرها.

حاجتها الطبيعية كانت تتحول إلى مادة للسخرية. فقد نسيت إحدى السجينات أن الدورة الشهرية قد تأتي، وسألت بصوت خافت العسكري عن "فوط نسائية". فقام العسكري بإعلام جميع زملائه، وصاروا يستهزئون بها، ويصفقون، ويسألونها: "تحبي نشوفك بتستحمي ولا بدك نوديك عند الدكتور تشتري فوط بفلوس؟"

قالوا لها: "إنتِ عندنا طفلة لو بدك شي، لازم تنجحي معنا".

كان هنالك "طبيب" في الفرع، لكنه لم يكن طبيباً بالمعنى الإنساني. كان يُسخر من النساء، ويبتزّهن مالياً وجنسياً. وعندما تطلب منه إحداهن مستلزمات نسائية بسيطة، كان يقول لها: "أعطيني مصاري، وبجيبلك".

ولم تكن نور تملك فلساً واحداً.

كانت كل حركة من حركاتها مراقبة. كانوا يجبرون النساء على الاستحمام أمام حراس رجال، ويجردونهن من ثيابهن، ويعلقونهن من أيديهن إذا رفضن.

لا عجب أن نور شعرت أنها تعيش في جحيم لا يطاق. لكنها لم تستسلم.

في إحدى الليالي، بينما كانت تستعد للنوم في زنزانتها الضيقة، شعرت بصرصور يمشي على وجهها. صرخت ورفسته بعيداً، ثم نظرت حولها: السقف المتساقط، والجدران الرطبة، والرائحة الكريهة، والفئران في الزاوية.

لكنها أغمضت عينيها وتنهدت: "طبيعي... تعودتِ. الحمد لله على كل حال".

الفصل العاشر: صفعة القدر: استشهاد رشاد

ظلت نور محتجزة في كفر سوسة عدة أسابيع، كانت تتلقى خلالها أخباراً متقطعة عن إخوتها. كانوا في الطابق السفلي، تخضع لتحقيقات عنيفة.

ذات يوم، بعد أن غادرت إحدى جلسات التحقيق، لاحظت وجود ضجة في الممر. بدأ السجناء يهمسون لبعضهم. سمعت كلمة "رشاد" مترددة.

سألت إحدى السجينات المسنات: "وين رشاد؟ شو صار فيه؟"

نظرت إليها المسنة بعينين دامعتين، وأجابت: "البنت... رشاد... مات".

لم تصدق. كانت تراه قبل أيام يتحدث معها عبر الجدار الحجري: "نور، رح نطلع. رح نعمر سوريا".

قالت للمسنة: "كيف؟ شو قصدك مات؟ ربنا يكرمك، هو مريض؟"

جاءت المجلة بعد ساعات مؤكدة: رشاد تعرض للمرض في الداخل، وبسبب سوء المعاملة وانعدام الرعاية الصحية، لم يتحمل جسده الضعف.

وبعد ثلاثة أشهر من الاعتقال، كان رشاد قد فارق الحياة.

لطمت نور وجهها وصرخت في زنزانتها: "إلهي!! رشاد... رشاد... أنا... أنا"...

شعرت بالدوار، وسقطت على الأرض باكية. كانت تشعر بفراغ هائل. رشاد لم يكن مجرد أخ، بل الرفيق والصديق ورفيق الحلم. انهارت. لكن فاتن رجب هرعت إليها واحتضنتها، وقالت: "نور. هو مات. لكن قضيتنا باقية. وحلمه رح نحققه إحنا. لا تبكي إلا إذا كنتِ باكية من ضعفه، لا تبكي إلا إذا كنتِ ستوقفين النضال".

قام رجال الأمن وسجلوها في سجلاتهم كمتوفاة لأسباب طبيعية، رغم أنهم هم من قتلوه بإهمالهم.

وبعد عام كامل، وبعد مزيد من التعذيب، استشهد بشير أيضاً. وكان جريحاً عند اعتقاله، فساءت حالته في السجن، ومات بعد معاناة مريرة.

نور لم تتمكن من حضور جنازتهما، ولا حتى توديعهما. لم يبق لها غير ذكريات الطفولة، وصوت رشاد وهو يقول: "سامحيني، سامحيني".

ظل ذلك الصوت يرن في أذنها لسنوات.

الفصل الحادي عشر: مقاومة بالضحكة

لم تكن نور وحيدة في آلامها. في المهجع الذي يضم النساء على الطابق السادس، قررن أن يحيين المقاومة بطريقتهن الخاصة. كن يتحدثن عن كيفية إعادة بناء سوريا بعد سقوط النظام، ويحلمن بالحرية.

كانت فاتن تقول باستمرار: "لا تسمحوا لهذا الجلادين أن يكسبوا المعركة المعنوية. روحكم قوية، أقوى من حديدهم".

وكن يمنحن بعضهن بعضاً الأمل.

في إحدى الليالي، فكرت نور: "يا إلهي، كيف صرت أتنفس في هذا الجحيم؟ كيف تأقلمت على الفئران والصراصير والجوع والتعذيب؟"

ثم اكتشفت السر: عندما تصبح في قاع اليأس، لن تبقى إلا أن ترتفع بنفسك. الله هو من منحها هذه القوة.

مرة من المرات، سمعت ضابطاً يقول لزملائه: "تعالوا أشوفوا هيدي البنت. من أول يوم على باب الفرع ضربت العسكري. تخيلوا؟ وبعد كل التعذيب اللي انعرضتله، لسا مكملة. صامدة. هيدي لازم تتشاف".

كانت نور تبتسم في سرها. لقد حققت ما أرادته: تجسيد المقاومة بكل جوارحها.

الفصل الثاني عشر: الخروج من الجحيم

بعد ٢٨ يوماً قضتها نور في زنازين كفر سوسة، وفي مجملها نحو ٤٥ يوماً من الاعتقال منذ البداية، أُفرج عنها فجأة. لم يكن هناك تفسير، ولا محاكمة عادلة. فقط قرروا أنها "طفلة لا تشكل تهديداً."

خرجت نور من باب الفرع، وهي تتلمس جدران المبنى. كانت ساقاها ترتجفان، وعيناها بحاجة إلى التكيف مع الضوء.

خرجت حافية القدمين، لم يبق لها حذاء. كانت تشعر بالحصى يخترق جلد قدميها، لكنها لم تمانع. كانت كل خلية في جسدها تتنفس الهواء النقي.

نظرت إلى السماء الزرقاء، وابتسمت للحياة. ثم بكت بمرارة على الذين تركوا وراءها: بشير ورشاد، والآلاف من المفقودين.

قالت في نفسها: "خرجت. لكن أرواحهم مازالت معي".

عادت إلى المنزل بصعوبة، لكن العودة لم تكن حلوة بالكامل. النظام بدأ يشوه سمعتها، يروج إشاعات أنها اغتصبت، وأنها تعاونت مع العدو، وأنها فقدت صوابها. كل هذه الإشاعات كانت جزءاً من سياسة النظام لتحطيم المعتقلات نفسياً وعائلياً.

في أحد الأيام، قالت لها إحدى صديقاتها: "نور، أبي بيقول أنه حتى لو صار فيك شي، معناه ما في مشكلة، يمكن يتزوجك عادي".

ضحكت نور بحرقة، وأجابت: "أنا ما صار فيا شي. أنا بس مقاومة. النظام شوه سمعتي عشان يخوف الناس من النضال".

كانت عائلتها متفهمة. احتضنتها أمها وأبوها وأخوتها الأحياء. لكن الألم كان كبيراً على فقد رشاد وبشير.

قررت نور أن تواصل تعليمها، وأن تصبح صحفية، وأن تنقل معاناة من تركوا في الزنازين.

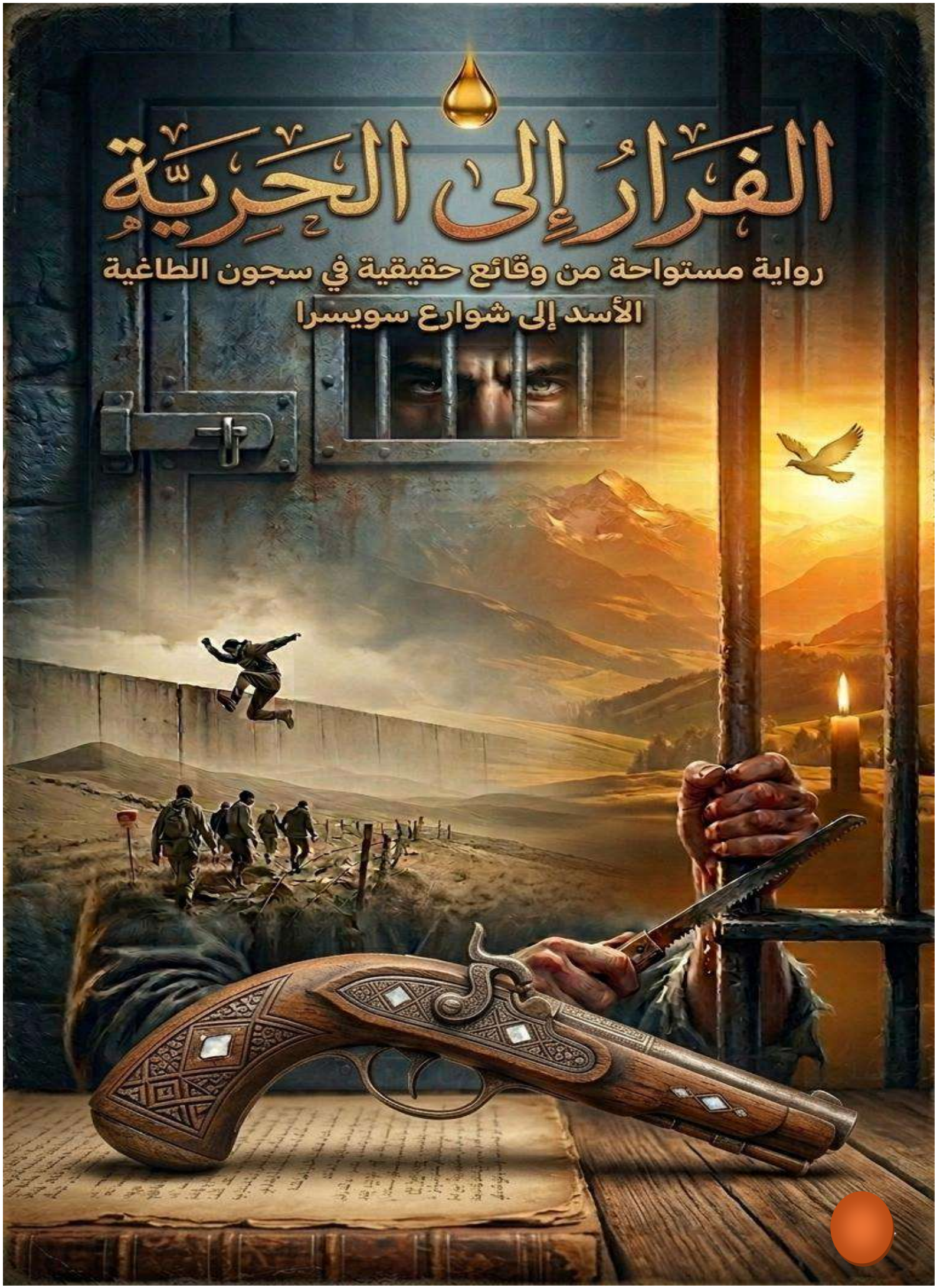
الفِرَارُ إِلَى الحُرِّيَّةِ
رواية مستوحاة من وقائع حقيقية في سجون الطاغية
الأسد إلى شوارع سويسرا

الفرار إلى الحرية

الفصل الأول: لا ورد بلا شوك

حكاية من تحت الرماد وسيرة مقاوم في زمن الطغيان

في صباح أحد أيام ربيع عام ألفين وأربعة وعشرين، جلس **رياض الحلبي** في شرفة منزله المتواضع في ضواحي زيورخ السويسرية، يتأمل جبال الألب التي تغطيها الثلوج. كان في السابعة والستين من عمره، شعره قد ابيض بالكامل، ولحيته الكثة تخفي تجاعيد وجه الذي رسمته سنون النضال. في عينيه رماد الحرب التي خاضها منذ كان في الخامسة عشرة، وفي قلبه جراح لم تندمل رغم مرور العقود.

كان يحمل في يده كأس قهوة تركية، ينظر إلى الصورة المعلقة على الحائط المقابل: صورة لأربعة شباب يبتسمون، ملتحون، يحملون بنادق كلاشنيكوف، وخلفهم علم سوريا القديم. كان أحدهم هو في شبابه، والآخرون إخوته الذين رحلوا: وليد، وبشير، ومحمد. أربعة أسماء نقشها على قلبه قبل أن ينقشها على شاهد قبر لا يزوره.

قال لنفسه بصوت خافت: "ها قد سقط الطاغية، وأنا هنا بعيد. لم أكن في المعركة الأخيرة. لم أرفع علم النصر بيدي. سبحان الله"...

تذكر أيامه الأولى، عندما كان طفلاً في حلب، في حي شعبي كانت رائحة الخبز تفوح منه صباح كل يوم. كان والده يعمل خياطاً، وأمه ربة منزل تدير سبعة أطفال بيد من حديد وقلب من قطن. كان رياض الابن الرابع، بين وليد الأكبر وبشير الأصغر ومحمد الذي كان بينهما.

لم يكن يعرف السياسة حينها. كان يعرف كيف يلعب كرة القدم في الزقاق، وكيف يسرق تفاح الجيران، وكيف يضحك مع أصدقائه حتى تؤلمه بطنه. لكن القدر كان يخطط له شيئاً آخر.

تذكر يوم اعتقال أخيه وليد لأول مرة. كان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة. كان وليد قد أصبح صديقاً مقرباً لابن عمته النقيب إبراهيم اليوسف، الضابط في الجيش السوري الذي كان يخطط لعمليات سرية ضد النظام. وليد لم يكن منخرطاً في العمل العسكري، لكن صلة القرابة كافية ليكون متهماً.

خرج وليد من السجن بعد شهور، لكنه لم يعد كما كان. صار قلقاً، متوجساً، ينام وعيناه مفتوحتان. ثم اختفى فجأة. كان الجميع يعتقدون أنه سافر إلى دمشق مع زوجته وأطفاله. لكن الحقيقة كانت مختلفة تماماً.

الفصل الثاني: القاعدة في الكرم

في أحد الأيام، وبينما كان رياض عائداً إلى البيت من ورشة الخياطة التي كان يعمل فيها مع إخوته، اعترضه رجل غريب في الزقاق. كان الرجل يدعى حسين شاشو، رجل في الأربعين، ذو بنية عسكرية ووجه صارم.

قال له بحزم: "أنت رياض بن حامد الحلبي؟"

تردد لحظة، ثم أجاب: "نعم، ومن أنت؟"

قال الرجل: "أنا صديق لأخيك وليد. زمان ما شفته؟"

قال رياض بحذر: "منذ ثلاثة أشهر. قال إنه سيسافر إلى دمشق".

ضحك حسين ضحكة جافة: "دمشق؟ كلا يا بني. أخوك في حلب، في مكان آمن. وهو بحاجتك".

أخذ رياض إلى منطقة زراعية على أطراف حلب، حيث الكروم والبساتين تمتد كبحر أخضر. مشوا بين الأشجار المتعطشة للشمس، حتى وصلوا إلى كرم كبير تحيط به جدران حجرية عتيقة. في وسط الكرم، كان هناك بئر ماء، وخزان كبير، وغرفة صغيرة مبنية من الحجر والطين.

دخل رياض الغرفة، فوجد أخاه وليد جالساً على حصير بسيط، إلى جانب رجل آخر في الخمسين، كان يدخن سيجارة بشراهة. نهض وليد وضم أخاه بحرارة.

قال وليد بصوت خشن: "رياض... أنت هنا. الحمد لله. لقد طلبتك لأني أثق بك".

نظر رياض حوله: "ما هذا المكان؟ ولماذا أنت هنا؟ ما الذي يحدث؟"

قال الرجل الآخر الذي يدخن، وقد عرف رياض لاحقاً أنه "أبو قصي" حسين شاشو: "اجلس يا ولد. لنحكي لك القصة من أولها".

هكذا بدأت رحلة رياض في عالم النضال السري.

الفصل الثالث: الطليعة

روى له وليد وأبو قصي قصة تشكيل "الطليعة المقاتلة"، وهي مجموعة من الشباب الثوار الذين قرروا مقاومة نظام حافظ الأسد بعد عقود من القمع. كانت الطليعة تعمل في الخفاء، تخطط لعمليات نوعية ضد رموز النظام. وكان قائدهم الروحي هو النقيب إبراهيم اليوسف، ابن عمتهم، الذي كان قد انشق عن الجيش وحمل السلاح ضد رفاقه السابقين.

قال وليد: "إبراهيم قائد عظيم. خطط لعمليات عدة، منها عملية مدرسة المدفعية التي هزت النظام. لكن النظام تعقبه، واستشهد منذ عامين. لكننا لم نستسلم".

كان من بين قادة الطليعة آخرون: عدنان عقله، وأبو عمار، وأبو الخير الزيات. كانت مهمتهم تتلخص في زرع خلايا نائمة في المدن السورية، وتجنيد الشباب، وتدريبهم عسكرياً، استعداداً ليوم تحرير البلاد.

في ذلك الكرم، كان إبراهيم قد أسس قاعدة سرية. كان يأتي ويذهب، يقود المجموعات، يخطط للعمليات. وكان وليد قد أصبح مساعداً له.

قال وليد: "وأنت يا رياض، ستنضم إلينا. لقد أصبحت مطلوباً للأمن بعد أن علموا بقرابتك من إبراهيم وعلاقتك بي. الخيار لك: إما أن تهرب معنا، أو أن تعتقل وتُعذب وتُعدم".

شعر رياض بالصدمة. كان يبلغ من العمر خمس عشرة سنة فقط. كان يفكر في والدته التي تربي سبعة أيتام بعد وفاة والده، وفي إخوته الصغار، وفي مستقبله المجهول.

لكنه نظر في عيني أخيه وليد، وقرأ فيهما مزيجاً من الخوف والأمل. قرر الانضمام.

قال: "أنا معكم. سأفعل ما يجب فعله".

وهكذا، في تلك الليلة، أصبح رياض مقاتلاً في الطليعة. حمل مسدساً لأول مرة، وتعلم كيف يستعمله. تعلم كيف يختفي، كيف يمشي في الظلام، كيف يتحدث بالرموز.

كانت تلك بداية حياة جديدة، حياة من الخوف والترقب والاستعداد للموت في أي لحظة.

الفصل الرابع: المعركة الأولى

بعد أسابيع من التدريب والتمويه، أتت اللحظة التي كان الجميع ينتظرونها. تلقت الطليعة أنباءً بأن دورية للجيش السوري ستمر بجانب قاعدتهم ليلاً. قرر إبراهيم اليوسف نصب كمين لها.

كان رياض في تلك الليلة خلف جدار حجري، يمسك ببندقية كلاشنيكوف كانت أثقل من ذراعه. كان قلبه يدق كالطبول، ويداه ترتجفان. كان يهمس بالدعاء: "يا رب، يا رب، يا رب".

وفجأة، سمع دوي محركات السيارات القادمة. رأى الأضواء تتسلل بين الأشجار. سمع صوت إبراهيم وهو يهمس: "انتظروا حتى يقتربوا... الآن"!

انطلقت الرصاصات من كل اتجاه. كان رياض يطلق النار عشوائياً، غير قادر على تصويب هدفه. كان يرى كل شيء كالضباب. سمع صراخاً، أوامر، تكبيرات، ورصاصاً.

في خضم المعركة، رأى أخاه وليد يسقط فجأة. ركض نحوه، واكتشف أنه أصيب في ذراعه وساقه. نزف غزير. مزق رياض قميصه، وربط جراحه بأسرع ما يمكن.

تمكنت الطليعة من صد الدورية وقتل العديد من الجنود. لكن كان الثمن غالياً: استشهد اثنان من رفاقهم، وأصيب ثلاثة آخرون.

تلك الليلة، ذاق رياض طعم الحرب لأول مرة. طعم الخوف، والألم، والموت القريب. ولكنه شعر أيضاً بشيء آخر: الفخر. الفخر بأنه قاوم، بأنه لم يركع، بأنه دافع عن قضية يؤمن بها.

منذ تلك الليلة، تغير رياض. أصبح أكثر صلابة، أكثر جرأة، أكثر التزاماً بالقتال.

الفصل الخامس: مجزرة حماة

في صيف عام ألفين واثنين وثمانين، كان رياض في قاعدة العزوبية في العراق، حيث كان قد انتقل مع مجموعة من رفاقه بعد أن اشتد الخناق عليهم في سوريا. كانوا يتلقون التدريبات العسكرية، ويخططون للعودة.

في يوم من الأيام، وصلهم نبأ مروع: الجيش السوري يقتحم مدينة حماة، ويرتكب مجزرة بحق المدنيين. عشرات الآلاف يقتلون في أسبوع واحد. البيوت تُهدم على رؤوس ساكنيها، والمساجد تُقصف، والنساء والأطفال يُذبحون.

كان رياض يجلس مع رفيقه عدنان عقله، وكانت عيون عدنان تدمع. قال عدنان بصوت مبحوح: "لقد وصل الأمر إلى هذا. هم يريدون إبادة شعب بأكمله. ماذا ننتظر؟"

كان هناك قائد كبير في الطليعة، يدعى أبو عمار، كان يحاول إقناع الجماعة بالصبر وعدم التسرع. أراد أن يعود إلى العراق ليجهز المزيد من السلاح والرجال قبل النزول إلى سوريا.

لكن عدنان وغيره من الشباب كانوا يريدون النزول فوراً. قال عدنان: "إذا لم ننزل الآن، فسنكون شركاء في الجريمة. دماؤهم في أعناقنا".

تشكل الوفد إلى بغداد للقاء المسؤولين العراقيين الذين كانوا يدعمون الطليعة. وكان على رأس الوفد عدنان عقله وأبو عمار. لكن العراقيين رفضوا إعطاء أي دعم، ورفضوا السماح لهم بالنزول.

عاد الوفد إلى القاعدة، وكانت الخيبة تملأ وجوههم. لكن عدنان لم يستسلم. قرر النزول بمفرده مع مجموعة صغيرة. أخبر رفاقه: "أنا سأذهب. من يريد أن يلحق بي فليفعل. الموت في سبيل الله أشرف من العيش تحت هذا الظلم".

نزل عدنان وعشرات الشباب إلى سوريا عبر تركيا. لكن كميناً كان ينتظرهم. وصلوا إلى حماة ليجدوا المدينة قد دُمّرت بالكامل. لم تكن هناك معركة لخوضها، بل كانت هناك مجزرة قد انتهت. قُبض عليهم جميعاً، وسيقوا إلى السجون.

أما رياض، فلم ينزل معهم. أمرته القيادة بالبقاء في العراق لاستكمال تدريبه. كان ذلك القرار هو ما أنقذ حياته.

بعد أشهر، وصلته أنباء عن مصير عدنان وأبو عمار: اعتقلوا، عُذبوا، ثم أعدموا في سجن تدمر. كانوا قد ضحوا بحياتهم من أجل قضية خاسرة.

قال رياض لنفسه: "هكذا هي طريقنا. إما النصر أو الشهادة. ولا شيء بينهما".

الفصل السادس: الاختراق

ظل رياض في العراق سنوات، يتدرب، يخطط، ينتظر اللحظة المناسبة للعودة. لكن الظروف لم تكن مواتية. النظام العراقي – الذي كان يدعم الطليعة في البداية – بدأ يتغير موقفه بعد أن شعر بتهديد من هذه الجماعات المسلحة.

في إحدى المرات، وبينما كان رياض عائداً من تركيا إلى العراق عبر مطار بغداد، تم توقيفه. كان يحمل في حقيبته جوازات سفر مزورة لرفاقه في الداخل. الضابط العراقي الذي فتش حقيبته وجدها، وأوقف الرياض.

قال له الضابط: "شنو هذا؟ جوازات سفر؟ أسماء غير حقيقية؟"

قال رياض: "إنها لأصدقاء لي... أغراض شخصية".

لم يصدقه الضابط. أمضى رياض اثني عشر يوماً في سجن الأمن العراقي، في زنزانة تضم مئة وثلاثين شخصاً من جنسيات مختلفة. كان يشعر بالخوف والارتباك. لم يتوقع أن العراق – الذي كان يحميهم – سيعتقلهم فجأة.

بعد أيام، استدعاه الضابط للتحقيق. سأله أسئلة غريبة: "ما علاقة الطليعة بإيران؟ ما أهداف الطليعة بعد تحرير سوريا؟ هل ستحاربون دولاً أخرى؟"

كان رياض في حيرة من أمره. قال للضابط: "أنا لست قائداً. أنا جندي بسيط. مهمتي هي القتال ضد نظام الأسد فقط. لا أعرف شيئاً عما تقول".

صفعه الضابط على وجهه، وكاد يصمه. ثم قال: "أنت تتعالى علينا. نحن كنا نحميكم، والآن تظنون أنفسكم شيئاً؟ سنسلمكم للسوريين".

كانت كلمات الضابط بمثابة صاعقة. تسليمه لسوريا يعني الإعدام المؤكد.

خرج رياض من التحقيق وهو يرتجف.

الفصل السابع: الهروب

بعد أيام، أفرج عن رياض فجأة. لم يكن يعرف السبب، لكنه لم ينتظر ثانية. اتصل بأخيه بشير الذي كان لا يزال في العراق، وأخبره أنه مطلوب وأن عليه الهروب فوراً.

اتفق مع سائق شاحنة كان يعرفه، ودفع له مقابل تهريبه إلى الأردن. أخفى نفسه في مؤخرة الشاحنة، مطأطئ الرأس، لا يسمع سوى صوت المحرك وضربات قلبه.

عبر الحدود العراقية الأردنية دون توقيف، ثم وصل إلى عمان. هناك، قضى أياماً في بيوت آمنة، ينتظر حجز تذكرة طائرة إلى تركيا.

في تركيا، التقى بمجموعة جديدة من الثوار الذين كانوا يخططون لدخول سوريا. كان قد تكررت لديه قناعة راسخة: لا بد من العودة، بغض النظر عن المخاطر.

قبل أن ينطلق، اتصل بأخيه بشير الذي كان لا يزال في العراق. قال بشير: "رياض، ما تتعجل. الوضع متوتر. هناك خيانة في الداخل. لا تثق بأحد".

لكن الرياض لم يسمع. كان يعتقد أن مهمته لم تنته بعد، وأن الشهادة في سبيل الله هي أسمى أمانيه.

انضم إلى مجموعة صغيرة من الثوار، وساروا ليلاً على الأقدام في الوديان الجرداء بين تركيا وسوريا. كان المهربون يقودونهم عبر مسارات شديدة الوعورة.

بعد ساعات من السير، وبينما كانوا يقتربون من الحدود السورية، فُوجئوا بكمين محكم. أضاءت أضواء كاشفة السماء، وانطلقت الرصاصات من كل اتجاه.

صرخ أحدهم: "انتبهوا! الجيش! الجيش"!

لكن الوقت كان قد فات. تطوقهم جنود المخابرات العسكرية من كل جانب.

ألقى رياض بنفسه على الأرض، وشعر بأيدي خشنة تقبض على ذراعيه وتكبلهما خلف ظهره. غطوا عينيه، وساقوه إلى سيارة عسكرية.

عرف في تلك اللحظة أن نهايته قد حانت. قال في نفسه: "هكذا هي نهاية المغامرين. إما الشهادة أو السجن".

لكنه لم يكن يعلم أن السجن سيكون بداية رحلة جديدة، أشد قسوة من كل ما سبق.

الفصل الثامن: الزنزانة الانفرادية

أُدخل رياض إلى فرع المخابرات العسكرية في دمشق. كانوا قد نقلوه من ادلب إلى العاصمة في شاحنة مغلقة، وكأنه قطعة من البضائع المهربة. طوال الطريق، كان الجنود يضربونه بأعقاب بنادقهم، ويشتمونه بأبشع الألفاظ.

في الفرع، وضعوه في زنزانة انفرادية لا تزيد مساحتها عن مترين في مترين. الجدران رطبة، والأرض متسخة، والهواء ثقيل برائحة العفن والدم. لم يكن هناك سرير، فقط حصير بالٍ. السقف منخفض، ونافذة صغيرة جداً تطل على جدار مجاور.

في الزنزانة المجاورة، كان يسمع صوت رجل يعذب بوحشية. كان يصرخ، يتأوه، ثم ينقطع صوته فجأة. كان ذلك يملأ قلبه رعباً لا يوصف.

غادر الزنزانة بعد يومين، حيث استدعاه أحد كبار ضباط المخابرات للتحقيق. كان الضابط جالساً خلف مكتب كبير، يرتدي بدلة عسكرية أنيقة، ويأكل الفستق الحلبي بشراهة.

قال الضابط ببرود: "أهلاً بك يا بطل. نعرف كل شيء عنك. لا حاجة بنا إلى اعترافاتك. فقط أخبرني: متى وصلت إلى تركيا؟ ومن ساعدك هناك؟ وما هي خططكم القادمة؟"

كان رياض يعلم أن الكذب لا يجدي نفعاً، وأنهم ربما يعرفون أكثر مما يعرف هو. فقرر أن يقول الحقيقة باختصار.

أجاب: "وصلت إلى تركيا منذ شهرين. أتيت للقتال. ليس لدي خطة سوى الموت في سبيل الله".

ضحك الضابط ساخراً: "الموت في سبيل الله؟ هذا ما يردده كل جاهل قبلك. حسنٌ، سوف نريكم كيف تموتون".

أمر الضابط بضرب رياض، فانهال عليه الجنود بالعصي والأرجل. كان الضرب مركزاً على ظهره وكتفيه وركبتيه. صرخ رياض لكنه لم يبكِ. كان ممسكاً بلسانه حتى لا يصرخ بأكثر مما ينبغي.

بعد أن توقف الضرب، أعادوه إلى الزنزانة. كان يشعر بألم في كل جزء من جسده. لكن ما آلمه أكثر حينها هو أصوات رفاقه الذين كانوا يعذبون في الزنازين المجاورة. كان يسمع أخاه محمود والرفيق عدنان نفيسة وهما يصرخان من الألم.

بعد أيام، رأى عدنان خارج الزنزانة للمرة الأولى. كان وجهه متجعداً من شدة التعذيب، ولحيته أشعث، وبدا كشبح هزيل. كان الطبيب العسكري يخيط جرحاً في رأسه، بينما كان جندي آخر يضربه.

لم يستطع رياض احتمال المنظر. استدار ووجه وجهه إلى الجدار، وأغمض عينيه، لكنه لم يستطع إغلاق أذنيه.

الفصل التاسع: خطة الهروب

بعد أسابيع من الاعتقال، نُقل رياض إلى زنزانة جماعية، حيث التقى ببقية رفاقه الذين اعتقلوا قبله. كانوا نحو ثلاثة وعشرين شاباً، جميعهم أعضاء في الطليعة، يعرف بعضهم بعضاً.

في الزنزانة الجماعية، بدأوا يخططون بطريقة سرية جداً للهروب. كلما سنحت الفرصة، كانوا يتهامسون حول كيفية الخروج من هذا السجن الذي كان محكماً بكل المقاييس.

كان بطل هذه الخطة هو رجل كانوا يسمونه "أبو مصعب"، المعروف بشجاعته ودهائه. كان أبو مصعب قد حاول الهروب مراراً من زنازين فردية، وكان دائماً هو من يبحث عن أي حفرة أو قرميد أو قضيب حديد ليستخدمه في فتح ثغرة.

ذات يوم، بينما كان رفيقهم **أبو سطيف**)وهو الاسم الحركي لأكرم زينو) في الحمام، رفع رأسه إلى سقف الحمام الذي كان مكشوفاً جزئياً، فرأى كومة من بقايا البناء: نشارة خشب، وقطع زجاج، وقطعة منشار حديد قديم ميت الصدأ. كما وجد شراب سعلة فارغاً، ودجاجة خشبية، وقطعة خشب صغيرة.

أخفى أبو سطيف هذه الأدوات بعناية، وأنزلها إلى داخل الزنزانة. ثم أبلغ أبا مصعب بما وجد.

كان السجن عبارة عن مبنى ذي سقفين. السقف الأول كان مجوفاً، وبه فتحات تهوية يمكن للشخص النحيف أن يمر منها. وكان السقف الثاني – الأعلى – هو المغطى بالبلاط. الوصول إلى السقف الثاني كان يعني الوصول إلى جدار السجن الخارجي، الذي كان يعلوه سياج من الحديد المشبك. إذا استطاعوا قطع تلك القضبان، فسيهربون إلى الحرية.

صمم أبو مصعب خطة ثلاثية الأبعاد، كانت بكل المقاييس عملاً عبقرياً. كان سينشر القضبان الحديدية بمنشارهم البدائي، ويتسلق أحدهم إلى الأعلى، ثم يفتح الباب الرئيسي للزنزانة من الداخل، ثم يخرج الجميع إلى رحبة السجن، حيث تتوقف السيارات العسكرية.

كان التحدي الأكبر يكمن في إقناع جميع المعتقلين بالهروب. كان بعضهم خائفاً من الفشل، بل إن واحداً منهم كان "ناصحاً" – أي متعاوناً مع السجانين – وقد شكوا فيه كثيراً.

ومع ذلك، استطاعوا إقناع الأغلبية. كانوا يصعدون بين الحين والآخر عبر فتحات التهوية إلى السقف الأول، ويقضون الليل في نقب القضبان الحديدية باستخدام النصل الصدئ.

استغرق قطع أول قضيب عدة أيام. وعندما سمعوا صوت سقوطه – وهم يغطونه بالتراب والغبار – فرحوا كثيراً.

واستمر العمل ليلاً، بينما يكون الحراس في حالة استرخاء، وباقي المعتقلين الذين رفضوا الهروب نيام.

الفصل العاشر: ليلة التنفيذ

في ليلة صيفية حارة من عام ألفين وأربعة وثمانين، بعد منتصف الليل بساعتين تقريباً، كان الجميع مستعدين. كانوا قد قطعوا بالفعل سبعة قضبان حديدية من الجدار الخارجي، وأزاحوها بحيث تظل ثابتة في مكانها حتى اللحظة المناسبة.

اتفقوا على أن يخرج أولاً أنحف السجناء وأكثرهم مرونة – ومنهم أبو مصعب نفسه – ثم يساعدون الآخرين واحداً واحداً.

وقبل ساعة من التنفيذ، أشاروا إلى بعضهم: لقد حان الوقت. تسلق أول ثلاثة إلى السقف، وتسللوا عبر الفتحة الضيقة، ثم انزلقوا إلى الساحة. ومن هناك، اتجهوا إلى الباب الرئيسي.

لكن الكمين الذي خططوا له لم يأت بالسهولة المتوقعة. كان عليهم الآن مواجهة حراس السجن الذين كانوا نياماً.

اقتحم أبو مصعب غرفة الحراس على حين غرة، وصرخ: "لا أحد يتحرك! إيديك فوق راسك"!

لكن أحد الحراس كان قد أيقظ زملائه، ووصلت أنباء الهروب إلى قائد الفرع.

عندها، أطلق الحراس النار في الهواء، واندلعت حالة من الفوضى.
وكان على السجناء الآخرين – وكان عددهم لا يزال في الزنزانة – الخروج بأسرع وقت. كان بعضهم يضغط على صدورهم ليتسعوا في الفتحة، يساعدهم آخرون من فوق.
في الزنزانة، بقي واحد فقط من السجناء لم يستطع الخروج: رجل بدين، يُدعى أبو عبده الحلبي. كان قد يئس، وقال لرفاقه: "اطلعوا أنتم. اتركوني. أنا راح أضل هون، يكفي إنكم أنجيتوا." لكن أصر زملاؤه على إخراجه. تشكل طاقم من الرجال: واحد حمل على ظهره، والثاني يسحب لحمه، والثالث يدفع من الأسفل. تألم كثيراً، ولكنهم نجحوا في إخراجه.
وبالتالي، تمكن جميع المعتقلين – وكانوا نحو خمسة عشر رجلاً – من الخروج من الزنزانة إلى الساحة.
الآن، كانوا في العراء. وبينهم وبين الحرية سور وحراس وأبواب حديدية كبيرة.

الفصل الحادي عشر: الاقتحام

بعد النزول إلى الساحة، اكتشفوا وجود خيمة صغيرة وسط المكان، وفيها كان ينام اثنان من الحراس. كان هناك أيضاً ضوء خافت يشير إلى وجود شخص آخر قريب.
تربص أبو مصعب ورفاقه خلف السيارات العسكرية المركونة في الساحة. وفجأة، ظهر أمامهم جندي يحمل بندقية روسية وصرخ: "شو في؟ شو هالصوت؟ مين هون؟"
فكر أحد السجناء أن يقول: "نحن السجناء. سنخرج" لكنه تراجع عندما رأى الجندي يرفع بندقيته.
عرفوا أن لا مجال للتراجع. انقضوا عليه كالأسود، وأمسكوا بسلاحه وكموه.
بعد لحظات، ظهر جندي آخر من الخيمة، ثم ثالث.
أمسك رياض بأحد الحراس من عنقه، بينما كان أبو مصعب يهدد آخر بالمسدس الخشبي الذي هو مجرد قطعة من الخشب والورق، لكنها بدت حقيقية في الظلام.
بهذه الطريقة، تمكنوا من تحييد الحراس بشكل شبه سلمي، وسلبوا أسلحتهم.

ثم وجهوا حرابهم نحو الباب الرئيسي للسجن.

كان الباب الرئيسي كبيراً ثقيلاً، مصفحاً بحديد. تجمعوا خلفه، وصلوا، كبروا، ثم اقتحموه بقوة، فانفتح الباب على مصراعيه.

كانوا الآن في الشارع العام، خارج أسوار السجن. كانت الحرية أمامهم، لكنها ما زالت بعيدة.

الفصل الثاني عشر: الهروب عبر الحدود

عبروا الحقول والحدائق التابعة للسجن، وتسلقوا جداراً آخر يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار، ووجدوا أنفسهم على طريق رئيسي- يربط بين قريتين. كان الطريق معبداً، وخالياً من السيارات في ذلك الوقت المتأخر.

ركضوا لمسافة كيلومتر تقريباً، ثم أوقفوا سيارة مدنية كانت تسير في اتجاه بعيد. قالوا للسائق: "نحن مسافرون، نحتاج إلى توصيلة. لا تخف، نحن بشر مثلك، ولن نؤذيك".

كان السائق طياراً يعمل في المطار المدني القريب. كان خائفاً جداً، وارتعشت يداه. لكنه لم يستطع رفض طلباتهم.

ركبوا السيارة – وكانوا أكثر من عشرة – في صعوبة بالغة.

بعد مسيرة قصيرة، نزلوا جميعاً وشكروا السائق، واتجهوا عبر الحقول إلى الحدود السورية الأردنية.

مشوا لساعات، حفاة الأقدام أحياناً، يتسلقون التلال، ويجتازون الأودية. كان القمر يضيء لهم الطريق، وكانوا يرددون الأدعية والتهاليل.

قبل الفجر بوقت قصير، وصلوا إلى الشريط الحدودي. كانت هناك أسلاك شائكة وألغام أرضية. كانوا بحاجة إلى الحذر الشديد.

فكروا في كيفية عبور الحقل الملغوم. أحدهم اقترح أن يسيروا خلف بعضهم البعض، وخطواتهم في نفس الأثر.

قال قائدهم: "أنا سأمشي أولاً. تبعوني على مسافة. إذا سمعتم صوت انفجار، فاعلموا أني مت، وعليكم أن تغيروا الاتجاه".

تقدم ببطء، محاولاً تفادي أي شيء يشبه لغم. وفجأة، سمع صوتاً خفيفاً تحت قدمه. توقف لحظة، لكنه لم ينفجر. تابع المشي حتى عبر إلى الجانب الآخر.

تبعه الآخرون واحداً تلو الآخر، حتى عبروا الحقل بأكمله بسلام.

وصلوا إلى شريط الأسلاك الثاني. هنا، انتظروا حتى يشرق الفجر قليلاً ليروا الأفق، ثم قطعوا الأسلاك بقواطع الحديد التي كانوا قد سرقوها من السجن.

عبروا الخط الحدودي ودخلوا الأراضي الأردنية.

الفصل الثالث عشر: اللجوء إلى الأردن

كانت فرحةهم لا توصف. منهم من بكى، ومنهم من كبر وهلل، ومنهم من سجد على الأرض شكراً لله.

لكن الفرحة لم تدم طويلاً. سرعان ما شاهدوا سيارة عسكرية أردنية تقترب منهم، يركبها جنود حرس الحدود.

سألهم الجندي: "من أنتم؟ كيف عبرتم الحدود؟"

قالوا بصراحة: "نحن سجناء هاربون من سوريا. نطلب اللجوء".

استغرب الجندي، ثم قال: "ليس لدي تعليمات بشأنكم. سلموا أسلحتكم أولاً".

كان هذا أصعب طلب بالنسبة لرياض. أن يتخلى عن سلاحه الذي كان يمثل له رمزاً للمقاومة والكرامة كان بمثابة قطع ذراعه.

لكن أبو مصعب، الذي كان أكثرهم عقلانية، قال: "يا جماعة، نحن الآن في أرض آمنة، لا نحتاج أسلحة. سلموها".

دفعوا أسلحتهم للجنود، وصعدوا في سيارات عسكرية أردنية توجهت بهم إلى مركز للمخابرات الأردنية.

في المركز، قوبلوا بحفاوة طيبة. قدموا لهم الطعام والشراب والملابس النظيفة، واستمعوا لقصتهم.

أثناء وجودهم هناك، فوجئوا بتحرك دوريات سورية على الجانب الآخر من الحدود، تبحث عنهم. طلب الأردنيون من السوريين تسليمهم، لكن المسؤول الأردني رفض بشدة.

قال لرياض ورفاقه: "أنتم الآن في حماية الأردن. لن يسلمكم أحد".

بعد أيام، نُقلوا إلى عمان، وأودعوا في مركز لإيواء اللاجئين. كان عليهم التوقيع على تعهد بعدم مغادرة الأردن، ومنعوا من الاتصال بأي جهة إعلامية أو سياسية.

بقوا في الأردن خمسة أشهر، محتجزين في حالة "ضيافة" أشبه بالإقامة الجبرية. كانوا يخرجون بين الحين والآخر إلى غرفة الضابط لشرب الشاي وتصفح الصحف، لكنهم لم يكونوا أحراراً.

حاولوا الاتصال بالصليب الأحمر الدولي لإبلاغهم بوضعهم، لكن الأردنيين اكتشفوا أمرهم وغضبوا.

وبعد ضغوط، أفرج عنهم بشرط مغادرة الأردن إلى دولة أخرى.

الفصل الرابع عشر: باكستان وأفغانستان

عرض عليهم الأردنيون السفر إلى باكستان، وكانوا قد تواصلوا مع جماعة "حكمتيار" الأفغانية التي تقبل استقبالهم.

كانت باكستان بلداً غريباً لرياض. لم يفهم لغتهم، ولم يعرف عاداتهم، ولم يأنس بمجتمعهم. لكن كان عليه أن يتأقلم.

بعد أسابيع، سافر إلى أفغانستان مع بعض رفاقه، حيث التحقوا بجماعات المقاومة ضد الاحتلال السوفيتي. هناك، تدربوا على استخدام السلاح الثقيل، وخاضوا معارك ضد قوات الجيش الأحمر.

لكن رياض لم يجد في أفغانستان ما كان يبحث عنه. كان يشعر بالغربة، وكان يشتاق إلى أهله وإخوته.

في أفغانستان، التقى بشخص كان له تأثير كبير عليه: "أبو زياد" الإدلبي، رفيقه القديم. أبو زياد كان قد سبقه إلى أفغانستان بخمس سنوات، وكان قد استشهد هناك في مزار شريف مع أحمد شاه مسعود.

حزن رياض لسماع خبر استشهاده، لكنه كان يشعر بالحسد أيضاً. لقد نال ما كان يتمناه – الموت في سبيل الله.

بعد سبعة أشهر في أفغانستان، سئم رياض من الحياة هناك. قرر السفر إلى تركيا لرؤية والدته العجوز، التي لم يرها منذ سنوات.

سافر إلى تركيا عبر إيران (بطريقة غير شرعية)، ووصل إلى اسطنبول. هناك، استقبله أصدقاء قدامى، وأخذوه إلى مدينة الريحانية حيث كانت تعيش والدته.

الفصل الخامس عشر: لقاء مؤلم

عندما رأت والدته رياض بعد غياب طويل، لم تصدق عينيها. كانت تعتقد أنه قتل مثل إخوته. بكيا طويلاً، وتذكرا مآسي الماضي.

قالت له والدته: "أين كنت كل هذه السنون؟ ظننتك ميتاً".

قال رياض: "كنت في الطريق. طريق طويل لم ينته بعد".

طلب منه أصدقاؤه في تركيا البقاء، لكنه رفض. كان لا يزال يشعر بالذنب لعدم مشاركته في معارك التحرير الأولى. كان لا يزال يحلم بالعودة إلى سوريا لمواصلة القتال.

وبالفعل، عاد إلى تركيا، وخطط للدخول إلى سوريا عبر الحدود. كان على وشك أن ينطلق مع مجموعة جديدة، عندما تلقى خبراً مروعاً.

أخوه بشير، الذي كان لا يزال في العراق، قد تم تسليمه إلى السلطات السورية. أُدخل سجن حلب المركزي، وحاول الهرب، لكنه استشهد أثناء محاولته.

سمع رياض الخبر بصمت. لم يبكِ أمام أحد، لكنه بكى في قلبه طويلاً. كان يشعر بأن فشله في حماية إخوته كان أكبر خطيئة في حياته.

قرر عندها ألا يعود إلى سوريا. سافر إلى سويسرا طالباً اللجوء. وهناك، استقر به المقام، وتزوج، وأنجب أطفالاً، وعاش سنواته الأخيرة في سلام نسبي.

لكن قلبه ظل معلقاً بسوريا، بأهلها، بدمائهم. ظل ينتظر اليوم الذي يسقط فيه نظام الأسد، ليتمكن من العودة وزيارة قبور إخوته، ولو مرة واحدة.

الفصل السادس عشر: سقوط الطاغية

في صباح الثامن من كانون الأول عام ألفين وأربعة وعشرين، استيقظ رياض على خبر صدم العالم: حلب سقطت بيد المعارضة. ثم تداعى الخبر: دمشق سقطت. الأسد هرب. نظام البعث انتهى بعد ستة عقود من الحكم.

جلس رياض أمام التلفاز، يشاهد الصور التي كانت أشبه بالحلم. رأى قصور الأسد التي نهبت، وتماثيل حافظ التي هدمت، والجيش السوري الجديد الذي يدخل القصر الجمهوري. رأى سورية تتحرر أمام عينيه، وهو بعيد عنها، لا يستطيع المشاركة.

ضاق صدره. شعر بأنه غُبن في هذه اللحظة الفارقة. لكن زوجته – التي كانت تشاركه حياته منذ خمسة عشر عاماً – وقفت بجانبه، ووضعت يدها على كتفه، وقالت بصوت هادئ: "لست وحدك يا رياض. كل الذين ضحوا هم معك. إخوتك معك. ذكراهم معك. سوريا لن تنساكم".

دمعت عيناه، ولكنه استجمع قواه. صافحها، ثم اتصل بأصدقائه القدامى الذين كانوا في سوريا الآن، وطلب منهم إرسال صور لقبر أخيه وليد. عندما وصلته الصور، جلس أمامها ساعات، يقرأ الفاتحة، ويبكي بحرقة.

لقد تحقق حلمه أخيراً. النظام الذي طارده أربعين سنة قد سقط. لكن الثمن كان غالياً: إخوته الثلاثة، وأبناء عمومته، ورفاق دربه، وجزء من شبابه، وكثير من أحلامه.

في تلك الليلة، كتب في مذكرته الشخصية: "سوريا حرة. اللهم لك الحمد. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. أسألك أن تتقبل شهداءنا، وأن تحمي بلدنا من كل سوء. وأن تمنحني فرصة العودة قبل أن أموت".

خاتمة: حلم بعيد

بعد ثلاثة أشهر من سقوط النظام، حجز رياض تذكرة طائرة إلى دمشق. لم يخبر أحداً بموعد وصوله، لا أهله ولا أصدقاءه. أراد أن يعود من حيث بدأ: وحيداً، خائفاً، لكنه مصمم.

نزل من الطائرة في مطار دمشق الدولي، الذي ما زالت جدرانه تحمل آثار المعارك. كان المطار مزدحماً بالعائدين مثله، كلهم يحملون في قلوبهم قصصاً لا تنسى.

في قاعة الوصول، توقف لحظة، وأغمض عينيه، وتنفس بعمق. كانت رائحة دمشق – رائحة الياسمين والتراب والهواء العتيق – تملأ وجدانه.

ثم فتح عينيه، وبدأ يبحث عن سيارة أجرة تقله إلى حلب.

حلب، مدينته التي غادرها طفلاً وعاد إليها شيخاً. حلب التي بقيت حلماً يطارده كل ليلة.

سوف يزور قبر والدته أولاً، ثم قبور إخوته. سوف يبكي، ويصلي، ويقرأ الفاتحة. سوف يلتقي بمن تبقى من رفاق دربه. سوف يقف في ساحة العاصي ويتأمل النواعير التي طالما تغنى بها الشعراء.

ثم سوف يعود إلى سويسرا، ليحكي لأطفاله حكاية وطن عانى كثيراً، لكنه في النهاية انتصر.

سويسرا – سوريا

كانون الثاني ٢٠٢٥

العائد من صيدنايا

سقوط النظام

يوم الأحد، 8 ديسمبر 2024

صوت الطائرة المروحية

سقوط النظام

[صوت طائرة مروحية يقترب...]

العائد من صيدنايا

الفصل الأول: الخيط الرفيع بين الحياة والموت

لم يكن "أبو عناد" يدري، وهو واقفٌ عند شباك المهجع الصغير ذاك، أن اللحظة التي انتظرها خمس سنين ونصفاً تقترب منه في صمت. كانت أصابعه تلتصق بالصاج البارد، وأذنه ترصد كل صوت يأتي من الخارج، من وراء ذلك الباب الحديدي الثقيل الذي يفصل عالم الموت عن عالم... لا يدري إن كان ما زال حياً هناك، في الخارج.

في سجن صيدنايا، لا تُقاس الحياة بالسنين ولا بالأيام. تقاس بدقات القلب التي تتسارع حين يمر الدكتور "لجين صقر" في الممر، تقاس بعدد المرات التي تسمع فيها صوت الجنزير يُجر على البلاط، تقاس بكمية الألم التي يستطيع جسدك احتمالها قبل أن يقرر التوقف. كان "أبو عناد" قد تجاوز كل الحدود التي ظنها ممكنة.

في زنزانته، كان كل شيء يحمل طعم الموت. الأرضية البلاط التي حفظ نقشها عن ظهر قلب من فرط ما سجد عليها محاولاً إخفاء وجهه عن الكاميرا. الجدران الصاج التي تسرب البرد حتى النخاع في ليالي صيدنايا الجبلية. الشباك الصغير الذي لا يفتح إلا على ممرٍ معتم، وعلى أصوات خطوات قد تكون خطوات حارس يأتي بالطعام، أو خطوات من يأخذ أحدهم إلى حيث لا عودة.

"يا أبو عناد... تعال اسمع"...

كان "علاء قشيشة" - رفيقه في الزنزانة والذي أصبح أشبه بظله - يهمس من ناحية الباب. كان شاباً من الغوطة، لم يتجاوز الخامسة والعشرين حين دخل، لكن نظراته كانت تحمل حكمة الشيوخ وثقل السنين. اقترب أبو عناد، وقد انتبهت أذناه إلى شيء غير عادي في أصوات السجن. كان السجن يضج بصوت مختلف، ليس صوت الضرب المعتاد، ولا صوت الصراخ. كان هناك... صمت؟ لا، بل صوت حركة، همهمات، خطوات سريعة غير منظمة.

"صار شي..." همس أبو عناد.

في الخارج، في عالم ما وراء الجدران، كان هناك أمل يتسلل. كان سقوط النظام يقترب من أبواب السجن مثل مدٍ لا يُرد. لكن أبو عناد لم يكن يعرف. كل ما كان يعرفه أنه في ذلك الصباح، جاء الغداء مبكراً، في الثانية عشرة ظهراً بدلاً من الثانية والنصف. أن الحراس كانوا مهمومين، شاردة أذهانهم، لا يصرخون بالشتائم المعتادة. أن شيئاً ما، شيئاً كبيراً، كان يحدث.

لم يكن يدري أن لحظة الحرية تقترب.

لم تبدأ قصة "خالد عمر البرتقالي" - الاسم الحقيقي لأبي عناد - في صيدنايا. بدأت قبل ذلك بسنوات، في ذلك اليوم المشؤوم من عام ٢٠١٠، حين كان لا يزال جندياً في الجيش، يخدم في أحد المعسكرات، ويحلم بأن تنتهي خدمته ليعود إلى أمه وأبيه وابنه الذي لم يره بعد.

في ذلك الوقت، كان لا يزال "خالداً" فقط، دون كنية، دون لقب. كان شاباً في العشرين من عمره، من درعا، من بلدة صغيرة تتنفس الزراعة والهدوء. لكن الهدوء كان خادعاً، مثل مياه راكدة تخفي تحتها تيارات عميقة من الفساد.

"يا خالد... بدنا مصاري. بدون مصاري ما رح تطلع إجازة".

كان ذلك أول درس في مدرسة الظلم. ضباط كبار، برتب عميد وعقيد ورائد ومساعد. كانوا يطلبون الرشوة بلا خجل، بلا تردد، كأنها حق مكتسب، كأن الجندي ليس بشرياً بل آلة لإدرار المال عليهم. وحين رفض خالد أن يدفع، حين قال إنه لا يملك مالاً ليعطيهم، كانت عقوبتهم جاهزة: إجازة مزورة، وبلاغ فرار، وبطاقة بحث.

أتت الشرطة العسكرية في إجازته. قيّدوه واقتادوه إلى سجن تدمر العسكري. هناك، في ذلك السجن الصحراوي النائي، حيث تذرو الرياح الرمال على جدران يبدو أنها تقف على حافة العالم، عرف خالد المعنى الحقيقي للظلم.

كان أول يوم في تدمر هو الأصعب. ليس بسبب الضرب، رغم أن الضرب كان حاضراً منذ اللحظة الأولى، بل بسبب... "الترحيب". كان هذا ما يسمونه إياه: مئة جلدة، مئة وخمسون، على الظهر، على باطن القدمين، على كل جزء من الجسد يمكن للألم أن ينفذ منه. كان هذا الترحيب الذي يُستقبل به كل سجين جديد، كي "يعرف قدره"، وكي "يتعلم أن يمشي حسب القانون"، القانون الذي يعني كلمة واحدة فقط: الانصياع.

في تدمر، كانت هناك تلك الزنازين التي يسمونها "قسطل"، المحفورة تحت الأرض، حيث يضعون رأس السجين في برميل ماء ملوث، ويغلقون عليه، ويتركونه هناك حتى يشرف على الموت، ثم يسألون أهله لاحقاً: "زلق بالحمام ووقع على راسه". كان هذا هو النظام. هذا هو القانون.

خرج خالد من تدمر في الثاني والعشرين من فبراير ٢٠١١. خرج ورأى الشمس لأول مرة منذ سنة كاملة. خرج وقبّل يدي أمه التي لم يرها طوال عام، ووجد أن أخاه قد كبر، وأن جاره قد شاخ، وأن العالم تحرك بدونه. لكن شيئاً ما كان قد تغير فيه. شيء ما كان قد كسر، أو ربما... استيقظ.

بعد عام من خروجه، انشق عن الجيش. لم يعد يستطيع أن يكون جزءاً من آلة تطحن البشر. لم يعد يستطيع أن ينظر في عيون ضباط يطلبون الرشوة ويسحقون الضعفاء. وفي عام ٢٠١٢، التحق بالجيش الحر.

هناك، في المنطقة الجنوبية، في درعا، حمل خالد السلاح. لم يحمله لأنه يحب القتال، بل لأنه رأى أن لا خيار آخر. قاتل في تل الحارة، في معارك اللواء ٥٢، شارك في تحرير سجن الغرز، وفي اقتحام معبر جمرك نصيب. رأى الموت مرة أخرى، لكن هذه المرة كان واقفاً على قدميه، موجهاً سلاحه نحو أعدائه، لا مكبلاً ملقى في زنزانة.

"هذا تقريرك عندنا. أنت منضم للجيش الحر، وشاركت بمعارك، وقتلت"...

كان كمين عام ٢٠١٩ هو النهاية. أتى الأمن العسكري بقيادة مساعد يدعى "أبو حيدر" - رجل من دير الزور، مسؤول الدراسات في البلدة - ونصبوا كميناً عند البلدية. اقتادوه إلى فرع الأمن العسكري في الصالمين.

هناك، بدأت المرحلة الثانية من الجحيم.

"شلح ثيابك. ربي كما خلقتك".

كان هذا هو الاستقبال. في غرفة التحقيق، وقف خالد عارياً أمام محققيه، بينما بدأ "أبو حيدر" يضربه بالهراوة بلا توقف. ساعة كاملة من الضرب المتواصل. أسئلة عن الداعمين، عن مصادر السلاح، عن المعارك، عن الإحداثيات. وخالد يصر على إجابته: "ما بعرف شيء. أنا حاط ببالي يوم يومين وبروح على بيتي".

لكنه لم يذهب إلى بيته بعد يومين. ذهب إلى فرع درعا الرئيسي، إلى المحقق "لؤي علي". وهناك، تغيرت قواعد اللعبة.

كان المحقق مختلفاً. لم يبدأ بالضرب، بل بالأرجيلة. طلب من خالد أن يضع له الفحم على الغاز، ثم أجلسه على الأرض، وبدأ يقرأ له ملفه. وهناك، اكتشف خالد حقيقة مرعبة: شخص من بلدته، رجل في الأربعين أو الخمسين، اعتُقل واعترف عليه. اعترف أن خالداً كان في الجيش الحر. ليس هذا فقط، بل أضاف إلى اعترافه ما لم يفعله خالد قط: القتل، الانضمام لفصائل إسلامية، التعامل مع دول خارجية.

"هون ما رح تطلع إلا إذا اعترفت. شايف الشباك هاد؟ أكثر واحد تحمل عليه ساعتين. بدي أشوفك قديش بتتحمل".

شبكوا يديه خلف ظهره وعلقوه على الشباك الحديدي. بدأ الضرب مرة أخرى، لكن بشكل مختلف. هذه المرة لم يكن "أبو حيدر" هو من يضرب. كان هناك من يسمونه "الخضر الإبراهيمي" أو "قسطة الخضر". ضرب على الرأس، على اليدين، على القدمين، في كل مكان يمكن للعظام أن تنكسر فيه.

وهناك، تحت الألم الذي لا يوصف، اعترف خالد. اعترف أنه انشق، أنه حمل البارودة، أنه قاتل. لكنه رفض أن يعترف بما لم يفعله. رفض أن يقول إنه قتل. لكن اعترافه كان قد شُوه، زُور، أضيفت إليه تفاصيل لم يقلها قط.

بعد ثمانية أيام في فرع درعا، نُقل إلى فرع فلسطين في دمشق. وهناك، بدأ فصل جديد من فصول العذاب.

في فرع فلسطين، كانت الزنزانة الانفرادية هي البداية. عشرة أيام في زنزانة صغيرة، معتمة، بلا سؤال ولا تحقيق. فقط الأكل يأتي ويذهب، والحراس يدخلون ويخرجون. عشرة أيام يشعر فيها الإنسان أنه قد اختفى عن وجه الأرض، أن لا أحد يعرف أين هو، أن العالم نسيه.

ثم جاء التحقيق. كان مختلفاً هذه المرة. المحقق كان يضع كيساً أسود على رأسه وهو يضربه، فلا يراه. أسئلة عن تقارير قادمة من فرع درعا، عن اعترافات لم يقلها، عن جرائم لم يرتكبها.

"أنت بالتقارير قاتل. أنت منضم لفصائل إسلامية. أنت عميل للأردن".

"أنا معترف إني عسكري منشق. بس ما قتلت".

"لا، أنت معترف. هيك جايتنا اعترافاتك من فرع درعا".

ظل خالد في فرع فلسطين سنة ونصف. سنة ونصف من التحقيقات المتقطعة، من الضرب المتجدد كلما استدعوه، من العزلة والبرد والجوع. وفي النهاية، جاء القرار: المحكمة الميدانية.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها الشمس منذ سنة ونصف حين خرج من زنزانته في فرع فلسطين. كانت شمساً خجولة، تختبئ وراء الغيوم، لكنها كانت شمساً حقيقية. صعد إلى

الباص مع عشرين سجيناً آخرين، مكبلي الأيدي، مطمشي الأعين، لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون.

"وين رايحين؟" سأل أحدهم.

"على سجن صيدنايا الأحمر. الميداني".

كانت تلك الكلمات كافية ليسود الصمت في الباص. صيدنايا الأحمر. الاسم الذي يخيف حتى الحراس أنفسهم. معروف عنه القتل، التعذيب، الإعدامات. معروف أن من يدخله لا يخرج منه. معروف أن زيارة الأهل له تكون مرة واحدة، وبعدها لا يعود الأهل ليسألوا عن أبنائهم.

في الطريق، مروا بمكان ما، في المربع الأمني. غرفتان مسبقتا الصنع. وفي الداخل، رجل برتبة عميد، كانوا يسمونه القاضي الميداني. لم يروا وجهه. كانوا مطمشي الأعين. كل ما سمعوه كان صوتاً يسأل عن الاسم، وعن مكان السكن. لا أسئلة عن التهم، لا دفاع، لا محامٍ، لا قانون. فقط اسم، وبلدة، ثم: "برّا".

"هيك القاضي الميداني. ضبارتك مختومة بالختم الأحمر. حكمك جاي من الأمن القومي، من عند علي مملوك. إنت خلصت".

كانت هذه هي الحقيقة. لا محاكمة. لا عدالة. فقط قرار صادر من جهة ما، في مكان ما، دون أن يروا وجهاً أو يسمعوا حكماً. لا يعرفون إن كان حكماً بالإعدام أم بالمؤبد أم بشيء آخر. سيعرفون لاحقاً، بطريقة أو بأخرى، ربما حين يأتي دورهم في الإعدام، وربما... لا يعرفون أبداً.

كان استقبال سجن صيدنايا الأحمر فصلاً من الرعب المكثف. على الباب، كان في استقبالهم الدكتور "لجين صقر"، طبيب السجن، وملازم كانوا ينادونه بـ"أبو يعقوب". وقف الدكتور أمامهم، وفي عينيه تلك النظرة الباردة التي اشتهر بها في كل أرجاء السجن.

"إنتو هون نسيتوا الدنيا برّا. أنا اللي بعيشكم، وأنا اللي بخليكم تموتوا. حياتكم مربوطة بإيدي. بتمشوا حسب التعليمات".

ثم جاء الأمر الأول: "شلحوا ثيابكم".

وقف عشرون رجلاً عراة أمام طبيب يتفحصهم وكأنهم قطع ماشية لا بشر. كان الدكتور يبحث عن شيء، أي شيء: عمليات سابقة، إصابات، علامات فارقة. كان يختبرهم، يدفعهم إلى حافة الذل كي يعرف من منهم يمكن كسره بسرعة.

ثم جاءت الزنازين الانفرادية. ليست كزنازين الأفرع التي عرفها خالد من قبل. هذه كانت أضيق، أكثر قذارة. سماكة الفرش لا تتجاوز خمسة سنتيمترات. أربعة أشخاص في زنزانة صغيرة، عراة، بلا أغطية. الأكل: حبتا زيتون وربع رغيف خبز في أربع وعشرين ساعة. والماء... الماء هو الحياة، وهو هنا أندر من الحياة نفسها.

"كنت أسمع صوت الابرة وهي تز..." كان السجناء يهمسون لبعضهم عن "منهل سليمان"، أحد مسؤولي السجن. "إذا قال اقطع الصوت، يز الابرة، بصير يسمع صوت الابرة وهي تز. وبعدها... بيعرف شو بصير".

أحد عشر. يوماً قضاها خالد في الزنزانة الانفرادية. أحد عشر. يوماً من البرد القارس في صيدنايا الجبلية، بلا أغطية كافية، بلا طعام يكفي، بلا ماء يروي. أحد عشر. يوماً تعلم فيها أن الإنسان يمكنه أن يعيش بأقل مما يتصور، وأن الأمل يمكن أن ينكمش حتى يصبح بحجم حبة الزيتون التي يأكلها.

بعدها، نُقل إلى المهجع. المهجع كان في الكتلة السادسة، في الطابق الثاني. هناك، كان العالم مختلفاً قليلاً. كان هناك بشر. آخرون، رفاق في المصير نفسه. كان هناك من يشاركه الألم، ومن يمكن أن يهمس إليه في الليل، حين يكون الحراس نياماً أو مشغولين بضرب شخص آخر.

وهناك، في ذلك المهجع الذي يتسع لخمسة وعشرين شخصاً، تعلم خالد درساً جديداً: التضامن. كان السجناء يتقاسمون كل شيء. الطعام القليل، الماء الأقل، الدفء المعدوم.

كانوا يتناوبون على النوم قرب الجدران الأقل برودة، ويتناوبون على السهر لمراقبة الحراس، ويتقاسمون حتى السعال، حتى المرض.

"هون إحنا إخوة. خلص. مصيرنا واحد. إذا متنا، متنا سوا. وإذا طلعنا، طلعنا سوا".

كان هذا هو القانون غير المكتوب. في مكان صمم لسحق البشر، كان البشر يعيدون اكتشاف إنسانيتهم.

لكن الرعب كان يطل برأسه كل يوم. كان هناك الدكتور "لجين صقر" بجولاته الطبية المزعومة، يسأل عن المرضى، وينظر إلى السجناء وكأنه يختار ضحاياه. كان هناك "منهل سليمان" و"أبو يعقوب"، بأسمائهم التي تثير الرعب في قلوب الجميع. وكان هناك، في الليل، صوت الجنزير وهو يجر على البلاط، وصوت المنصة وهي تتحرك، وصوت بكاء من يعرفون أنهم في طريقهم إلى الإعدام.

الفصل الثاني: الحياة في الظل

لم تكن الحياة في المهجع حياةً بالمعنى الذي يعرفه البشر في الخارج. كانت شكلاً آخر من الوجود، وجوداً معلقاً بين الموت والحياة، حيث يتنفس المرء ويتحرك ويأكل، لكنه ليس حياً تماماً، وليس ميتاً تماماً. كان "خالد" قد سمع عن هذا المهجع من سجناء آخرين في الزنزانة الانفرادية، لكن ما رآه فاق كل وصف.

بعد أحد عشر يوماً من العزلة والبرد والعري، فُتح باب الزنزانة أخيراً. قادوه مع ثلاثة آخرين إلى حيث أطلقوا عليه اسم "المسدس والصالة". هناك، وسط صمت مطبق يقطعه فقط صرير الأقدام الحافية على البلاط البارد، شعروا لأول مرة أنهم بشر... أو هكذا ظنوا. حلقوا رؤوسهم ولحاهم بالشفرة ذاتها التي حلقت آلاف الرؤوس قبلهم. أعطوهم بدلات السجن بلونها القريب من الكريم، بلونها الذي يبدو كأنه امتص عرق السنين ودموعها ودماءها. ثم قادوهم إلى الكتلة السادسة، إلى المهجع رقم اثنين.

فتح الباب الحديدي، ودخل "خالد" إلى عالم جديد.

كان المهجع مستطيلاً، جدرانه من الصاج الذي يتسرب منه برد صيدنايا الجبلية كما يتسرب الماء من الغربال. الأرضية من البلاط البارد، والسقف من الإسمنت المسلح. في الداخل، كان هناك بشر. بشر حقيقيون، لا أشباح كما في الزنزانة الانفرادية. كانوا يجلسون أو يتمددون، بعضهم يغط في نوم متقطع، وبعضهم يحدق في الفراغ، وبعضهم يهمس لصاحبه بصوت لا يكاد يُسمع.

كان عددهم نحو خمسة وعشرين رجلاً، متكدسين في مساحة لا تكفي لعشرة. كانت رائحة العرق والمرض واليأس تملأ المكان، رائحة لا تزول أبداً، كأنها أصبحت جزءاً من الجدران نفسها.

"تفضل... هون".

أشار إليه شاب في مثل عمره تقريباً، بملامح هادئة وعينين بدا فيهما شيء من الحكمة رغم صغر سنه. كان من السويداء، وسيعرفه "خالد" لاحقاً باسم "راني ملاك". كان راني قد سبقه إلى المهجع بأسابيع، لكنه كان لا يزال يحتفظ بشيء نادر في ذلك المكان: ابتسامة خفيفة، متعبة، لكنها حقيقية.

"اسمي خالد... من درعا".

"أهلاً فيك. أنا راني. من السويداء. هون... هون راح تتعود. يعني، ما راح تتعود، بس راح... تتحمل".

جلس خالد إلى جانبه، وأسند ظهره إلى الجدار الصاج البارد. كان الجدار ينقل البرد إلى عظامه كما تنقل الأسلاك الكهرباء. كان الوقت شتاءً، وشتاء صيدنايا قارس لا يرحم. في الخارج، كانت الرياح تعصف بالجبال المحيطة، وتدخل من الشقوق الصغيرة كأنها أصابع الموت الباردة.

"شوف... هون الوضع غير عن الزنزانات." تابع راني بصوت خفيض، وهو يحرك شفتيه بصعوبة. "المشكلة مش بس الأكل والبرد. المشكلة إنه... إنت مش لوحدك. إنت مع ناس، والناس هون صاروا إخوة. وهذا أصعب. لأنه إذا مات واحد منا... بتموت معه شوية".

نظر خالد حوله. كان في زاوية المهجع رجل كبير في السن، ربما تجاوز الخمسين، بعينين غائرتين ولحية بيضاء طويلة. كان يجلس القرفصاء ويحرك شفتيه بصمت. "هذا أبو محمد." قال راني. "من درعا زيّك. هادا حكيمنا. لما تيجي تفقد الأمل، تعال احكي معه. بيرجعلك الأمل من تحت الأرض".

اقترب خالد من أبي محمد، الذي رفع إليه عينين هادئتين كأنهما بحر ساكن بعد عاصفة. قال أبو محمد بصوت عميق، فيه رنة الوقار: "يا ابني... أهلاً وسهلاً. ما تخفش. هون كلنا متل بعض. إحنا في قاع الجحيم، بس الجحيم هو كمان بيفوت. بدنا نصبر، وبدنا نضل بشر. أهون شيء إنك تموت، أصعب شيء إنك تعيش بكرامة. بس إحنا رح نعيش بكرامة... جوا قلبنا على الأقل".

كانت كلماته تمنح شيئاً من الدفء في ذلك البرد القارس. لكن خالداً لم يدرك بعد أن الجحيم الحقيقي لم يبدأ بعد.

في ذلك اليوم الأول في المهجع، واجه خالد وأصحابه الجدد أزمة أليمة. لم تكن أزمة ضرب أو تعذيب، بل أزمة أبسط من ذلك وأعمق: العطش.

لاحظ خالد أن شفاه الجميع متشققة، وأن عيونهم محمرة، وأنهم يتحركون ببطء شديد. سأل راني: "المي... في مي؟"

هز راني رأسه بحزن. "الخزان معطل من خمس أيام. يعني صار خمس أيام ما في مي. واحنا كمان جايين من الزنزانات الانفرادية، يعني أصلاً كنا بدون مي كفاية. صارلنا شي... عشرة أيام؟ أكتر شي شربناه شوية مي بسكره، وخلص".

كان الممنوع في صيدنايا أن تطلب الماء. كان الماء ترفاً، نعمة لا يستحقها أمثالهم. كان الشاويش - وهو سجين كُلّف بمسؤولية المهجع - يتعرض للضرب المبرح إذا تجرأ وطلب الماء في غير أوقاته. وفي المهجع الذي دخل إليه خالد، كان الشاويش رجلاً من حمص، من بلدة تلدو، اسمه "أبو أيوب."

كان أبو أيوب رجلاً في الأربعين، ضعيف الجسد، أنهكته المسؤولية. كان وجهه شاحباً، وعيناه تحملان قلقاً مزمناً. كان يعرف أن أي خطوة يقوم بها قد تؤدي إلى ضربه، وكان يعرف أيضاً أن الرجال في المهجع يموتون من العطش.

في اليوم الحادي عشر من انقطاع الماء - وكان خالد قد أمضى يومين في المهجع - لم يعد الوضع محتملاً. كانت شفاه الرجال قد تشققت حتى سالت منها الدماء. كان لسان خالد قد انتفخ في فمه، وكان رأسه يدور من الجفاف. كان بعض السجناء يلعقون الجدران الصاج بلسانهم علّهم يجدون قطرة ندى، لكن الجدران لم تكن تمنح شيئاً سوى الصدأ.

"والله... بدنا نشرب." همس أحد السجناء. كان صوته مبحوحاً، كأنه يخرج من بئر جاف.

نهض أبو أيوب. كان يعرف ما ينتظره، لكنه كان يعرف أيضاً أن سكوته يعني موت الجميع ببطء. قال بصوت منخفض: "يا جماعة... أنا راح أطلب مي. بس استحملوا اللي راح يصير".

اتجه إلى باب المهجع، وطرق عليه بأنامله برفق. طرق، ثم طرق مرة أخرى. من الخارج، جاء صوت غاضب: "شو بدك يا... يا عرصة المهجع؟"

كان هذا هو اللقب الذي يطلقه الحراس على الشاويش. ليس اسماً، بل إهانة دائمة تذكره بأنه أقل من دودة تحت أقدامهم.

"سيدي... بدنا شوية مي. الشباب عم بيموتوا من العطش. صارلنا أكتر من عشرة أيام"...

انفتح الباب بعنف، وظهر الحارس خلفه. كان رجلاً ضخماً، بعينين قاسيتين، وفي يده هراوة. قال بصوت يقطر سخرية: "مي؟ بدكم مي؟ طيب... حاضر".

ذهب الحارس، وعاد بعد دقائق حاملاً جاطاً كبيراً من الماء. كان الماء معكراً، لونه إلى السواد، كأنه أُخذ من مستنقع آسن لا من حنفية. وقف الحارس على الباب، ونظر إلى السجناء الذين تجمعوا بأعين متلهفة. ثم، دون سابق إنذار، ألقى الجاط على الأرض بقوة. انسكب الماء على البلاط القذر، واختلط بالغبار والأوساخ التي تراكمت طيلة أيام.

ثم رفع الحارس قدمه - بحذائه العسكري الثقيل - وداس على جاط الطعام الذي كان قد أحضره معه، وداس على بقايا الخبز والبرغل. كان يهرس الطعام تحت حذائه وكأنه يدوس على حشرات.

"تفضلوا... كلوا واشربوا".

وقف الجميع مذهولين. ثم انحنى أبو أيوب، وهو يرتجف، وبدأ يلتقط الطعام من تحت أقدام الحارس. لكن الحارس ركله ركلة أسقطته أرضاً. "تسطّح... تسطّح يا كلب"!

انبطح أبو أيوب على بطنه فوق البلاط الموحل بالماء القذر. أخذ الحارس جاط الماء - ما تبقى منه - وسكبه على ظهر أبي أيوب، والرجل يرتجف من الذل والبرد. ثم داس الحارس بقدمه على رأسه، وتركه هناك، وخرج وهو يضحك.

في تلك اللحظة، شعر خالد بشيء ينكسر في داخله. ليس الخوف، وليس الغضب. كان شيئاً أعمق: كبرياء الإنسان. رأى رجلاً في الأربعين يُذل بهذه الطريقة، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئاً. رأى زملاءه ينحنون بهدوء ويبدأون بلعق الماء من على البلاط بألسنتهم المتشققة، يشربون الماء المخلوط بالتراب، وكأنهم بهائم. رأى راني ملاك يقف بجانبه، والدموع في عينيه، يهمس: "بدك تشرب... بدك تعيش".

تقدم خالد، وركع على ركبتيه، وأخذ حفنة من الماء الموحل بيده. شرب. كان طعمه مثل الصدأ والدم والذل. شعر بكل قطرة منه تدخل جوفه وتحفر هناك مجرى للألم. لكنه شرب. وفي تلك اللحظة، أدرك أنه أصبح واحداً من هذا المكان. لم يعد خالداً الذي كان يعرف نفسه. كان قد أصبح شيئاً آخر.

ساعده راني على النهوض. كان وجه راني شاحباً، لكن عينيه كانتا تلمعان بشيء من التحدي. قال بصوت خافت: "هيك هون... بدك تتعلم تشرب من الأرض، وتاكل من الأرض. المهم تظل واقف على جريك. إذا وقعت... خلص".

كانت هذه هي الحياة في الظل. حياة من لا يراهم أحد، من لا يسمع عنهم أحد، من لا يعرف العالم إن كانوا لا يزالون أحياء أم صاروا مجرد أسماء في قوائم المفقودين.

في الأيام التالية، بدأ خالد يتعلم قوانين المكان غير المكتوبة. القانون الأول: لا ترفع عينك. كان على السجناء أن يضعوا أيديهم على عيونهم كلما خرجوا من المهجع، أو كلما دخل حارس. كان عليهم ألا يروا وجوه سجانينهم، وألا يعرفوا أسماءهم. لهذا، أطلق السجناء على الحراس أسماء مستعارة: "الداياصور"، و"جلينداير"، و"التريكس"، و"أبو رجل". أسماء من عالم الكرتون والأساطير، كأنهم بذلك يحولون الرعب إلى شيء يمكن السخرية منه، إلى شيء يمكن تحمله.

كان "أبو أيوب" قد أُعفي من الشاويشية بعد تلك الحادثة. لم يعد قادراً على النهوض. كان ظهره قد تقوس، وعيناه قد غارتا أكثر، وصوته أصبح همساً بالكاد يُسمع. كان يجلس في زاوية المهجع، صامتاً، يحدق في الحائط، لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم. كان يذوب، ببطء، أمام أعين الجميع.

وظهر في المهجع رجل جديد كُلف بالشاويشية. كان اسمه "أبو محمد"، ذاك الرجل الحكيم من درعا. كان في الخمسين من عمره تقريباً، لكنه كان صلباً، قوي الإرادة، واسع الصدر. قبل أن يصبح شاويشاً، كان مجرد سجين عادي. لكنه رأى أن أبا أيوب قد انكسر، وأن أحداً يجب أن يحمل العبء.

"أنا راح أقعد على الباب." قال أبو محمد ذات يوم بصوته الهادئ. "القتل اللي راح ينزّلوه علينا بدي أتحمله أنا. مشان الشباب الصغار ما ينسحقوا".

كان "علاء قشيشة"، الشاب من الغوطة الذي أتى مع خالد في نفس المجموعة، هو من تطوع ليكون معاوناً له. لكن أبا محمد كان يعرف أن الأمر يحتاج إلى أكثر من شخص. نظر إلى خالد بعينيه الحكيمتين وقال: "بدي مساعدة. بدي حدا يكون ظهري. إذا أنا مت، يكمل".

وهكذا، وجد خالد نفسه شاويشاً مساعداً، واقفاً على باب المهجع، يستقبل الضربات نيابة عن غيره. لكنه قبل. قبل لأنه رأى في أبي محمد شيئاً نادراً: أباً. أباً في مكان لا آباء فيه.

في الليالي، حين كان الحراس يخلدون إلى قيلولتهم، وحين كانت الكاميرات في زاوية من زوايا الغفلة، كان للمهجع حياة أخرى. حياة سرية، مخبأة، كجمرة تحت الرماد.

كان القرآن هو النور في ذلك الظلام. كان خالد قد حفظ أجزاءً منه قبل سجنه، لكنه هنا، في هذا القاع، اكتشف معنى آخر للآيات. لم تعد مجرد كلمات، بل صارت صلاة، صارت هواءً يتنفسه، صارت سلاحاً ضد اليأس.

"بسم الله الرحمن الرحيم. ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ"...

بدأ يحفظ سورة "ق". كان صعباً. فالتركيز مشتت، والخوف دائم، والكاميرات في كل مكان. لكن أبا محمد كان يساعده. كانا يجلسان متجاورين، يهمسان بالآيات، يخفيانها بين السعال، بين الأنفاس، بين دقات القلوب.

ولأن الكتابة ممنوعة، اخترع السجناء طريقتهم الخاصة. كانوا يأخذون الصابونة - إن وجدت - ويحفرون عليها الآيات بطرف مسمار صغير سرقوه من الجدار. كانوا يكتبون على الجدران الصاج بأظافرهم، أو بأعواد البرتقال الجافة التي يخبئونها بعناية. كانوا يعلمون بعضهم. الشيخ يعلم الشاب، والشاب يعلم الطفل. كان هناك من يحفظ أجزاءً كاملة، ومن يحفظ سوراً، ومن يحفظ آيات. وكانوا يتداولونها كأنها كنز، كأنها الماء في صحراء.

في إحدى الليالي، وبينما كان خالد وأبو محمد ومعهما راني وعلاء يهمسون بسورة الكهف، انتبهوا إلى صوت خطوات تقترب. تجمد الجميع. وضعوا أيديهم على عيونهم في الحال، وألقوا بأنفسهم أرضاً كما تعلموا. دخل الحارس، ونظر إليهم بعينين مشبوهتين. كانوا يسمونه "جليندايزر"، لأنه كان ضخماً، ولأن مشيته كانت ثقيلة كالديناصور. تقدم منهم، وركل أبا محمد في جنبه.

"شو عم تعملوا؟ عم تصلوا؟ عم تحفظوا قرآن؟"

"لا سيدي... كنا نايمين." قال أبو محمد بصوت متعب.

لم يصدقه. فتش المهجع. وجد بقايا الصابونة المحفورة. وجد غصن البرتقال الصغير الذي كانوا يستخدمونه للكتابة. فانفجر غضباً. ضربهم جميعاً بالهراوة، واحداً واحداً. ضرب أبا محمد على رأسه حتى سال الدم. ضرب علاء على ظهره حتى سقط. ضرب راني على ساقيه. ثم جاء دور خالد.

رفع الهراوة، وأنزلها بقوة على رأسه. شعر خالد بأن رأسه ينشق، وبأن العالم يغرق في سواد. سمع صوتاً بعيداً... "هيك... هيك يا كلاب... بدكم تقعدوا بالزنزانات..." ثم لم يعد يسمع شيئاً.

عندما أفاق، كان في زنزانة انفرادية. وحده. لا راني، لا أبو محمد، لا علاء. فقط جدران باردة، وثقب صغير في الأعلى يسمح بدخول شعاع ضوء خافت. وجسده يؤلمه من كل مكان، والصداع يشق رأسه نصفين.

لكن ما كان يؤلمه أكثر لم يكن الضرب. كان الخوف من أن يكون القرآن قد اختفى من قلبه. فأغلق عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، وحاول أن يتذكر: "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ"...

تذكر. كانت الآيات ما تزال هناك، محفورة في قلبه لا في الصابونة. ابتسم في الظلام. طالما بقي القرآن في قلبه، كان لا يزال بشراً. كان لا يزال حراً، بطريقة ما، بطريقة لا يفهمها أحد سواه.

وهكذا، في تلك الزنزانة المظلمة، عاش خالد شهراً كاملاً. شهراً من العزلة المطلقة، من التفكير، من إعادة الحسابات، من الحفر في جدران النفس كما حفر السجناء في جدران الصاج. وفي نهاية الشهر، حين أعادوه إلى المهجع، كان شيئاً ما فيه قد تغير. كان أكثر صلابة، وأكثر هدوءً. كان قد تعلم أن الحرية لا توجد في الخارج وحده، بل في الداخل. في الروح التي لا تستطيع الأصفاد أن تكبلها، مهما اشتدت.

وهذا الدرس، سيظل يحمله معه حتى اللحظة التي تفتح فيها الأبواب أخيراً.

الفصل الثالث: وجوه الموت (٥ صفحات) الدكتور "قرب" (لجين صقر) ووصف جولاته المرعبة "منهل سليمان" الجزار كما يسميه السجناء حكاية الابن الذي فقد وعيه من كف واحد مرض الكوليرا في السجن وموت الرفاق مشهد الأكل بجانب الجثة

أحتاج إلى كتابة الفصل الثالث من القصة، مع التركيز على وجوه الموت في سجن صيدنايا. الشخصيات الرئيسية هنا هي الدكتور لجين صقر (الملقب بـ "قرب" أو "جلينـدايزر") ومنهل سليمان (الجزار).

الفصل الثالث: وجوه الموت

في سجن صيدنايا، كان للموت وجوه كثيرة. لم يكن وجهاً واحداً يأتي في الليل، حين ينام السجناء، ويسرقهم في صمت. كان يأتي في النهار أيضاً. يأتي في هيئة طبيب يحمل سمّاعته، وفي هيئة ضابط يمسك دفتراً، وفي هيئة شرطي يحمل هراوة. كان يأتي ببطء، متلذذاً، كأنه يتذوق الخوف في عيون ضحاياه قبل أن يقطف أرواحهم. وفي صيدنايا، كان للموت اسمان يهابهما كل سجين: الدكتور "لجين صقر"، و"منهل سليمان."

لم يكن "لجين صقر" مجرد طبيب سجن. كان أسطورة الرعب التي تتناقلها المهاجع همساً، كحكايات الجن التي ترويها الأمهات للأطفال في الليالي المعتمة. كان السجناء يسمونه "قرب" - تحريفاً لاسمه، وكأنهم بتغيير الاسم يبعدون شره عنهم. وفي مهاجع أخرى، كانوا يطلقون عليه أسماء مستعارة: "جلينـدايزر"، و"التنين"، و"الديناصور". أسماء من عالم الوحوش، كأن اللغة البشرية لم تعد تكفي لوصف ما هو عليه.

رآه خالد لأول مرة في الأسبوع الثالث من وصوله إلى المهجع. كان الوقت ظهراً، حين دخل الحارس وصاح بتلك النبرة التي صار يعرفها جيداً: "الجولة الطبية... استعداد"!

في الحال، تجمد الجميع في أماكنهم. حتى أولئك الذين كانوا نياماً استيقظوا فجأة، وجلسوا في وضع الاستعداد. كانت تعليمات الجولة الطبية صارمة: الجميع يجلسون القرفصاء،

الأيدي على العيون، الرؤوس منخفضة. ممنوع النظر. ممنوع الكلام. ممنوع حتى التنفس بعمق. كان السجن كله يحبس أنفاسه.

فتح الباب، ودخل "قرب."

لم يره خالد، لأن عينيه كانتا مغطاتين بكفيه. لكنه شعر به. شعر بالهواء يثقل فجأة، كأن دخوله أضاف إلى الغرفة وزناً لا يُرى. سمع صوت خطواته على البلاط: بطيئة، محسوبة، واثقة. خطوات رجل يعرف أن لا أحد يستطيع مساءلته، أن لا أحد يستطيع حتى النظر إليه.

توقف الدكتور في منتصف المهجع. كان خالد يحس بوجوده على بعد أمتار منه، يشعر بعينيه تجولان على السجناء الجالسين كتماثيل من لحم وعظم. ثم سمع صوته. كان صوتاً هادئاً، متكلماً، يكاد يكون لطيفاً. وهذا ما جعله أكثر رعباً. كان صوت رجل متعلم، صوت طبيب، صوت من يفترض به أن يشفي لا أن يقتل.

"مين فيكم عنده مرض؟"

صمت مطبق. كان السجناء يعرفون أن الإعلان عن المرض في الجولة الطبية ليس طلباً للعلاج، بل هو اعتراف قد يؤدي إلى العزل، أو ما هو أسوأ. كان "قرب" يسأل عن المرضى، ليس ليعالجهم، بل ليميزهم. كان يبحث عن الضعفاء، عن الذين بدأت أجسادهم تنهار، عن الذين صاروا عبئاً على السجن... أو صار وجودهم بلا فائدة.

توقف قرب أمام أحد السجناء. كان رجلاً كبيراً من حمص، من منطقة الخالدية. كان خالد يعرفه باسم "أبو خليل"، رجل في الستين، أنهكه السل والبرد، وصار صوته كصفير الريح في شقوق الجدران.

"إنت... شو فيك؟"

"سيدي... عندي سعال... وتعب".

همس أبو خليل بصوت مرتجف. كان يعرف أنه وقع في الفخ. كان يعرف أن الاعتراف بالمرض أمام قرب يشبه الاعتراف بالذنب أمام جلاد.

صمت قرب للحظة. ثم قال، بصوته الهادئ ذاك: "طيب. أنا راح أبعثلك علاج. راح أبعثلك إياه مع الدكتور قرب... قول له الدكتور قرب بعتني".

لم يفهم خالد معنى العبارة في البداية. لكنه لاحظ أن الجو في المهجع تجمد أكثر. لاحظ أن أبا محمد، الجالس إلى جانبه، كان يرتجف. لاحظ أن أحداً لم يعد يتنفس.

فيما بعد، شرح له راني معنى العبارة. "لما بقول لك 'راح أبعثلك الدكتور قرب'... يعني راح يقتلك. الدكتور قرب هو الموت. وهو اللي بيقرر مين بيموت. وإذا بعتلك الموت... معناته خلص".

في تلك الليلة، مات أبو خليل. لم يسمع أحد شيئاً. لم ير أحد شيئاً. فقط، في الصباح، كان جسده بارداً. وفي تقرير الوفاة، كُتب: "توفي إثر نوبة قلبية حادة أثناء النوم." لا تحقيق. لا أسئلة. فقط موت، ونسيان.

كانت هذه جولات "قرب" الطبية. لم يكن يعالج، بل كان يحصد. كان فناناً في القتل، كما قال أحد السجناء القدامى. فناناً يتقن فن الموت كما يتقن غيره فن الموسيقى أو الرسم. كان يضرب ضربات مدروسة على الجنبين، عند الكليتين، ضربات لا تترك أثراً ظاهراً، لكنها تكفي لتفجير الأعضاء من الداخل. وكان السجين يموت بعد ساعات، أو أيام، وفي تقرير الوفاة: "توفي إثر سكتة قلبية"، أو "زلق في الحمام ووقع على رأسه"، أو "توفي بسبب ماس كهربائي" في سجن لا كهرباء فيه إلا في غرف الإدارة.

كان قرب يوقع الموتى كما يوقع الفنان لوحاته. وكان السجناء يعرفون أنهم في متحف مفتوح للموت، ينتظر كل منهم دوره ليكون التحفة التالية.

أما "منهل سليمان"، فكان وجهاً آخر للموت. وجهاً أكثر عنفاً، أكثر مباشرة، أقل تمويهاً. كان "منهل" رجلاً في الأربعين، ممتلئ الجسد، بعينين صغيرتين كعيني الخنزير، وصوت جهوري يملأ أرجاء السجن حين يصرخ: "اقطع الصوت"!

كان السجناء يسمونه "الجزار". وكان هذا اللقب دقيقاً. لم يكن منهل يقتل كطبيب، بل كجزار. كان عنيفاً، سريعاً، عملياً. كان يريد النتائج. كان يريد الاعترافات. كان يريد الطاعة العمياء. وكل وسائله تؤدي إلى هذه الغاية.

كان صوته هو سلاحه الأول. كان صوته عالياً لدرجة أن السجناء قالوا إنه "إذا قال اقطع الصوت، يز الإبرة... يسمع صوت الإبرة وهي تز". كان صوته يسبقه إلى المهجع، يرعب السجناء قبل أن يروه. وحين يدخل، كان الجميع يعرفون أن شيئاً سيحدث. ضرب، أو تعذيب، أو موت.

في إحدى الليالي، وكان خالد لا يزال جديداً في المهجع، سمع صوت منهل في الممر. كان الصوت يقترب، يعلو، يملأ المكان. كان منهل يصرخ في أحد السجناء، في مكان ما من السجن. لم يعرف خالد من هو. لم يعرف ماذا فعل. كل ما عرفه كان صوت الضربات، وصوت الصراخ، ثم... صمت. صمت عميق، ثقيل، كأن السجن كله ابتلع الصوت.

في اليوم التالي، سأل أبا محمد: "شو صار الليلة الماضية؟"

أجاب أبو محمد بصوت خفيض: "منهل سليمان. قتل واحد من مهجع تلاتة. مسكين... ما كان عامل شي. بس منهل كان معصب".

كان عدد ضحايا "منهل سليمان" يتجاوز المئتين، كما قال السجناء. وكذلك الدكتور "لجين صقر" الذي "برقبته فوق الأربعمية". أرقام لا تُحصى، أرواح لا تُحصى، عائلات لا تعرف حتى الآن أن أبناءها ماتوا، وأن الموت لم يكن طبيعياً، وأن القتلة ما زالوا... أحراراً.

كان منهل يأتي أحياناً في الليل. كان السجناء يعرفون قدومه من صوت المفاتيح، من صوت الخطوات الثقيلة، من صوت صراخه: "فلان... فلان... تعال!" وحين ينادي اسماً، كان ذلك يعني أحد أمرين: إما تحقيق، وإما... إعدام.

وكانت ليلة الإعدامات لها طقوسها. كانت الأنوار الخارجية تنطفئ. كانت أصوات المكيفات تعلو فجأة لتغطي الصوت. وكانت المنصة تتحرك، تلك المنصة التي تسير على الكهرباء، بصوتها الذي يشبه صرير الموت نفسه. كان السجناء يضعون آذانهم على البلاط

ويسمعون: صوت الجنزير يجر، صوت المنصة تتحرك، صوت بكاء من سيموت، وصوت... "ما بدي موت! ما بدي موت"!

في إحدى الليالي، وكان خالد شاويشاً على باب المهجع، سمع ذلك الصوت. صوت رجل يصرخ: "ما بدي موت!" صرخة خرجت من أعماق الروح، صرخة علت على صوت المكيفات، على أصوات الحراس، على كل شيء. صرخة سمعها السجن كله. ثم... صمت. الصمت الذي يأتي بعد الصرخة، والذي يكون أثقل من الصرخة نفسها.

"هذا شب صغير... يمكن ابن عشرين سنة." همس أبو محمد. "الله يرحمه".

لم ينم خالد تلك الليلة. ظل مستيقظاً، يسمع صدى الصرخة في رأسه: "ما بدي موت!" كانت تلك الصرخة تلخص كل ما في صيدنايا. كان كل سجين فيها يريد أن يصرخ بها، لكن لا أحد يجرؤ.

كان للسجانين أيضاً وجوههم الخاصة، وجوه تختلف في درجة قسوتها، في طريقتها في التعذيب. وكان "يونس" - الذي كان السجناء يسمونه "أبو البطانيات" - واحداً من أشد هذه الوجوه قسوة.

كان يونس رجلاً ضخماً، طويلاً، مفتول العضلات. كانوا يقولون إنه "مارد"، تشبيه له بكائنات أسطورية مرعبة. وكان متخصصاً في الزنازين الانفرادية. هو من يستقبل السجناء الجدد، هو من يعطيهم "البطانيات" - ومن هنا لقبه - هو من يضربهم أول ضربة في عالم العزل.

في أحد الأيام، وكان خالد في طريقه إلى دورة المياه، وقعت عيناه على يونس لثانية واحدة. كان خطأ. كان رفع عينه ولو لثانية يعتبر تحدياً، جريمة تستحق العقاب. تقدم يونس نحوه، وفي يده هراوة، لكنه لم يستخدمها. بدلاً من ذلك، رفع كفه المفتوحة ولطم خالداً على وجهه لطمة واحدة.

لم تكن لطمة عادية. شعر خالد بأن رأسه ينفصل عن جسده، بأن العالم ينقلب رأساً على عقب، بأن الضوء يغيب فجأة. شعر بأن كل شيء يتلاشى: الأصوات، الصور، حتى الألم. شعر بأنه يغرق في سواد عميق.

حين أفاق، كان راقداً على أرضية الممر. كان هناك دم على شفته، وصداع كأن رأسه سينشق. كان أبا محمد وراني يحملانه. قال راني بصوت مرتجف: "والله... غبت عن الوعي دقيقتين كاملين. من كف واحد"!

"كف واحد!" كرر أبو محمد بتعجب. "هذا مش كف... هذا حكم إعدام بالكف".

منذ ذلك اليوم، صار خالد يتجنب النظر إلى أي حارس بأي شكل. كان يضع يده على عينيه دائماً، كما تفعل الخيول حين توضع الغمامات على أعينها. كان يمشي ورأسه منخفض، لا يرى من العالم إلا البلاط تحت قدميه. كان قد صار أعمى باختياره، لأن العمى الاختياري خير من العمى الذي تسببه كف واحدة.

في شهر تموز من عام ٢٠٢٣، اجتاح وباء صيدنايا. لم يكن وباء طبيعياً، بل كان "مفتعلاً"، كما قال السجناء. كانوا قد لاحظوا أن الطعام صار أكثر رداءة من المعتاد، إن كان هذا ممكناً. صار البرغل المسلوق ينبعث منه رائحة غريبة، والماء صار أكثر عكارة، والزيتون صار عليه طبقة بيضاء من العفن.

ثم بدأ الإسهال. إسهال حاد، عنيف، لا يتوقف. ثم القيء. ثم الجفاف. ثم... الموت.

كان مرض الكوليرا. وفي سجن مكتظ، قليل التهوية، معدوم النظافة، كان الكوليرا ينتشر كالنار في الهشيم. مات العشرات في الأسابيع الأولى. مات رجال كانوا أصحاء، مات شباب كانوا في بداية حياتهم، مات من كانوا ينتظرون حريتهم. ماتوا على أسرّتهم، أو على البلاط، أو في الطريق إلى الحمام. ماتوا وتركتهم إدارة السجن ساعات، ثم نقلوهم بعيداً.

ولم تفعل الإدارة شيئاً. لم تعزل المصابين، لم تقدم علاجاً، لم تغير الطعام أو الماء. كان الموت ينتشر، وكانت الإدارة تراقب. كأنها أرادت ذلك. كأن الوباء كان وسيلة أخرى من وسائل القتل، وسيلة أنظف، أقل تورطاً، تترك الموت يقوم بعمله وحده.

ثم، حين زاد عدد الموتى، افتُتح "جناح العزل" في الطابق الثالث. كان هذا ردهم على الوباء: عزل المصابين بعيداً عن الأنظار، في مكان يموتون فيه بهدوء، بعيداً عن إحصاءات الصليب الأحمر، بعيداً عن أي مساءلة.

وفي ذلك الصيف الحار، أصيب خالد بالكوليرا.

كان لا يزال شاويشاً، يقف على الباب، يتلقى الضربات، يوزع الطعام. كان مجهداً، ضعيف المناعة، مثل كل السجناء. وحين بدأت أعراض المرض تظهر عليه - الإسهال الذي لا يتوقف، القيء، الجفاف، الدوار - عرف أنه في طريقه إلى الموت.

"طلعوني على الجولة الطبية... بدي أطلع." توسل إلى راني وعلاء.

نظرا إليه بخوف. كانا يعرفان أن الذهاب إلى الطابق الثالث، إلى جناح العزل، قد يعني عدم العودة. لكن لم يكن هناك خيار. كان خالد يضعف بسرعة. كانت حدقتا عينيه تتسعان، وكان جلده يذبل، وكانت عظامه تبدأ في البروز من تحت لحمه.

حملاه إلى باب المهجع. طرقا. جاء الحارس. شرحا. فأخذهما الحارس ورفعاه إلى الطابق الثالث.

هناك، في جناح العزل، رأى خالد الموت وجهاً لوجه. كان المكان مليئاً بالمرضى. رجال مستلقون على الأرض، لا حراك فيهم. عيون غائرة. شفاه زرقاء. أصوات أنين خافتة. رائحة المرض والموت واليأس. كان أشبه بغرفة انتظار للقبر.

وهناك، رأى خالد رفيقه.

كان رجلاً كبيراً من حمص، من الخالدية، كانوا يسمونه "أبو راشد". رجل طيب، هادئ، كان في المهجع المجاور. كان قد أصيب بالكوليرا قبل أيام. وحين رآه خالد، كان أبو راشد يجلس على الأرض، مسنداً ظهره إلى الجدار، شاحباً، مرتجفاً.

"يا أبو راشد... كيفك؟"

لم يجب. كانت عيناه مفتوحتين، لكنهما كانتا تحدقان في الفراغ. كان لا يزال حياً، لكنه كان في مكان آخر. في مكان بين الحياة والموت.

نادى الحارس: "هات علاء قشيشة..." كان علاء قد أُصيب أيضاً، وكان في نفس الجناح. جاء علاء، شاحباً، متعباً، لكنه كان واقفاً. قال أبو راشد بصوت مبحوح: "اقرألي المعوذات... والفاتحة".

قرأ علاء. قرأ بصوت خافت، مرتجف. قرأ ودمع عينيه يسيل على وجنتيه. وقرأ خالد معه، بصوت لا يكاد يسمع. "قل أعوذ برب الفلق... قل أعوذ برب الناس"...

وقبل أن ينتهي من الفاتحة، سكت أبو راشد. سكت إلى الأبد. مات بين أيديهم، وجلسته تلك على الأرض لم تتغير. بقي جالساً، مسنداً إلى الجدار، ميتاً لكنه يبدو كأنه يصلي.

صاح أحد السجناء: "في حدا توفى! في جثة"!

جاء الحراس. نظروا إلى أبي راشد وكأنهم ينظرون إلى قطعة أثاث تالفة. قال أحدهم للآخر: "شيله... شيل الجثة." أمسكوه من قدميه وجروه على البلاط. كان رأسه يرتطم بالأرض، محدثاً صوتاً مكتوماً. ثم اختفى من الباب. واختفى معه كل شيء. وكأنه لم يكن موجوداً قط.

في تلك الليلة، في جناح العزل، جلس خالد وعلاء يأكلان. كان الطعام قد جاء: بطاطا مسلوقة، ولبن، لا غير. طعام المرض، طعام من لا يحتاجون طعاماً كثيراً لأنهم في طريقهم إلى الموت. جلسا يأكلان، وكانت جثة أبي راشد لا تزال هناك، في زاوية الغرفة، مغطاة بغطاء رقيق.

كان الموت يجلس معهما. يأكلان وهو جالس على بعد أمتار. يأكلان وهما يعرفان أنه بعد ساعات، أو أيام، قد يكونان مثل أبي راشد. يأكلان والحياة تتشبث بهما، تأبى أن تتركهما.

قال علاء بصوت مبحوح: "تصدق... أول مرة بحياتي أكل وجنبّي ميت".

قال خالد: "هون... خلص إحنا متنا. بس ما اندفنا".

أكملا أكلهما في صمت. لم يكن هناك شيء آخر يفعلانه. كان الأكل عملاً من أعمال البقاء. كان تحدياً للموت. كان إعلاناً بأنهما، رغم كل شيء، لا يزالان أحياء. لا يزالان يقاومان.

وفي تلك الليلة، فيما كان خالد يحاول النوم على الأرضية الباردة، سمع صوتاً. صوت أنين، قادم من زاوية أخرى في الغرفة. كان شاباً صغيراً، ربما في العشرين. كان يبكي. لم يكن بكاءً عالياً، بل بكاءً خافتاً، مكتوماً، كبكاء طفل يخشى أن يسمعه أحد.

زحف خالد نحوه. كان الشاب من مهجع آخر، لا يعرف اسمه. كان جلده محروقاً من الحمى، وعيناه تتوسلان.

"بدي أمي... بدي شوف أمي".

لم يقل له خالد شيئاً. لم تكن هناك كلمات يقولها. فقط وضع يده على جبين الشاب المحموم، وبقي هناك، صامتاً، حتى نام الشاب من الإعياء. وفي الصباح، كان الشاب قد مات.

وهكذا، في سجن صيدنايا، كان الموت يسير بين المهاجع كأنه أحد السجانين. لا يقرع باباً، لا يستأذن. يدخل، ويختار، ويأخذ. وفي كل مرة، كان الناجون ينظرون إلى الفراغ الذي تركه الميت، ويعرفون أن دورهم قد يكون التالي.

لكن خالداً لم يمت. نجا من الكوليرا. عاد إلى المهجع بعد أسبوعين، أضعف، أنحل، لكنه حي. وعاد ليجد أن أبا محمد قد كسرت ساقه بالضرب، وأن راني قد أُصيب بالسل، وأن علاء صار يسعل دماً. كان السجن يطحنهم، ببطء، واحداً بعد الآخر.

ومع ذلك، استمروا. استمروا في الحياة، لأن الحياة في صيدنايا لم تكن خياراً، بل كانت قدراً. كانوا يعيشون لا لأنهم يريدون، بل لأن الموت لم يخترهم بعد. وفي كل ليلة، قبل أن يناموا، كانوا يتأكدون من أن جيرانهم على قيد الحياة. وفي كل صباح، كانوا يعدون من تبقى.

كانت هذه هي الحياة في صيدنايا. حياة في ظل الموت. حياة كل يوم فيها هو معجزة، وكل ليلة فيها هي نجاة. حياة يتساوى فيها الألم والعدم، ويتساوى فيها البقاء والفناء. حياة... لا تشبه الحياة.

الفصل الرابع: منصة الإعدام

في صيدنايا، كان الليل مختلفاً عن النهار. في النهار، كان الضرب، والجوع، والعطش، والإهانات. كان الألم المرئي، المحسوس، الذي يمكن تحديد مصدره. أما في الليل، فكان هناك شيء آخر. شيء لا يُرى، لكنه يُسمع. شيء لا يُلمس، لكنه يملأ النفس رعباً. كان الليل هو وقت الإعدامات.

لم يكن هناك إعلان مسبق. لم يكن هناك تحذير. فقط، في ساعة متأخرة من الليل، حين يظن السجناء أن اليوم قد مر بسلام، تبدأ العلامات. أولاً: صوت الأنوار الخارجية وهي تنطفئ. كان السجن يغرق في ظلام أعمق من المعتاد. ثم: صوت المكيفات والشفاطات وهي تشتغل فجأة بأقصى قوتها، ضجيجاً يصم الآذان. كان هذا هو الغطاء الصوتي. كانوا يريدون ألا يسمع أحد. ألا تصل أصوات الموت إلى الخارج. ألا يعرف العالم شيئاً.

لكن السجناء كانوا يعرفون. كانوا قد تعلموا قراءة تلك العلامات كما يقرأ البحارة الغيوم. وفي اللحظة التي تنطفئ فيها الأنوار وتبدأ الشفاطات بالعويل، كانوا يضعون آذانهم على البلاط البارد ويصغون.

كانت تلك الليلة من ليالي كانون الأول الباردة. كان خالد يجلس عند باب المهجع، في نوبة شاويشيته. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. كان المهجع هادئاً، الجميع نيام أو يتظاهرون بالنوم. وفجأة... سمعها. سمع الصوت الذي صار يعرفه جيداً: أزيز المنصة وهي تتحرك.

كانت المنصة تسير على الكهرباء، تتحرك على قضبان حديدية في مكان ما في أعماق السجن. كان صوتها يشبه أنين حيوان جريح، أو صرير باب قديم في بيت مهجور. كانت تتحرك ببطء، بثقل، كأنها تحمل على ظهرها كل موتى صيدنايا.

ثم سمع صوت الجنزير. صوت السلاسل المعدنية وهي تُجر على البلاط. كانوا يجهزون المشنقة.

تجمد كل شيء في المهجع. حتى الأنفاس صارت أخفت. كان السجناء قد استيقظوا جميعاً، لكن أحداً لم يتحرك. كانوا يستمعون، في صمت، إلى سيمفونية الموت.

"الليلة... في إعدام." همس أحدهم من الزاوية.

"اسكت." رد آخر بصوت مرتجف.

ثم... ارتفع الصوت. صوت لم يسمعه خالد من قبل. صوت لم يكن صراخاً عادياً، بل كان شيئاً أعمق. كان صراخ الروح حين تعرف أنها في لحظاتها الأخيرة. كان صراخ الجسد الذي يرفض الموت. كان صراخ كل إنسان منذ بدء الخليقة وهو يواجه النهاية:

"ما بدي موت! ما بدي موت"!

كان الصوت عالياً، عالياً لدرجة أنه اخترق ضجيج الشفاطات. اخترق الجدران. اخترق كل شيء. كان صراخ شاب في العشرين من عمره، كما عرف خالد لاحقاً. كان قد حُكم عليه بالإعدام، وكانوا يجرونه إلى المنصة. وكان يصرخ. يصرخ بكل ما أوتي من قوة: "ما بدي موت"!

لم يسمع أحد صوت الضابط الذي كان يضربه ليسكته. لم يسمع أحد صوت الأصفاد. فقط ذلك الصراخ، يتكرر، مرة بعد مرة: "ما بدي موت! ما بدي موت!" ثم... صمت. الصمت الذي كان دائماً أثقل من الصوت.

في تلك اللحظة، شعر خالد بشيء في صدره ينكسر. لم يكن يعرف هذا الشاب. لم يره قط. لكن صرخته... صرخته لخصت كل ما كان في قلب خالد. في كل يوم في صيدنايا، كان يريد

أن يصرخها. كان يريد أن يقول للعالم: "ما بدي موت!" لكنه لم يستطع. والآن، سمعها من فم شخص آخر، وارتفعت إلى السماء بدلاً عنه.

"الله يرحمه..." همس أبا محمد من الخلف.

"آمين." رد الجميع في صوت واحد خافت.

ثم عاد الصمت. ولم يعد أحد ينام تلك الليلة. ظل الجميع مستيقظين، ينظرون في الظلام، يتساءلون: من سيكون التالي؟

في صباح اليوم التالي، نُقل خالد مع مجموعة من السجناء إلى طابق المسدس. كان هناك تجديد روتيني، تبديل مهاجع، إجراءات إدارية. وفي الطريق إلى هناك، مر من أمام باب مفتوح. رأى شيئاً جعله يتجمد في مكانه.

كانت هناك، معلقة على حامل، بدلة حمراء.

لم تكن حمراء بلون الدم فقط، بل بدت كأنها مشبعة بدماء كل من أُعدموا. كانت بدلة الإعدام. كانوا يلبسونها للمحكومين قبل أن يصعدوا المنصة. كانوا يلبسونها لتخفي الدماء بعد الموت. كانوا يلبسونها... ليرعبوا من يراها.

"شو هاد؟" سأل خالد بصوت مكتوم.

"البدلة الحمرا." أجاب الحارس بابتسامة خبيثة. "عجبتك؟ بدك تجربها؟"

لم يجب خالد. لكن عينيه ظلتا معلقتين بتلك البدلة. كانت مجرد قطعة قماش، لكنها كانت تحمل في طياتها كل قصص الموت في صيدنايا. كان كل خيط فيها يروي حكاية رجل مات. كان لونها الأحمر شاهداً على سنين من الدم.

ومنذ ذلك اليوم، كلما مر خالد من ذلك الممر، كان يرى البدلة الحمراء. كانت هناك، معلقة، تنتظر. تنتظر من سيكون التالي. تنتظر جسداً آخر تلفه. وفي كل مرة كان يراها، كان

قلبه يتوقف لثانية. كان يتخيل نفسه وهو يرتديها. كان يتخيل المنصة. كان يتخيل الصرخة الأخيرة: "ما بدي موت"!

لكن شيئاً آخر كان يحدث في أعماقه. كان يقرر، في كل مرة يرى البدلة، أنه لن يصرخ. أنه إذا جاء دوره، سيواجه الموت بصمت. ليس شجاعة، بل إرهاقاً. تعباً من الصراخ الذي لا يسمعه أحد. تعباً من الحياة في مكان لا حياة فيه.

لكن الحياة في صيدنايا لم تكن كلها عن الموت. كان هناك أيضاً الحياة. حياة تأتي من الخارج، من وراء الجدران. حياة تأتي في هيئة... زيارة.

كانت الزيارة حدثاً استثنائياً في حياة السجين. كانت تحدث مرة كل بضعة أشهر، إذا سمحت الإدارة. وكانت أشبه بحلم يقظة. كان السجين ينتظرها بفارغ الصبر، يعد الأيام، الساعات، الدقائق. كان يتخيل وجوه أهله. كان يتخيل أصواتهم. كان يتخيل... الحياة.

لكن الزيارة في صيدنايا لم تكن لقاءً حقيقياً. كانت جحيماً من نوع آخر.

كان السجناء يُقتادون إلى قاعة الزيارة مكبلي الأيدي، مطمشي الأعين. كانوا يسيرون ولا يرون شيئاً إلا البلاط. وفجأة، تسقط الغمامة عن الأعين. أو بالأحرى، ترفع "البردايـة" - ذلك الستار الذي يفصلهم عن العالم. ويرفع السجين رأسه. وفي تلك اللحظة، فقط في تلك اللحظة، يرى النور. يرى الوجوه. يرى الحياة.

"خالد... يا ابني"...

كانت أمه. كانت هناك، خلف الزجاج، عيناها مغرورقتان بالدموع. كانت أكبر. كان الشيب قد غزا شعرها الأسود. كان وجهها قد تغضن. لكنها كانت هناك. كانت حية. كانت... تنتظره.

"يما... يما شلونك؟"

كان الصوت يخرج مبحوحاً. كانت الكلمات تختنق. كان يريد أن يقول الكثير، لكن الزمن محدود. دقائق. فقط دقائق. والحراس واقفون، يسمعون، يراقبون، ينتظرون أي خطأ ليقطعوا الزيارة.

كانت أمه تحضر له أشياء. ملابس، طعام، نقوداً. كانت تضعها في "الوصل"، ذلك الكيس الذي يفترض أن يصل إلى السجين. لكنه لم يكن يصل. كان الحراس يسرقونه. كانوا يأخذون الجديد ويتركون القديم. يأخذون الأموال ولا يعطون شيئاً. يأكلون طعام الأهل ولا يبقون للسجين إلا الفتات.

"بعتتلك مبلغ... مليون ليرة... وصل؟"

"وصل... وصل." كان يكذب. كان يعرف أن المال لم يصل، وأنه لو قال الحقيقة لعوقب، وربما منعت زيارته. كان يكذب ليحمي أمه من الحقيقة، وليحمي نفسه من العقاب.

وكانت أمه تنظر إليه. تنظر إلى عينيه الغائرتين، إلى جسده النحيل، إلى الكدمات على وجهه. وكانت تعرف. تعرف أنه لا يأكل، أنه لا يشرب، أنه يُضرب. لكنها لم تستطع فعل شيء. فقط الدموع. فقط الصمت.

"خالد... بدنا نرجع... الشرطي عم يصيح".

كانت الزيارة قد انتهت. دقائق قليلة اختفت كأنها ثوان. رفعت أمه يدها تودعه. نظر إليها. كان يريد أن يقول: "أنا بحبك. أنا معلش. أنا راجع." لكن الكلمات لم تخرج. فقط الدموع.

ثم أُسدلت البرداية. وعاد الظلام. وعادت الأيدي على العيون. ورجع خالد إلى مهجعه، إلى جحيمه، محملاً بذكريات دقائق من الحياة. وكان هذا هو الأصعب. ليس الموت، بل الحياة. طعم الحياة الذي يتذوقه في الزيارة ثم يُنتزع منه. كان هذا هو العذاب الحقيقي.

بعد تلك الزيارة، تغير شيء ما في خالد. لم يعد الشخص الذي كان. صار أكثر صمتاً، أكثر انعزالاً، أكثر... تفكيراً. كان يقضي ساعات محدقاً في الجدار، يفكر في ابنه. كان ابنه قد صار

في السادسة من عمره. كان قد تركه طفلاً رضيعاً، والآن... هل سيعرفه؟ هل سيعرف أن هذا الغريب هو أبوه؟

"بدي أرجع... بدي أرجع لابني." صار هذا هو شعاره. صار هذا هو سبب حياته. في كل صباح، كان يقولها. في كل ليلة، كان ينام عليها. كان يريد أن يعيش. ليس لنفسه، بل لابنه.

وفي تلك الأيام، حدث ما لم يكن في الحسبان.

كان الشاويش السابق قد انكسر. كان "أبو محمد" قد صار يحمل المهجع على كتفيه وحده، لكنه كان يتآكل. كان الضرب يزيد، وكانت صحته تنهار. وفي أحد الأيام، جلس إلى جانب خالد وقال:

"اسمع... أنا تعبان. تعبان كتير. كل يوم عم بموت شوي. بدي حدا يكمل من بعدي. بدي حدا يكون شاويش".

نظر إليه خالد. كان يعرف ماذا يعني هذا. الشاويش هو من يقف على الباب. هو من يستقبل الضربات. هو من يتحمل مسؤولية الجميع. كان الشاويش يموت أسرع من غيره. كان يأكل من القتل أضعاف ما يأكل السجين العادي.

"ليش أنا؟"

"لأنك..." توقف أبو محمد ليلتقط أنفاسه. كان صدره يصفر، وكان السعال يقطع كلامه. "لأنك قوي. لأنك بتحب الناس. ولأنك... بدك تعيش. الشاويش اللي ما بيحب الناس بيموت بسرعة. بس اللي بيحب الناس... بيقدر يتحمل".

صمت خالد طويلاً. كان يفكر. كان يعرف أنه إن قبل، فإن الموت سيكون أقرب إليه من حبل الوريد. لكنه كان يعرف أيضاً أن أحداً يجب أن يفعلها. كان في المهجع رجال كبار، شباب صغار، مرضى. كانوا يحتاجون إلى من يحميهم. إلى من يقف بينهم وبين الموت.

"طيب." قالها بصوت هادئ. "أنا راح قعد على الباب".

وهكذا، أصبح خالد شاويشاً.

لم تكن الشاويشية سلطة. لم تكن امتيازاً. كانت لعنة.

كان الشاويش يستيقظ قبل الجميع. يعد الأسماء. يتأكد من أن الجميع على قيد الحياة. ثم يقف على الباب، يستقبل الحراس، يستقبل أوامرهم، يستقبل ضرباتهم. كان "أبو يعقوب" و"منهل سليمان" ينادونه بـ"يا عرصة المهجع"، وكان يرد: "حاضر سيدي". كان يتذلل، ينحني، يلحس الأرض إن لزم الأمر. ليس خوفاً، بل ليحمي من خلفه.

كان خالد يتحمل. كان يأكل الضرب بصمت. كان يعد: "اليوم عشر هروانات... أمس خمسطعش... أول أمس عشرين." كان جسده يتحول إلى خريطة من الكدمات والجروح. لكنه لم يكن يشتكي. كان يعرف أن كل ضربة على جسده تعني ضربة أقل على رجل كبير لا يحتمل، أو شاب صغير قد يموت.

"كيف بتتحمل؟" سأله علاء ذات يوم.

"مشان ابني." أجاب خالد. "مشان أرجع لابني".

كان يفكر في ابنه كل لحظة. كان يتخيل وجهه، صوته، ضحكته التي لم يسمعها قط. كان يتخيل اليوم الذي سيخرج فيه من هذا الجحيم، وسيركض نحو بيته، وسيحمل ابنه بين ذراعيه. كان هذا الخيال هو ما يبقيه حياً. كان هذا هو وقوده. كان هذا هو سلاحه ضد الموت.

لكن الشاويشية جلبت شيئاً آخر. جلبت... المسؤولية. صار خالد مسؤولاً عن أرواح خمسة وعشرين رجلاً. صار هو من يقرر من سيذهب إلى الجولة الطبية، ومن سيبقى. صار هو من يخفي الأخطاء، ومن يتلقى العقاب نيابة عن الجميع. صار هو الأب. الأب في مكان لا آباء فيه.

وفي إحدى الليالي، بينما كان يجلس على الباب في نوبته الليلية، سمع صوت المنصة مرة أخرى. سمع أزيزها المألوف. سمع الجنزير. سمع الخطوات. لكنه لم يسمع صراخاً هذه

المرة. كان المعدومون... صامتين. ربما لم يعودوا يملكون القوة للصراخ. ربما كانوا قد ماتوا قبل أن يموتوا.

"يا رب... ارحمهم." همس خالد في الظلام.

ثم سمع صوتاً آخر. صوت بكاء. كان أحد الشباب الجدد في المهجع، شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة، اسمه "أمين"، قد استيقظ على صوت المنصة. كان يرتجف، والدموع تنهمر على وجهه.

اقترب منه خالد. جلس إلى جانبه. وضع يده على كتفه.

"لا تخفش... معلش... بدنا نعيش. بدنا نطلع من هون. بدنا نرجع لبيوتنا. ثق بالله".

نظر إليه أمين. كانت عيناه واسعتين من الخوف. "لهلدرجة... نحن منحسن؟"

"أكيد. إنت قديش عمرك؟"

"تسعتعش".

"أنا لما دخلت هون، كان ابني عمره سنة. دحين صار ست سنين. وأنا لسا بدي أرجع له. بدي أربيه. بدي شوفه يكبر. وإنت كمان بدك ترجع. بدك تتزوج، تخلف، تعيش. اسمع مني: هون الموت سهل. بس الحياة هي التحدي. بدنا نختار الحياة".

جلسا معاً في الظلام. لم يعودا يسمعان المنصة. صارا يسمعان فقط دقات قلبيهما. دقات تقول: نحن هنا. نحن أحياء. نحن لم نموت بعد.

وفي تلك الليلة، قطع خالد وعداً على نفسه. وعداً بأنه سيعيش. بأنه سيخرج من هذا المكان. بأنه سيرى ابنه. بأنه سيروي للعالم ما حدث هنا. لم يكن يعرف كيف، أو متى. لكنه كان يعرف أنه سيفعلها.

كان هذا هو الأمل. الأمل الذي كان أثمن من الماء، من الطعام، من الهواء نفسه. الأمل الذي كان يضيء ظلام صيدنايا كما تضيء شمعة في ليل أبدي.

الأمل... في وجه الموت.

الفصل الخامس: سقوط النظام

في الأسابيع الأخيرة، صار للهواء في صيدنايا طعم مختلف. كان "خالد" يشعر به في نوبات حراسته الليلية، حين يجلس عند باب المهجع وعيناه معلقتان بشقوق الصاج التي كان الندى يتسلل منها. كان يشعر بأن شيئاً ما يتغير في الخارج، في ذلك العالم الذي غاب عنه ست سنين، كما تشعر البهائم باقتراب الزلزال قبل أن تهتز الأرض.

كانت الشائعات تصل إلى السجن عبر طرق لا يفهمها أحد. عبر همسات في أروقة المشافي حين يُنقل سجين مريض. عبر كلمة عابرة من حارس جديد لم يتعلم بعد لغة الصمت. عبر علامات لا تُرى بالعين، بل تُحس بالقلب. وقبل أيام من تلك الليلة، وصلت همسة غريبة إلى المهجع: "حلب سقطت."

همسها "علاء قشيشة" في أذن خالد، وكان وجهه مشدوهاً بين الفرح والشك. "قالوا إنو حلب صارت بيد... بيد الكراد. يعني مو النظام".

كانت الكلمة غريبة، تكاد تكون مستحيلة. حلب! حلب التي كانت معقل النظام في الشمال. كيف تسقط؟ ومن هم هؤلاء "الكراد"؟ لم يفهم خالد. لكنه شعر بذلك الإحساس الغريب، إحساس أن التاريخ يتحرك. أن شيئاً كبيراً على وشك أن يحدث.

في تلك الأيام الأخيرة، صار السجن أكثر هدوءً، لكنه هدوء مختلف. ليس هدوء الخوف، بل هدوء الترقب. كان الحراس أقل قسوة، شاردة أذهانهم، كأنهم يرون شبحاً في نهاية الممر. وكان "أبو يعقوب" و"منهل سليمان" يختفيان لساعات طويلة في مكاتبهما. كان الدكتور "لجين صقر" لم يعد يمر في جولاته الطبية المرعبة. كان وكأن السجن كله يحبس أنفاسه.

قال "أبو محمد" ذات مساء، وهو يدلك ساقه المتورمة: "في شي عم يصير. أنا عايش بهالسجن سنين، أول مرة بشوف الشرطة هيك. وجوههم متغيرة. خايفين".

نظر إليه خالد. كان وجه أبي محمد شاحباً، لكن عينيه كانتا تلمعان بضوء غريب، ضوء الأمل الذي رفض أن ينطفئ طيلة هذه السنين. "أبو محمد... شو رأيك؟ بده يسقط النظام؟"

أجاب أبو محمد بصوت خافت: "يا ابني... هالسجن ما رح يتفتح إلا بسقوط النظام. بس الله أعلم إذا بنحنا منشوف هاليوم".

كان يوم الأحد. يوم الزيارة في صيدنايا. لكن الزيارة لم تأت. لم يأت الأهل. لم تأت الحافلات. لم يأت شيء من العالم الخارجي.

في الثانية عشرة ظهراً، حدث الشيء الذي جعل قلب خالد يخفق بعنف: فُتح باب المهجع، ودخل الحارس بطعام الغداء.

في الثانية عشرة! كان الغداء يأتي عادة في الثانية والنصف، أحياناً في الثالثة. لكنه اليوم... اليوم جاء مبكراً. مبكراً جداً.

وضع الحارس الجاط على الأرض دون أن ينبس بكلمة. كان وجهه شاحباً. لم يسب، لم يهدد، لم يرفع هراوته. فقط وضع الطعام، وخرج.

نظر خالد إلى أبي محمد. نظر أبو محمد إليه. نظرا إلى راني، إلى علاء. كانت نفس الفكرة تدور في رؤوس الجميع: "في شيء عم يصير".

جلسوا يأكلون البرغل المسلوق في صمت. كان الطعام أسوأ من المعتاد، كأن الطباخين أيضاً كانوا مشغولي البال بشيء آخر. وبعد الغداء، ساد الصمت. ليس صمت القيلولة المعتاد، بل صمت أعمق. صمت رهيب.

كان الحراس عادة، في هذه الساعة، يصرخون في الممرات: "اقطع الصوت! اقطع الصوت "!لكن اليوم... لا شيء. فقط السكون. كأن السجن صار خاوياً.

قال علاء بصوت مرتجف: "شو هالصمت هاد؟"

"اسمع..." قال راني.

أصغوا. من بعيد، سمعوا همهمة. خطوات سريعة. أصوات. كان الحراس مجتمعين. كانوا يتحدثون في الطابق الأول، وفي الطابق الثاني، وفي الطابق الثالث. كانوا يتجمعون كالنمل قبل العاصفة.

ثم، فجأة، سمعوا ضجيجاً. صراخ حراس، أصوات متداخلة. ثم... صمت. صمت مطبق. واختفى صوتهم.

قال أبو محمد بصوت متهدج: "الشرطة... راحوا".

"كيف راحوا؟"

"مش عارف... بس صوتهم اختفى. اختفى تمام".

مرت ساعة. كانت الشمس تبدأ بالميل نحو المغيب. وكان السجن لا يزال صامتاً. كان السجناء يهمسون، ثم رفعوا أصواتهم قليلاً. لم يأت أحد ليسكتهم. لم يطرق أحد الباب. لم يصرخ أحد: "اقطع الصوت"!

ثم سمعوه.

صوت غريب، قادم من السماء. صوت مروحية. كانت تحوم فوق السجن. صوت شفراتها يقطع سكون الجبل. كان خالد يعرف صوت المروحيات، من أيامه في الجيش، ومن أيام المعارك. لكن في صيدنايا لم يكن هذا الصوت مألوفاً أبداً.

"طياره..." همس أحدهم.

"شو في؟ مين جاي؟"

ثم سمعوا أصواتاً أخرى. أصوات سيارات. أصوات صراخ. ليس صراخ ألم، بل صراخ حركة، صراخ فوضى. كان شيئاً ما يحدث خارج الجدران.

تقدم خالد من باب المهجع. وضع أذنه على الصاج البارد. أغلق عينيه وركز. سمع من بعيد: طلقات نار. في البداية كانت بعيدة، من جهة سجن صيدنايا الأبيض، ذاك الذي يبعد

نحو كيلومتر واحد. قال بصوت يحمل كل التساؤلات: "في إطلاق نار... بعيد. عند الأبيض".

ثم اقترب الصوت. صار إطلاق النار في داخل السجن نفسه. سمعوا طلقتين في المسدس، في طابق الإدارة. تجمد الجميع.

"شو عم يصير؟" صرخ أحد الشباب الصغار. "عم يقتلونا؟"

"اسكت!" قال أبو محمد. "خلي نسمع".

كانوا يسمعون صراخاً، أصواتاً متداخلة، خطوات تجري. قال أحدهم: "يمكن في استعصاء. الجنايات مستحصين. في شي بينهم".

ثم... توقف كل شيء.

صمت. صمت كامل. كان السجن يغرق في الظلام، وكانوا هم ينتظرون. لا يعرفون ماذا ينتظرون. الموت؟ الحياة؟ كانوا ينتظرون القدر.

فجأة، سمعوا صوتاً. صوت خطوات تقترب من باب الكتلة. خطوات ثقيلة، لكنها ليست خطوات حارس. كانت مختلفة. ثم سمعوا صراخاً:

"ميداني"!

كان الصوت قادماً من الخارج. كان رجل يصرخ. "ميداني!" أي نزلاء المحكمة الميدانية. أي هم. كان يناديهم!

"هون! إحنا هون!" صرخ خالد.

ثم سمعوا صوتاً على القفل. صوت معدني، صوت عبث، صوت شخص يحاول فتح الباب الحديدي. وبعد ثوان، انفتح الباب.

وقف على العتبة رجل بوجه لم يروه من قبل. كان طويلاً، بشعر أشعث ولحية طويلة، وملامح أنهكها التعب. كان يحمل في يده قفلاً مكسوراً. نظر إليهم، إلى هؤلاء الرجال الجالسين في الظلام، مقطبي الحواجب، خائفي العيون. ثم صاح:

"سقط النظام! بشار هرب"!

لم يتحرك أحد. تجمد الجميع في أماكنهم، وكأن الكلمات لم تصل إلى أدمغتهم بعد. كان خالد يسمع الكلمات تدور في رأسه: "سقط النظام... بشار هرب..." كان يفهمها حرفاً حرفاً، لكن معناها كان أكبر من أن يتسع له العقل. أكبر من أن يتسع له قلب ظل ست سنين ينتظر هذه اللحظة، ولم يعد يصدق أنها قد تأتي.

"شو قلت؟" سأل علاء بصوت مرتجف.

"سقط النظام! بشار هرب! إنتو أحرار! طلعوا"!

ثم... انفجرت المهاجع. صرخات، تكبيرات، بكاء. كان الرجال يتعانقون، يسقطون على ركبهم، يبكون كالأطفال. كان صوت التكبير يرتفع: "الله أكبر! الله أكبر!" كان أبو محمد يبكي بصمت، الدموع تنهمر على لحيته البيضاء. كان راني يضحك ويبكي في آن. كان علاء يقفز في مكانه كطفل صغير.

أما خالد، فقد وقف ساكناً. كان يسمع الضجيج حوله كأنه قادم من بعيد. كانت عيناه تدمعان، لكن جسده لم يتحرك. كان لا يزال غير مصدق. بعد ست سنين من الموت اليومي... هل يمكن أن تنتهي القصة هكذا؟ فجأة؟ بجملة واحدة؟

"يلا... طلعوا!" صرخ الرجل ذو اللحية.

وتحرك خالد أخيراً. خطا خطوة نحو الباب. كانت قدماه حافيتين. كان يمشي على البلاط البارد الذي مشى عليه آلاف المرات، لكن هذه المرة... هذه المرة كان يمشي نحو شيء آخر. نحو الضوء. نحو الهواء. نحو الحياة.

خرجوا إلى فناء السجن. كان المنظر لا يوصف. سجناء في كل مكان، بالمئات، يخرجون من الأبواب كالنمل من جحوره. كانوا حفاة، ببدلاتهم القرمزية والكريمية، بعيونهم التي لم تر الشمس منذ سنين، يحدقون في السماء كأنهم يرونها لأول مرة.

كانت الشمس تغرب. كانت السماء حمراء، كأنها تحاكي الدماء التي سُفكت في هذا المكان. لكنها كانت جميلة. جميلة بشكل لا يطاق.

وقف خالد في الفناء، ورفع رأسه إلى السماء. شعر بالهواء على وجهه. هواء بارد، هواء حر. أخذ نفساً عميقاً. كان الهواء... مختلفاً. كان يحمل رائحة التراب والحرية.

"خالد"!

التفت. كان هناك، عند باب السجن الخارجي، يقف شاب بوجه مألوف. كان... كان أخوه. كان "أيهم". أخوه الأصغر، الذي كان قد سُجن في صيدنايا الأبيض ولم يكن خالد يعرف ذلك. كانا في نفس السجن، يفصل بينهما كيلومتر واحد، ولم يعلما ببعضهما طيلة سنة كاملة.

"أيهم!" ركض نحوه. تعانقا طويلاً. كانا يبكيان. لم يصدقا أنهما معاً، وأنهما حيان، وأنهما خارجان.

ثم رأى صديقه "ذياب دوبة"، رفيق أيام الطفولة والجيش الحر. كان هناك أيضاً، خرج من مكان ما في الزحام. تعانقوا، ثلاثتهم، في وسط الفناء، والدموع تبلل وجوههم، والضحكات تختلط بالبكاء.

وبينما كانوا يقفون هناك، رأى خالد مشهداً حفر في قلبه إلى الأبد. رأى امرأة مسنة، بملابس ريفية بسيطة، تركض نحو شاب خارج من الباب. كانت أمه. أتت من دير الزور لزيارته في يوم الأحد، يوم الزيارة، ولم تكن تعرف أن النظام سيسقط، وأن ابنها سيخرج من ذلك الباب الحديدي ويسقط في حضنها. رآهما يتعانقان، يبكيان، والأم تمسح على وجه ابنها كأنها تتحقق من أنه حقيقي. كان هذا هو المشهد الذي لخص كل شيء.

"يلا... نروح".

بدأ السجناء بالسير. كانوا يخرجون من أبواب صيدنايا ويسيرون على الطريق المؤدي إلى تل منين. كانوا حفاة، وجرحى، ومرضى. لكنهم كانوا يسيرون. كانوا يمشون، وينظرون خلفهم بين الحين والآخر، وكأنهم لا يصدقون أن الجدران الرمادية تبتعد. أن صيدنايا صارت وراءهم.

وصلوا إلى الدوار. كان هناك سيارات، حافلات صغيرة، ناس. ناس عاديون، من القرى المجاورة، أتوا ليأخذوا الناجين. وجد خالد عمه وابن عمه في "سرفيس"، كانا يبحثان عنه، وكانت عيونهما مغرورقتين. صرخ العم: "خالد! يا خالد!" وصعدوا في السيارة.

كانت الطريق إلى بلدتهم في درعا طويلة. كان خالد جالساً في المقعد الخلفي، ينظر من النافذة إلى العالم الذي غاب عنه. كانت الأشجار لا تزال أشجاراً. كانت البيوت لا تزال بيوتاً. كان العالم... لا يزال موجوداً. لم يختف أثناء غيابه. كان ينتظره.

وصلوا إلى البلدة ليلاً. لكن الليل لم يكن مظلماً. كان هناك ناس. كثير من الناس. كانوا واقفين عند مدخل البلدة، يحملون الشموع، يحملون الزهور، يحملون دموعهم. كانوا ينتظرون. كانوا ينتظرون من بقي من أبنائهم.

حين نزل خالد من السيارة، انفجرت الزغاريد. كانت النساء يولولن، والرجال يصفقون، والأطفال يركضون. كان المشهد كحلم. كان يرى وجوهاً يعرفها، ووجوهاً تغيرت. كان يسمع أسماء تنادى، بعضها يجاب، وبعضها... لا.

تقدمت أمه من بين الجمع. كانت تركض، رغم كبرها، رغم تعبها. أمسكت به. لم تقل شيئاً. فقط بكت. بكت وبكت، ودموعها تبلل قميص السجن الذي كان لا يزال يرتديه. ثم جاء أبوه. كان يمشي ببطء، بعكازه، وقد زاد الشيب في لحيته. نظر إليه طويلاً، ثم قال بصوت مبحوح: "الحمد لله... حمداً لله على السلامة".

ثم رأى ابنه.

كان "عماد" قد صار في السابعة من عمره. كان واقفاً خلف جدته، ممسكاً بطرف ثوبها، ينظر إلى هذا الرجل الغريب الذي يبكي والكل حوله يبكون. لم يعرفه. لم يعرف أن هذا أبوه.

قال ابن عمه: "عماد... تعال سلم على بابا. هاد باباك".

نظر إليه عماد. نظر طويلاً. ثم قال بصوت صغير، متردد: "مو بابا... مو لبعده".

في تلك اللحظة، شعر خالد بأن شيئاً ما ينكسر في صدره. لم يكن الألم الذي شعر به في صيدنايا. لم يكن ألم الضرب، ولا ألم الجوع، ولا ألم الموت. كان ألماً جديداً. ألماً لا يشبه شيئاً مما ذاقه من قبل. كان ألم الغياب. ألم ست سنين لا يمكن أن تعود. ألم أب فقده ابنه، وابن فقده أبوه، والزمن الذي بينهما لا يمكن لأحد أن يمحوه.

ركع خالد على ركبتيه. صار في مستوى ابنه. نظر في عينيه الصغيرتين، اللتين كانتا تشبهان عيني أمه. قال بصوت متحشرج: "عماد... أنا باباك. أنا باباك يا ابني".

تقدم الطفل خطوة. خطوة صغيرة. ثم خطوة أخرى. رفع يده ولمس وجه خالد. لمس لحيته التي لم يحلقها منذ أسابيع. لمس الدموع على وجنتيه. ثم قال: "بابا؟"

"أيوه... باباك".

ألقى الطفل نفسه في حضن أبيه. وأحس خالد بأنه ولد من جديد. ولد من رحم الموت. ولد من قلب الظلام.

وفي تلك الليلة، في بلدته في درعا، جلس خالد مع أهله. كانوا يسألون، وكان يجيب. لكنه لم يخبرهم بكل شيء. لم يخبرهم عن الخزان الأحمر، وعن البدلة الحمراء، وعن الجثة التي كان يأكل بجانبها، وعن صرخة "ما بدي موت!" التي ما زالت ترن في أذنيه. كان هناك أشياء لا يمكن أن تقال. أشياء ستبقى مدفونة في صيدنايا، مع رفاق لم يخرجوا.

لكنه كان هنا. كان حياً. كان حراً. وكان هذه هي المعجزة.

كانت هذه هي النهاية... التي كانت بداية.

الفصل السادس: العودة إلى الحياة

لم تكن الحرية كما تخيلها "خالد" طيلة ست سنين. لم تكن كما رسمها في أحلام اليقظة التي كان يهرب إليها من جحيم المهجع، حين يغلق عينيه ويرى نفسه راكضاً في حقول درعا، والريح تداعب وجهه، وابنه بين ذراعيه. كانت الحرية... أثقل. أكثر تعقيداً. كانت تحمل في طياتها كل ما فاته، وكل ما ضاع، وكل من ضاعوا.

في ذلك الصباح الأول بعد ليلة العودة، استيقظ خالد في بيت أهله. كان مستلقياً على فراش حقيقي، بغطاء حقيقي، في غرفة لها سقف من خشب لا من صاج، ونافذة يدخل منها الضوء. لكن جسده لم يكن يفهم. كان جسده لا يزال في المهجع. كان ينام متكوراً على نفسه، كما كان ينام على البلاط البارد. كان يفتح عينيه فزعاً كلما سمع خطوات في الممر خارج الغرفة. كان قلبه يتسارع حين يسمع صوتاً عالياً، منتظراً صرخة "اقطع الصوت!" التي لم تأت.

نهض ببطء. كان كل شيء في جسده يؤلمه. الضلوع المكسورة في صدره، والركبة التي تهشمت تحت الهراوات، والظهر الذي يحمل ذكرى مئات الجلدات. مشى إلى النافذة. كان الضوء يؤذيه. كان قد نسي كيف يبدو ضوء الشمس حراً، غير ذلك الشعاع الشحيح الذي كان يتسلل من شقوق الزنزانة. فتح النافذة. تسلل هواء الصباح، هواء يحمل رائحة التراب والزيتون. كان حلماً. كل هذا كان حلماً.

"خالد... يا ابني... تعال أفطر".

صوت أمه. صار مختلفاً. لم يعد ذلك الصوت المبحوح الذي كان يسمعه من وراء زجاج الزيارة، ذاك الذي تختلط فيه الدموع بالكلمات. صار صوتاً كاملاً، حقيقياً، قريباً. نزل إلى الفناء. كانت أمه قد أعدت الفطور: خبزاً طازجاً، زيتاً، زعتراً. كان الطعام حقيقياً. ليس برغلاً

مسلوقاً بلا ملح، ولا حبتي زيتون متعفنتين، ولا ماء معكراً مختلطاً بالتراب. كان طعاماً له رائحة، له طعم، له لون.

جلس يأكل. وكانت أمه تنظر إليه. كانت تنظر إلى يديه المرتجفتين، إلى شحوب وجهه، إلى عينيه اللتين صارتا تنظران إلى مسافة أبعد مما تراه العيون. لم تقل شيئاً. فقط ظلت تملأ صحنه كلما فرغ، كأنها تريد أن تعوضه في لقيمات عن سنين الجوع.

لكن خالداً، في تلك اللحظة، لم يكن يأكل خبز أمه وحده. كان يأكل وخياله في مكان آخر. كان يفكر في "أبو راشد"، وفي الشاب الذي مات وهو يبكي أمه، وفي كل الرفاق الذين كانوا يجلسون معه على البلاط ويتقاسمون رغيف الخبز الواحد. كان طعم الخبز في فمه يمتزج بطعم الذنب. ذنب الناجي. لماذا أنا؟ لماذا خرجت وهم بقوا؟

في اليوم الثالث بعد العودة، زاره "أبو محمد". كان أبو محمد قد خرج من السجن أيضاً، في نفس يوم الخروج، لكنه كان قد ذهب إلى بيته في درعا ولم يره خالد منذ تلك الليلة. وحين رآه مقبلاً من بعيد، يسير متوكئاً على عكاز، ابتسم. كانت تلك الابتسامة هي الشيء الوحيد الذي لم يتغير. كان أبو محمد لا يزال يحمل وجهه الحكيم نفسه، لكن جسده كان قد صار أشد نحولاً، وعينيه أعمق غوراً.

"يا أبو عناد... كيفك؟"

"الحمد لله... الحمد لله عالسلامة".

جلسا معاً في فناء البيت. كانا صامتين للحظات. كان الصمت بينهما مختلفاً عن صمت المهجع. كان صمت رفيقين خرجا من الحرب معاً، ولا يحتاجان إلى كلمات ليفهما.

"أبو محمد... أنا مش قادر أنام." قال خالد أخيراً.

"ولا أنا".

"ليش؟ إحنا طلعنا. خلص. ليش مش قادرين نرتاح؟"

نظر أبو محمد إلى البعيد. كان هناك أطفال يلعبون في الحارة، أصوات ضحكاتهم ترتفع في الفضاء. قال بصوت هادئ: "يا ابني... إحنا طلعنا من صيدنايا. بس صيدنايا لسا جوانا. لسا فينا. كل ليلة بنرجع لهونيك. كل صوت بنسمعه بنفتكر إنو صوت المنصة. كل حدا بنشوفه بنفتكر إنو حدا من الشباب اللي راحوا".

صمت قليلاً، ثم تابع: "بتعرف... أنا أحياناً بحس بالذنب. ليش أنا طلعت وغيري لا؟ ليش أنا عايش وغيري مات؟ مالي أحسن منهم. بس رب العالمين اختار. ويمكن... يمكن إلنا شغلة بالدنيا لسا. يمكن بدنا نحكي. بدنا نحكي للناس شو صار. مشان اللي راحوا".

"شو بدنا نحكي؟"

"بدنا نحكي عن 'راني'. عن 'علاء'. عن 'أبو أيوب'. عن كل واحد ما طلع. بدنا نحكي إنو هدول كانوا بشر. كانوا ناس. كان عندهم أمهات وآباء وأولاد. كانوا بيحبوا وبيتأملوا. بدنا نحكي إنو الجدران اللي سمعت صراخهم لسا واقفة. وإنو الدم اللي سال عالأرض لسا محفور بالبلاط. بدنا نحكي... مشان ما حدا ينسى".

أحس خالد بغصة في حلقه. كان يعرف أن أبا محمد محق. كان يعرف أن النجاة ليست فقط خروجاً من السجن، بل هي مسؤولية. مسؤولية تجاه من بقوا هناك، تحت التراب، في مقبرة صيدنايا التي لا شواهد فيها ولا أسماء.

في ذلك المساء، ذهب خالد إلى بيت جيرانه. كان يعرف أن ابنهم "علي" - الذي كان يكبره بسنوات قليلة - كان قد اعتُقل في العام ٢٠١٩، مثله. ولم يخرج.

طرق الباب. فتح له والد علي، وكان شيخاً طاعناً في السن، وقد حفر الحزن في وجهه أخاديد عميقة. نظر إليه الشيخ طويلاً، كأنه يبحث في ملامح خالد عن ملامح ابنه. ثم قال بصوت مرتجف: "خالد... طلعت. الحمد لله. علي... علي طلع معك؟"

سكت خالد. كان يعرف الجواب. كان يعرفه منذ كان في المهجع، حين وصلته الأخبار عبر همسات السجناء: "علي... طلع جنزير إعدام." كان يعرف منذ سنين، لكن كيف يقولها لأبيه الآن؟ كيف يخبره أن ابنه صرخ صرخته الأخيرة على منصة لم يرها أحد، ومات وحيداً في ليل صيدنايا البارد؟

"عمي... علي... الله يرحمه".

لم يقل أكثر من ذلك. لم يقل كيف مات. لم يقل متى. لم يقل إنه رآه. فقط تلك الجملة، التي تحمل كل شيء. انحنى الشيخ على عكازه. لم يبك. ربما كان قد بكى كل دموعه في سنين الانتظار. فقط قال بصوت خافت: "الحمد لله... الحمد لله عكل حال. على الأقل عرفنا. على الأقل... ارتاح".

خرج خالد من بيت الجيران وقلبه مثقل بالحجارة. كان يعرف أن هناك مئات البيوت مثل هذا البيت. مئات الآباء والأمهات الذين ينتظرون أبناءهم، ولا يعرفون. مئات العائلات التي تحيا في ذلك الفراغ الرهيب بين الأمل واليأس، بين انتظار العودة وانتظار الخبر. كان هؤلاء هم ضحايا صيدنايا أيضاً. ضحايا لا يعرفون حتى أنهم ضحايا.

وفي تلك الليلة، جلس خالد وحده في غرفته. أغلق عينيه. رأى وجوه الرفاق. رأى "راني ملاك" من السويداء، الذي كان يشاركه الخبز والماء. رأى "علاء قشيشة" الذي كان يهمس معه بالقرآن في الظلام. رأى "أبو أيوب" الذي انكسر على باب المهجع وهو يطلب الماء. رأى الشاب الذي صرخ "ما بدي موت!" ورأى البدلة الحمراء معلقة في الممر.

كلهم ماتوا. كلهم بقوا هناك. وهو هنا. حي. يتنفس. يأكل خبز أمه. يسمع صوت أبيه. لماذا؟ لم يكن الجواب واضحاً. لكنه كان يعرف أن عليه أن يفعل شيئاً. أن يعيش. ليس لنفسه فقط، بل لهم أيضاً. أن يحمل أسماءهم في قلبه. أن يروي قصصهم. ألا يترك العالم ينسى.

بعد أسبوعين من الخروج، جاءه "أيهم"، أخوه الذي وجده عند باب السجن. كان أيهم أصغر منه، لكنه بدا أكبر. السجن أيضاً فعل به فعله، رغم أنه كان في صيدنايا الأبيض، حيث كانت الظروف أقل قسوة كما يقولون. جلسا معاً في المساء، وأخرج أيهم علبة سجائر.

"بتدخن؟" سأله خالد مستغرباً. لم يكن أيهم مدخناً قبل السجن.

"تعلمت... هناك." أجاب أيهم، وهو يشعل سيجارة.

كانا يتحدثان عن السجن. عن الأشياء التي لم يقولاها لأحد. عن التفاصيل التي لا تقال في النهار، في الضوء، أمام الناس. كانا يتحدثان في الليل، لأن الليل وحده هو الوقت الذي يمكن فيه للكلمات أن تخرج، للجروح أن تنز، للدموع أن تسيل دون أن يراها أحد.

"بتعرف..." قال أيهم بصوت خافت. "أنا مش قادر أرجع لحياتي. مش قادر. كنت مفكر إنو بس أطلع، كل شي راح يرجع متل ما كان. بس... مش عم يرجع".

نظر خالد إليه. كان يفهم. كان يفهم أكثر مما يتصور أيهم. كان يعرف أن الخروج من السجن ليس نهاية القصة، بل بداية قصة أخرى. قصة العودة إلى عالم لم يعد يعترف بك، عالم تغير وأنت لم تتغير معه. قصة إعادة بناء الذات من الرماد.

"إحنا... إحنا مش زي الناس." قال خالد. "إحنا عشنا شي غير. شفنا شي غير. إحنا متنا ورجعنا. والناس ما بيفهموا هاد الشي".

سكتا. ثم قال أيهم: "أنا بدي أرجع. بدي أرجع أقاتل".

"ترجع تقاتل؟ لسا بدك تقاتل؟"

"إذا رجع النظام... إذا رجع الأسد... والله لأرجع. والله لأرجع لصيدنايا كمان مرة. أنا ما شلت البارودة عبث. أنا شلتها عن قناعة. ولسا عندي القناعة".

نظر إليه خالد طويلاً. كان يعرف أن أخاه صادق. كان يعرف أن في قلبهما معاً شيئاً لم يمت. شيئاً يرفض أن يموت، رغم كل ما حدث.

في يوم الجمعة، ذهب خالد إلى المقبرة. لم تكن مقبرة حقيقية. لم يكن هناك قبر لـ"راني"، ولا لـ"علاء"، ولا لـ"أبو أيوب". قبورهم كانت في مكان مجهول، في تلك الأرض قرب صيدنايا حيث كانوا يدفنون المعدومين في حفر جماعية بلا شواهد. وقف هناك، على حافة مقبرة البلدة، ينظر إلى القبور البيضاء. كان يعرف أن رفاقه ليسوا هنا. لكنه كان يعرف أيضاً أنهم هنا، في قلبه، في ذاكرته، في كل نفس يتنفسه.

قال في سره: "يا رب... ارحمهم. ارحم 'راني' و'علاء' و'أبو أيوب' وكل اللي ماتوا. يا رب... أنا عارف إنو أنا ما استاهل النجاة أكتر منهم. بس أنا هون. أنا هون لسبب. ساعدني أعرف شو هو".

لم يسمع جواباً. لكنه شعر بشيء. بشيء في قلبه. كان السلام. سلام لم يشعر به منذ سنين. سلام من عرف أنه نجا لسبب. وأن عليه أن يكتشف هذا السبب.

مرت الأيام. وصار خالد يحاول أن يعيش. كان يحاول أن يتعلم كيف يعيش في هذا العالم الجديد. كان يمشي في الشوارع ويرى الناس. ناساً عاديين، يضحكون، يتجادلون، يشترون الخبز، يذهبون إلى أعمالهم. كانوا يعيشون. وكان هو يتعلم منهم. يتعلم كيف يكون طبيعياً. كيف يضحك. كيف يغضب. كيف يفرح. كان يتعلم أبسط الأشياء. أشياء كان يفعلها دون تفكير قبل السجن، ونسي كيف يفعلها.

لكن الأصعب كان مع ابنه. مع "عماد."

في البداية، كان الطفل غريباً. كان ينظر إلى خالد كأنه شخص لا يعرفه، لأن الحقيقة أنه لم يكن يعرفه. كان قد تركه رضيعاً، وعاد ليجد طفلاً في السابعة. طفلاً له شخصيته، له ذكرياته، له عالمه الذي لم يكن خالد جزءاً منه.

كان خالد يحاول. كان يحاول أن يقترب. أن يتحدث معه. أن يلعب معه. لكن شيئاً ما كان بينهما. شيئاً غير مرئي. مسافة من الزمن الضائع. سبع سنين من الغياب لا يمكن أن تمحى بين ليلة وضحاها.

وفي أحد الأيام، بينما كان خالد جالساً في الفناء، جاء عماد إليه. كان يحمل كرة. قال بصوت صغير: "بابا... بتعرف تلعب كرة؟"

كان هذا هو السؤال. بتعرف تلعب كرة؟ بتعرف تكون أباً؟ بتعرف تعيش؟ نظر خالد إلى ابنه. كانت عينا الطفل متسائلتين، مترددتين، لكن فيهما أيضاً شيئاً من الأمل. أمل في أن هذا الغريب يمكن أن يكون أباً حقيقياً.

"أيوه... بتعلم".

أخذ الكرة. وركلاها معاً في فناء البيت. كانت المرة الأولى. المرة الأولى التي يفعلان فيها شيئاً معاً. كان عماد يضحك حين يخطئ خالد. وكان خالد يضحك أيضاً. ضحكة حقيقية، لم تكن مجاملة أو محاولة. كانت ضحكة خرجت من قلبه. من المكان الذي لم يمت. من المكان الذي كان ينتظر هذه اللحظة.

وفي تلك الليلة، حين أوى إلى فراشه، شعر بشيء جديد. شعر بأنه... عاد. ليس إلى الحياة التي كان يعرفها قبل السجن، بل إلى حياة جديدة. حياة تحمل ندوب الماضي، لكنها تملك أيضاً بذور المستقبل. حياة فيها ابنه، وفيه الأمل.

بعد شهر من الخروج، وقف خالد على تلة صغيرة تطل على بلدته. كان الوقت غروباً، والسماء كانت مصبوغة بالأحمر والذهبي، وكانت الريح تهب باردة. نظر إلى البيوت الصغيرة المتناثرة، إلى المسجد بمئذنته البيضاء، إلى الحقول التي بدأت تخضر بعد موسم الأمطار. كان كل هذا موجوداً. كان ينتظره. ولم يكن يعرف.

أغلق عينيه. تذكر صيدنايا. تذكر الجدران الصاج، والممرات المعتمة، والزنازين الانفرادية. تذكر صوت المنصة، وصرخة "ما بدي موت!"، والبدلة الحمراء. تذكر الوجوه. وجوه الرفاق الذين رحلوا. كانوا هناك، خلف جفنيه، محفورين إلى الأبد.

لكنه فتح عينيه. وكان هنا. في درعا. في الحرية. في الحياة.

"ولدت من جديد." قالها لنفسه بصوت خافت. "ولدت من جديد... ولكن".

"ولكن"... كانت هذه هي الكلمة التي لخصت كل شيء. كان قد ولد من جديد، نعم. لكنه لم يعد ذاك الشاب الذي دخل السجن في العام ٢٠١٩. كان قد صار شخصاً آخر. شخصاً يحمل في قلبه مقبرة جماعية من الذكريات. شخصاً يحمل في جسده ندوباً لن تلتئم. شخصاً عجوزاً في الثلاثين، عجوزاً بآلامه، بصدماته، بأحزانه.

كان قد ولد من جديد. ولكن...

كان هذا هو الثمن. ثمن النجاة.

نظر إلى السماء. كانت النجوم تبدأ بالظهور، واحدة تلو الأخرى، كأرواح الرفاق الذين صعدوا. كان يعرف أنه لن ينساهم. لن ينسى. أبداً. سيعيش، نعم. سيحب، سيضحك، سيربي ابنه، سيزرع أرضه. لكن صيدنايا ستبقى فيه. ستبقى كجرح لا يلتئم. كندبة على الروح.

وهذا... هذا هو معنى أن تولد من جديد.

أن تحمل موتك معك. أن تحمل موت رفاقك معك. أن تمضي في الحياة، ليس لأنك نسيت، بل لأنك تتذكر. لأنك تعرف أن النجاة ليست هدية، بل مسؤولية. مسؤولية أن تعيش. أن تعيش من أجلهم. من أجل الذين لم تفتح لهم الأبواب.

أخذ نفساً عميقاً. كان الهواء بارداً، نقياً، حراً. كان هواء الحياة. وكان يعرف، في أعماق قلبه، أنه مهما حمل من آلام، فقد اختار الحياة. اختار أن يعيش. اختار أن يعود.

ومن بعيد، جاءه صوت عماد: "بابا... تعال"!

التفت خالد. رأى ابنه واقفاً عند باب البيت، يلوح له. ابتسم. كان هناك مستقبل. كان هناك أمل. كان هناك حياة.

نزل من التلة، متجهاً نحو البيت، نحو ابنه، نحو الحياة الجديدة. كان الليل يهبط، لكن النجوم كانت تضيء الطريق.

خاتمة

في سجن صيدنايا، كانت هناك زنزانة مهجورة. جدرانها الصاج لا تزال تحمل حكايات من حفروا عليها بأظافرهم. أرضيتها الباردة لا تزال تحمل صلوات من سجدوا عليها. وفي زاوية منها، كان هناك خدش صغير على الحائط، كتبه سجين بغصن برتقال جاف. كان الخدش يقول كلمة واحدة، بالكاد تُقرأ:

"أمل".

كان خالد قد كتبها. في ليلة من الليالي، قبل أن تفتح الأبواب. كان قد كتبها وهو لا يعرف إن كان سيخرج. كان قد كتبها لأنه كان يعرف أن الأمل هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن لسجان أن يسرقه. الأمل الذي عاش به. الأمل الذي خرج به. الأمل الذي صار به... حياً.

وهكذا، اكتملت القصة.

قصة "خالد عمر البرتقالي". قصة "أبو عناد". قصة رجل مات ألف مرة، وولد من جديد. قصة خرجت من قلب الظلام، لتروي للعالم أن الإنسان، مهما سُحق، يمكنه أن ينهض. أن الروح، مهما عُذبت، يمكنها أن تشفى. أن الحياة، مهما بدت مستحيلة، يمكنها أن تنتصر.

إنها قصة صيدنايا. وقصة سوريا. وقصة كل من قال، في ليل الزنزانة: "ما بدي موت".

إنها قصة... البقاء.

تمت

الخاتمة:

وبعد أن طوينا صفحات هذه الرحلة المروعة، نقف للحظة نتأمل ما مررنا به. كانوا مجرد أرقام في سجلات السجون، وجوه باهتة في زنازين الظلام، أصوات تخنقها جدران صيدنايا وفروع الأمن العسكري. لكنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير.

كانوا **حسين** الذي حمل رائحة خبز الجولان في قلبه، وعبر الصحارى والحدود حاملاً كرامته فوق كل اعتبار، رافضاً أن يكون جاسوساً ولو كان ثمن ذلك السجن.

كانوا **أيوب** الذي تحول من تاجر خضرة إلى طبيب بلا شهادة، يداوي جراح المساجين بأدوات بدائية وصبر لا ينضب، وهو يعلم أن كل يوم قد يكون الأخير.

كانوا **رامي** الذي دخل السجن في السابعة عشرة وخرج منه يحمل جروحاً لا تندمل، لكنه حمل أيضاً انتصاراً أكبر: أنه لم ينكسر، وأنه خرج حياً ليحكي للعالم ما رأت عيناه.

كانت **نورا** التي جردت من ملابسها وكرامتها، وهي أم لأربعة أطفال، لكنها لم تجرد من إنسانيتها، ووقفت في وجه الجلادين كالجبل لا يتزعزع.

كان **نائل** الذي اقتيد من حاجز عسكري إلى غياهب أمن الدولة، فوجد نفسه في مهجع رقم واحد، بين مثقفين ومفكرين، يدفعون ثمن جريرة واحدة: جريرة أنهم كانوا يعرفون كيف يفكرون.

كل هؤلاء، وآخرون كثيرون لا يتسع المجال لذكرهم، تركوا لنا إرثاً ثميناً: إرث الكرامة. إرثاً يقول إنه مهما طال الظلم، ومهما كانت الزنازين عميقة، ومهما اشتد الجوع وعظم الألم، فإن الروح الإنسانية تبقى أقوى من كل شيء.

وهذا الإرث لم يكن مجرد قصص تُروى، بل كان بصمة في جبين التاريخ. فبفضل صمود هؤلاء، وبفضل تضحيات الشهداء الذين سقطوا تحت التعذيب وفي ساحات المعارك،

استطاعت سوريا أن تنهض من تحت رماد الطغيان. استطاعت أن تحطم قيود الخوف، وأن تشق طريقها نحو الحرية التي حلم بها أولئك الأسرى في زنازينهم المظلمة.

نعم، سقط النظام البائد. سقط بشار الأسد المجرم وعصابته. وغابت أيقونات القمع والفساد، وانهارت جدران الخوف التي بنوها لعقود. لكن ما لن يسقط أبداً هو إرث الكرامة الذي زرعه هؤلاء الأبطال في قلوبنا.

هذا الكتاب هو جزء صغير من ذلك الإرث. هو شهادة على ما حدث، وتذكير بأن الحرية لم تأتِ هباءً، بل ثمنها كان غالياً جداً: دماء الشهداء، ودموع الأمهات، وعذاب الأسرى، وصبر الصامدين.

نكتب هذه السطور في فجر حرية جديد، وقلوبنا مليئة بالأمل، وأعيننا تتطلع إلى مستقبل تبنيه أيادي السوريين الأحرار. مستقبل لا مكان فيه للزنازين، ولا للجلادين، ولا للخوف. مستقبل تصبح فيه الكرامة حقاً لكل مواطن، وليس مجرد حلم يطارده الأسرى في زنازينهم.

إلى أرواح الشهداء الذين لم يروا هذا الفجر، نهدي هذه الكلمات. وإلى الناجين الذين حملوا جروحهم وألمهم وصمدوا، نقدم التحية والإجلال. وإلى الأجيال القادمة، نقول: هذه هي قصتكم، هذا هو ماضيكم، فلا تنسوه. احملوا إرث الكرامة كما حمله من سبقوكم، وابنوا سوريا الجديدة على أسس العدل والحرية والكرامة.

رحم الله الشهداء، وشفى الله الجرحى، وطوى الله صفحات الظلم إلى الأبد.

دمشق، في عيد الحرية

كانون الثاني ٢٠٢٥